الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

المحاضرات العامة

الموسم الثقافى ١٩٦٧ / ١٩٦٨

القاهرة
الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية
مطبعة جامعة عين شمس
١٩٦٨

مملكة موريتانيا المصرية*(1)

للأستاذ الشاطر بصيلي عبد الجليل

تمهيد :

لقد كانت منطقة الواحات بعامة ، والجانب الذى يحتل الجزء الشرقي من الصحراء الليبية بخاصة ، وثيقة الصلات والروابط بحوض وادى النيل ، الأمر الذى يرجع إلى أهمية المنطقة بموقعها على مسالك التجارة عن طريق القوافل ، التى كانت تخرج من حوض وادى النيل وتعبر المنسقة إلى الأقاليم الأفريقية المتباينة في الشمال والغرب والجنوب والجنوب الغربي . وعلى الرغم من أن تاريخ المنطقة وتطورها قد أسدلت عليه الفترات المظلمة ستاراً كثيفاً ، فأننا نجد توضيحا لذلك فى تطور الوضع المناخى ، الذى حول الأقاليم الخصبة البعيدة المدى ، إلى مناطق جرداء ، انحسرت أراضيها الخصبة تدريجياً في مناطق صغيرة وهى التى عرفت بالواحات ، وقد أخذت هذه في التآكل المضطرد ، الأمر الذى دفع السكان إلى الهرب إلى مناطق أكثر رخاء ، واستوحشت الحيوانات التى كانت تعيش في الواحات ، وقد انقرض العدد الأكبر منها . كما أن طرق القوافل قد نقلت وكان آخرها في عهد أحمد بن طولون الذى أمر بقفل الطريق إلى الشمال والغرب بسبب ساقية الرمال ، التى كانت تغطى القوافل وتدفنها . وكانت أكبر حملة دفنتها هذه الرمال تلك القوة التى أرسلها قمبيز لتدمير واحة سيوة على حد قول ، والواحة الداخلة على قول ثان . على أى حال إن الجيش قد فاجأته العواصف الرملية فأهلكته كلياً .

والمعروف أن لفظ ليبيا ، الذى أطلق على المنطقة منذ عهد غارق في القدم ، يرجع في أصله إلى لفظ ريبو R'Bw ، الذى عرفت به القبائل التى تسكن المناطق

(*) محاضرة القيت بدار الجمعية مساء الاثنين ٦ من نوفمبر سنة ١٩٦٧

(١) عن كتاب تاريخ وحضارات وادى النيل الأوسط — للشاطر بصيلى عبد الجليل .

الغربية المجاورة لحوض وادى النيل ، وذلك كما جاء في النقوش المصرية القديمة . وقد أطلقت على المنطقة الشرقية من الصحراء الليبية مسميات عديدة في مختلف الفترات ، ويبدو أن ذلك يرجع إلى تبادل السكنى في المناطق بين السكان الضعاف والنازحين إليها من الخارج وكانوا بطبيعة الحال من الأقوياء . وعرفت المنطقة التى تضم الواحات المصرية الثلاث وهى الداخلة والخارجة والفرافرة ، على الأقل ، باسم « موريتانيا » وكانت تحكمها أسرة كانت بيدها التجارة .

ويرجع لفظ « موريتانيا » في أصوله إلى جماعات من الميديين **Medes** الذين جاءوا من بر الشام إلى الساحل الليبي في أوائل العهد المسيحى ، وامتد نشاطهم إلى منطقة الواحات الشرقية لممارسة التجارة والسيطرة على طرقها ومواردها .

وقد أصيب اللفظ « ميدى » بتصحيف ، بسبب اللهجات المحلية فتغير الدال إلى راء ، وحدث أيضاً تغيير في الصورة الصوتية للفظ . هذا التغيير يكاد أن يكون من الأمور العادية . وهوعلى الرغم من أنه أمر عادى فإنه يعطينا دليلاً على التطورات اللغوية بسبب الهجرات وتساعد على دراسة هذا الموضوع في توضيح الوضع التاريخى وبنيته . فقد رأينا أن لفظ ريبو صار ليبيا حيث تغير اللام وصار « راء » وذلك في عهد قديم . وجاء في العهد المسيحى أو قبله بقليل تغيير الدال إلى «راء» وتغيير الميم إلى ياء في لفظ نوميدى **Numidae** وتغيرت أيضاً الصورة اللفظية في لفظ ميديين **Medes** فصار مورين **Mauri** (**Maurospro-Medis**)(١) أما لفظ نوميدى (**Numidae**) فقد تغير الميم فصار (ياء) وتغير الدال إلى تاء فكانت الكلمة نوباريا أو نوباتيا ، وأصابها تغيير في الصورة الصوتية ، لانرى مجالاً للخوض فيه هنا . ومعنى لفظ نوميدى في أصله الرومى التجوال أو الرعى وقد أطلق على الجماعات التي كانت تسكن في المشارف الصحراوية للإقليم الليبي وكانوا يمارسون التجارة بين الساحل الليبي وداخلية القارة الأفريقية . وقد جاء هؤلاء حوالى القرن

(١) **Bates, Oric, The Eastern Libyans, London 1914, p. 255.**

الرابع قبل الميلاد إلى حوض وادى النيل الأوسط وكانت المجموعة الأخيرة التى جاءت تلك التى سكنت في منطقة الشلال الأول .

وقد جاء إسم موريتانيا الذى عرفت به المنطقة الشرقيه من الصحراء الليبية في كتاب حنا النيقوى ، كما أشار إلى هذا الإسم السير ريتشارد بالمر Richard Palmer في كتابه عن « بونو والصحارى والسودان[١] » . حيث أورد ما يدل على أن هذا الإسم كان مستخدماً للتعريف بالمنطقة الواقعة شمال دنقله على حذاء حوض وادى النيل في ناحيته الغربية (ضفته اليسرى) وكان ذلك في حديثه عن برنوح (برنو) حيث جاء « أن الصحراء الواقعة شرق برنوح تمتد إلى أتيوبيا (حوض وادى النيل الأوسط) وموريتانيا (شمالاً) وأرض المازيكس (اليحاه = البشاه) (في الشمال الشرقي) . وهؤلاء المازيكس هم البلمى Blemmyes

ويقول بروقبيوس Procopius في كتابه تاريخ الحروب[٢] عن سيطرة الروم على المنطقة من صحراء ليبيا ، التى تقع غرب حوض وادى النيل من إقليم مصر ، « أنهم أى الروم ، قد اشتبكوا في قتال ضد الموريتانيين وأخضعوهم لسيطرتهم . وقد استخدم الروم الخيل ، واستخدم المورى الجمال ، وقد كان استخدام الجمال سبباً في هزيمة الروم حيث أنها قد جعلت خيل الروم تفر من ميدان القتال بسبب ضجيجها المزعج » .

ويقول بالمر[٣] أيضاً أن المازيكس قد ثاروا في عام ٣٧٣ ميلادية ، ودخلوا أرض موريتانيا ، فارسل الإمبراطور ثيود وسيوس حملة لتأديبهم وهم في أرض موريتانيا . وقد وردت أسماء القبائل التى سكنت موريتانيا في الوثيقة التى كتبت في عهد ديوقلتيان ، كما جاء في كتابه في الصفحة ١١٧

والمعروف أيضاً أن نسطوريوس قد احتجز في الواحة الخارجة حوالى عام ٤٣٥ ميلادية ، وقد اختطفه المازيكس (البشا أو البجا) في غزوة لهم لى الواحة ، وفكوا أسره بالقرب من بلدة أخميم في صعيد مصر .)

---

(١) Palmer, Sir Richard, Bornu. Sahara and the Sudan, London 1936.

(٢) Procopius of Caesarea, History of the Wars, Book III p. 291.

(٣) Palmer, Sir Richard, Bornu, Sahard and the Sudan, London 1936.

الوضع الاقليمى :

يهتم هذا البحث بمجموعة الواحات المصرية – موريتانيا – التى تتكون من الواحات الداخلة والخارجة والفرافرة ، ويتبع هذه المجموعة عدد من الواحات الصغيرة ، التى عرفت في المصادر العربية بالحارات . ويرجع اهتمامنا بهذه المجموعة من الواحات المصرية إلى صلتها بإقليم دنقله ، كما أنها كانت تقع على الطريق الذى كانت تسلكه القوافل بين الشمال والجنوب عن طريق درب الأربعين

وهنالك مجموعة ثانية من الواحات، تقع في الشمال وتتكون من الواحات البحرية وسيوه . وهنالك مجموعة ثالثة غربى خط طول ٢٤ شرق . وهناك مجموعات صغيرة متناثرة هنا وهناك .

وقد كانت مجموعة الواحات الجنوبية من مملكة موريتانيا تحتل مركزاً استراتيجياً،له خطورته على المواصلات بين حوض وادى النيل ، وقلب القارة الأفريقية . فقد كانت الواحات المشار إليها ترتبط مع حوض النيل بعدد من الطرق التى كانت تسلكها القوافل ، ومن أهم هذه الطرق من الجنوب إلى الشمال أى من أسوان إلى شمال أسيوط . فكانت تخرج القوافل من حوض النيل في المناطق الآتية :

ابتداء من منطقة أسوان (١) دراو (٢) من إدفو . ثم (٣) من إسنا (٤) من الرزيقات (٥) من فرشوط (٦) من العلوانية (٧) من الكوامل (٨) من الغنائم (٩) من الزرابي (١٠) من أسيوط (بنى عدى) .

وكانت هذه المسالك تتصل بدرب الأربعين المعروف باستخدامه منذ أقدم العصور للقوافل بين أسيوط (بنى عدى) ودارفور ويتصل هذا الطريق بحوض النيل في منطقة دنقله .

وقصة درب الأربعين غارقة في القدم ، وقد بقى هذا الطريق من بين الكثير من المسالك التجارية التى كانت تسير عبر الصحراء الغربية وقد أغلقت هذه الطرق بسبب أو آخر ، من أهمها كانت بسبب سافية الريح ، التى كانت تردم القوافل بكلها وكليلها ـ وقد لعبت هذه الطرق دوراً هاماً في نقل الحضارة

إلى قلب القارة الأفريقية وإلى أقسامها الغربية، كما كانت أيضاً الطريق الذى سلكته الهجرات المتتابعة بخاصة من حوض وادى النيل الأدنى .

التطور التاريخى :

ولا يعلم عن تاريخ أرض موريتانيا في جزئها الجنوبى في العهد الإسلامى أكثر مما جاء فيما كتبه ابن حوقل الذى أشار إلى أن السلطنة التى كانت تتولى حكم هذه المنطقة كانت في أيدى أسرة آل عبدون . وذلك منذ الفتح الإسلامى لمصر حوالى عام ٦٤٠ م أما عن الزمن السابق لدخول العرب المسلمين إلى مصر فيقول ابن حوقل « وبجميع الواحات بيع قديمة أزلية معمورة لأن البلد كان نصراني الأصل قديماً ، وتشير المصادر التاريخية إلى قيام الرومان بحفر الآبار لتعمير البلاد ، كما أنهم قد شقوا الجداول المغطاة لسريان المياه إلى الأرض الخصبة ، ويرجع تغطية هذه الجداول لحفظها من الرمال .

وأقام الروم المعابد وأنشأوا القلاع والحصون لحماية الإقليم من الغزوات ولحماية طرق القوافل — وقد ازدادت الهجرات إليها من حوض وادى النيل في العهد المسيحى بسبب الاضطهاد الدينى . وهنالك حظيرة مسيحية في البجوات في الواحة الخارجة وكذلك في واحة الفرافرة ويقول ابن حوقل والغالب على أهل القرفرون (الفرافرة) القبط والنصارى .

وجاء في كتاب البلدان لليعقوبي « أن الواحه الخارجة هى بلاد فيها حصون ومزارع وعيون مطمورة ومياه جارية وأصناف الشعير والكروم ومزارع أرز »[١] .

ويقول المسعودى« [٢] أما بلاد الواحات وهى بين مصر والاسكندرية وصعيد مصر والمغرب وأرض الأحباش[٣] من النوبة وغيرهم ، . . .

---

(١) اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن واضح : كتاب البلدان .
(٢) المسعودى : أبو الحسن على بن الحسن بن على : مروج الذهب .
(٣) أرض الأحباش اسم يطلق خطأ على حوض وادى النيل الأوسط . وهو غير صحيح .

رصاحب الواحات في وقتنا هذا ، وهو سنه إثنين وثلاثين وثلثمائه (هجرية ٩٤٣ - ٩٤٤ م[١] عبد الملك بن مروان ، وهو رجل من لواته ، إلا أنه مرواني المذهب ، ويركب في الوف من الناس خيلاً ورحيلاً ونجباً ، وبينه وبين الأحباش (النوبة) نحو ستة أيام ، ولذلك بينه وبين سائر ماذكرنا من العمائر هذا المقدار من المسافة ، وفي أرضه خواص وعجائب ، وهو بلد قائم بنفسه ، غير متصل بغيره ، ولا مفتقر إليه ؛ ويحمل من أرضه التمر والزبيب والعناب . وقد رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بباب الإخشيد محمد بن طغج وذلك سنة ستة وثلاثين وثلاثمائة ، وسألته عن كثير من أخبار بلده .

ونقل إلينا الأنصارى في كتابه[٢] : « إن الواحات كانت من قبل مملكة قائمة بذاتها ، ثم صارت مضافة وقد أشار إلى الواحات ،ونقل عنها الكثير ابن دقماق في كتابه « الانتصار بواسطة عقد الأمصار » ونشير إلى ماجاء في هذا الكتاب في غير هذا الموضع .

ولا نريد أن نتعرض لموضوع الجفاف وتآكل التربة وانخفاض مستوى المياه الجوفية وزحف الكثبان الرملية لأن ذلك سوف يخرجنا من موضوع البحث .

الأسرة الحاكمة :

أشار ابن حوقل إلى أن أسرة آل عيدون ، تحكم مملكة الواحات من زمن سابق لدخول العرب إلى مصر في عام ٦٤٠ م - وذكر المسعودى كما سبق أن أشرنا أن صاحب الواحات في عام ٣٣٠ ه (٩٤١ - ٩٤٢ ميلادية) وكان اسمه عبد الملك بن مروان . وأضاف ابن حوقل أن الحاكم كان فى زمنه عيدون بن محمد بن عيدون . ويضيف ابن حوقل[٣] أن ملوك هذه

---

(١) ما بين الحاضرتين هو التاريخ الميلادى .
(٢) الأنصارى : شمس الدين أبى عبد الله : نخبة الدهر وعجائب البحر
(٣) ابن حوقل : أبى القاسم أبى حوقل النصيبى : كتاب صورة الأرض ليون سنة ١٩٣٨ ص ١٥٤ - ١٥٥

الناحية يرجعون إلى مروءة فاشية ، ومظاهرة بالحرية ورغبة في القاصدين، ومحبة للمنتجعين على جميع ضروب القصد . مكرمين للتجار نازلين على أحكامهم في الأرباح وكان من أحرصهم على هذه الوتيرة يتقبل المحاسن ويحب حسن الأحدوثة والشكر ، ويرغب في جميل الذكر ، أبو الحسن مكبر بن عبد الصمد بن عبدون رحمه الله ، بكبر نفسه وسعة قلبه وكثرة طوله وفاشي مروءته يزيد على من سلف له من أهله في جميع المقاصد الكريمة . ويركب منها الطرقات الصعبة الجسيمة ولما مضى قام مكانه ، وعمر موضعه عبدون بن محمد بن عبدون في ضمن عبد له ، يعرف بمصبح بن ميمون مغربي الأصل مولد بالواحات ، وهو رجل ندب وشيخ شهم ، ونواحيهم كثيرة المياه والأشجار والغياض والعيون الجارية العذبة متصرفة في نخيلهم وزرعهم وأجنتهم وأكثر غلاتهم بعد القمح والشعير والأرز ، ولديهم من العناب الكثير والفوة الواسعة الغريزة ، ما يغدق به إلى الكثير من النواحى، وهى كالناحية المعتزلة في مركز دائرة من النيل ، ومن أى نحو قصدت الواحات من أنحائها كان الوصول إليها من ثلاث مراحل إلى أربع مراحل ، والناحية الخارجة منها المعروفة ببيخيط وبيريس أقرب إلى النيل ، ومن قصدها من ناحية النوبة .

وللأسرة المالكة عدد من القصير الفرفرون والبهنسا قصران لآل عبدون ، يليه مساكن كمساكن القلمون ، ولا حرم فيها ولا ذخيرة بل هى أعدت لنزول أهلها بها — عند تنزههم ، ويليها مساكن الأكرة بالبهنسا وبيخيط وبيريس قرى ظاهرة وباطنة ، وأمم عليهم لوازم للسلطان وجزية ، أعدت لنزول أهلها بها - عند نزههم ، ويليها مساكن الأكرة بالبهنسا ولا يمد آل عبدون وخدمهم أيديهم في شئ من الجباية سوى الخراج والجزية من النصارى وليس بجميع الواحات يهودى واحد فما فوقه .

ولا نعلم شيئاً مؤكداً عن الحال الذى انتهت إليه هذه الأسرة المالكة ، غير أن نجد عدداً من الذين يحملون لقب عيدون في مناطق معينة منها بين النوبة بخاصة ، وهذه تحتاج إلى دراسة للتعرف على أصول هؤلاء .

موارد المملكة :

تقوم إيرادات الأسرة الحاكمة وأجهزة حكمها على ما تحصله من ضرائب، من جزية ومن خراج من السلطان وبالإضافة إلى ذلك من دخل الحكومة من الحكومات التى تقدمها للتجارة وللإقليم غلاته من القمح والتمور والعناب والقطاني إلى جميع الفواكه والبقول ما يزيد على حاجتهم .

المراجع العربية للتاريخ الإسلامى
في غرب أفريقيا *

للأستاذ الدكتور عبد الرحمن زكي

كان شارل دى لارونسيير في طليعة مؤرخى البحرية الفرنسية ، فنحى دراساته عن البحرية جانباً ، وأخذ يبحث ويؤلف في تاريخ الريادة والكشف في أفريقيا خلال عصر النهضة وما بعدها . وفي عام ١٩٢٤ ، أماط المؤرخ الجغرافي شارل دى لارونسيير اللثام عن أوائل الرواد والمستكشفين الأوربيين الذين طوفوا في غرب أفريقيا في أخريات القرن الخامس عشر ، ثم أصدر كتابه الضخم : « الاكتشافات الأفريقية في العصور الوسطى » عام ١٩٢٥—٢٧ برعاية الجمعية الجغرافية المصرية التى أنفقت على نشر الكتاب وطبعه[1] .

نذكر هذا ، لتوضيح كيف سبق جغرافيو العرب ومؤرخوهم منذ القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر زملاءهم في العالم الغربي في مجال البحوث الأفريقية بقرون عديدة ، عن طريق اختراق الصحارى الكبرى ، ودونوا دراساتهم الجليلة في مؤلفات قيمة أفاد منها العالم .

والواقع ، أن ما وصل إليه العلامة الفرنسى لعمل قيم جداً عن أقدم الاستكشافات الجغرافية التى قام بها الأوربيون في قلب أفريقيا منذ القرن السادس عشر . وعلى سبيل المثال ، فقد وجد شارل دى لارونسيير بعد البحث ، أن أنسيلم ديسالجييه (Anselme Disalguir) من أهالى تولوز بجنوب فرنسا ، كان قد أقلع مساحلا السنغال وغمبيا في عام ١٤٠٥ ، ثم أصعد في نهر النيجر

(*) محاضرة ألقيت بدار الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مساء يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٦٧

(١) Charles de la Ronciere : La Découverte de l'Afrique au Moyen Age 1925. Soc. R. d'Egypte.

وعاش أحد عشر عاماً في جاو التي كانت عاصمة مملكة سنغاى ، ثم عاد إلى فرنسا في عام ١٤١٦ وفي صحبته زوجة سوداء وبعض الأطفال المختلطى الدماء ، وطبيب أسود بارع وبعض الخدم . فلما وصل إلى فرنسا ، كانت في حرب للمرة الثانية مع إنجلترا ، إذ كان وصوله بعد عام واحد من معركة أجينكورت المخربة . ولسوء الحظ ، فإن ديسابلجييه بدلاً عن أن يدون مذكراته كما فعل ابن بطوطة وابن حوقل لتبقى لنا مرجعاً في أحوال شعوب وحضارة سنغاى وغيرها ، فقد شغل نفسه في تصنيف معجم بثلاث لغات: الفرنسية والعربية ولغة السود . ولم يصلنا هذا المعجم ولكن علمنا شيئاً عنه من رسائل « أنطونيو مالفانتى» إلى مواطن جنوى إسمه » جيوفا نى ماريانو» يصف فيها أرض النيجر وشعوبه التي مر بها عام ١٤٤٧ . . . أى بعد ديسابلجييه . .

نذكر هذا للإشادة بفضل العرب ، من مؤرخين وجغرافيين ورحالة لإسهامهم في البحث والتأليف عن أفريقيا منذ القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر . فاخترقوا الصحارى ، وتجشموا الصعاب بصحبة قوافل التجارة ورجال الدعوة والعلم باحثين عن آفاق كانت مجهولة لدى العالم ، ومن سبقوهم من الشعوب المتحضرة كالإغريق والرومان . فالأوربيون لم يبدأوا الدراسات الأفريقية وكشف مجاهل القارة إلا في أعقاب عصر النهضة والاستكشافات البحرية فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر . واقتصرت كتاباتهم حينذاك على السواحل ومصبات الأنهار مدة قرن من الزمان على أقل تقدير . وكان هدفهم الإتجار بالرقيق ، واستعمار خيرات البلاد أولاً ، ولابأس أن نذكر التبشير بالنصرانية ثانياً بعد ماخسروا معركتهم الصليبية في الشرق العربي .

منذ بدأت حركات التحرير الأفريقية تجنى ثمارها في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، فازت الشعوب الأفريقية بحريتها واستقلالها أثر استعمار أوروبي طويل الأمد ، عمّ في أثنائه الجهل والمرض والفقر . ومن ثم واجهت تلك الدول عدة مشاكل اقتصادية وسياسية ومالية . وكان من بينها النهوض

بالتعليم وإيجاد المعلم الوطنى الصالح وإصلاح البرامج التى تتصل بجميع مراحل التعليم . فقد كان يعتمد أساساً على ما يقرره المستعمرون من أجل إيجاد طبقة من الموظفين تقوم بأعباء الأعمال الكتابية في إدارات الحكومة ومصالحها وفي معظم تلك البلدان الأفريقية كان لايتجاوز التعليم المرحلة الإعدادية وأحياناً المرحلة الثانوية في المدن الكبرى فقط .

وكانت مادة التاريخ التى تدرس في تلك المدارس يكتبها المستعمر كما شاء دون أن يلمس أو يوضح تاريخ المرحلة الطويلة التى تقدمت على القرن التاسع عشر أو الثامن عشر ، حينما بدأ الاستعمار يحكم تلك الشعوب ويحرمها من معرفة تاريخها المجيد ، ولاسيما في العصور الوسطى .

ومع ذلك ، فلم يتجاهل بعض المؤرخين الأوروبيين في القرن التاسع عشر فضل العلماء العرب ، من مؤرخين وجغرافيين ورحالة ، فقد أشاروا في بحوثهم إلى ماكتبه هؤلاء عن الدول الإسلامية التى نهضت في غرب أفريقيا ونذكر من هؤلاء : بوفيل وباسيه ، وبالمر ودى لافوس ، وهودا ، ودىسلين ومونى ، وغيرهم .

المراجع العربية الأولى

يمكن تقسيم المراجع الرئيسية في دراسة تاريخ غرب أفريقيا إلى ما يأتي :

١ — ما دونه المؤرخون والجغرافيون والرحالة العرب والمغاربة .

٢ — ماكتبه المؤرخون من علماء غرب أفريقيا (الأفريقيون) .

٣ — ما كتبه المؤرخون والعلماء الأوربيون وما حققوه من المخطوطات العربية .

وسوف لانتحدث اليوم إلا عن مراجع الجماعتين ١ ، ٢ . وأول ما نلاحظه أن الجماعة الأولى أسهمت فيما كتبته بين القرنين التاسع والخامس عشر ، وتلتها الجماعة الثانية ، فتناول علماؤها كتابة تاريخ بلادهم بين القرنين الخامس عشر وأوائل التاسع عشر ثم تطور منهجهم في القرن العشرين.

وترجع أهمية مراجع الجماعة العربية إلى أنها كتبت في عصور ، كانت أوروبا تجهل أحوال غربي أفريقيا أو وسطها قبل عصر الاستكشافات . ومن هنا نعتبرها مراجع فريدة وأصيلة في ذلك الحقل . فلم يتناول أحد سوى العرب تاريخ غانة القديمة ، أو مملكة مالى أو برنو أو كانم أو سنغاى .. تلك الدول الإسلامية العريقة حتى القرن السابع عشر . ولذلك فإننا اليوم ندين كثيراً لذلك الرعيل الأول من المؤرخين العرب وجغرافييهم ورحّالتهم ، كاليعقوبي وابن حوقل والبكرى والأدريسى وابن بطوطة ، وابن خلدون ، والقلقشندى وابن فضل الله العمرى ، وغيرهم . فقد كان الفزارى الفلكى أول من ذكر مملكة غانه وعدة بلدان أفريقية قبل عام ٨٠٠ ، ثم الخوارزمى الجغرافي (قبيل عام ٨٣٣) الذى حدد غانه في خريطته التى نقاها عن بطليموس . وفي القرن التاسع ، تحدث ابن عبد الحكم (٨٠٣ – ٨٧١) « صاحب فتوح مصر والمغرب » عن السودان الغربي (غرب أفريقيا) وعن الحملات العربية التى وصلت إلى جنوب الصحراء ، فقال : « وغزا عبيد الله حبيب بن أبي عبيدة الفهرى السوس وأرض السودان فظفر بهم ظفراً لم ير مثله وأصاب ما شاء من ذهب . وكان فيما أصاب جارية أو جاريتان من جنس تسميه البربر أجان ، ثم غزا أيضاً البحر ثم انصرف .

ولدينا اليعقوبي الجغرافي والمؤرخ (ت٨٩٧) ، وصاحب البلدان عن تاريخ ممالك السودان : « الزغاوة وكاكو، ومارندا ، وغانا وتذارير وغام وساما وكوار (Kuwar) وغست . وقدأشار إلى مناجم الذهب في غانه وقوافل العبيد .

وذكرابن الفقيه (ت بعد ٢٩٠ هـ – ٩٠٣ م) في كتابه « البلدان » ، مملكة غانه[1] .

---

(١) Description du Maghrib et de l'Europe au IIIe = IXe siecle p. 50.

وابن حوقل الذى ألف كتابه « المسالك والممالك » حوالى عام ٩٨٨[١] في أعقاب رحلته التى قام بها عام ٩٧٧ وتحدث عن بلدة أودغشت على حافة الصحراء ، فقال أن لزعماء البلدة صلات بملك غانه أغنى ممالك العالم لما في أرض بلاده من التبر .

والمسعودى (ت٩٥٧) الذى طوف في أنحاء العالم العربي والهند والأندلس، ويرجح أنه زار مدغشقر ثم توفي في مصر . ونجد في كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » إشارات مفيدة عن عدة ممالك في غرب أفريقيا وشرقيها[٢] .

وأشار الأصطخرى (ت في النصف الأ ل من القرن الرابع الهجرى) في كتابه المسالك والممالك إلى بلاد السودان عامة (ص ٣٤) . . . طبعة القاهرة .

ولدينا « أبو عبيد الله البكرى» (١٠٤٠ — ١٠٩٤) الجغرافي الأندلسى الذى كتب حوالى عام ١٠٧٧ وصفاً لأفريقيا دون أن تطأها قدمه يعتبر من أهم ما كتب في تلك الفترة . وقدم لنا معلومات دقيقة عن مملكة غانه القديمة وهى في أزهى أيامها ، وأشار إلى محاولات المرابطين لاختراق الصحراء من أجل الوصول إليها [٣] .

---

(١) ترجمة ماكجوين دى سلين — المجلة الأسيوية عام ١٨٤٢
Journal Asiat. 1842.

(٢) ترجمة « ك.باربييه » مروج الذهب ومعادن الجوهر بمشاركة مينار وبافيه وكورتى عام ١٨٦١ — ١٨٧٧ وتحتوى هذه الطبعة على النص العربى والترجمة الفرنسية .

(٣) البكرى : المسالك والممالك :
Description de l'Afrique septentrionale (1067), trad. De Slane.
الجزائر عام ١٩١٣ ، ص ٣٢٣ — ٣٤٣
انظر أيضا :
Kumm, H.K.M. The Arab Geographers and Afnca. Scottish Geog Mag. vol. LIX, 1929, pp. 284 - 289.

والأدريسى (١١٠٠ – ح١١٦٤)[1] صاحب كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » الذى عنى بتحقيقه ونشره هنرى بيريس ، عنى كثيراً بأحوال غرب أفريقيا ولا سيما غانة ، فقد وصف في أماكن كثيرة من كتابه ما كان عليه ملوك هذه الدولة في الثراء ، كما وصف أحوال مالى وتكرور أكبر مدنها وأكثرها تجارة ، فكان يسافر إليها أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز ويخرجون منها بالتبر والخدم .

وياقوت الحموى (١١٧٩ – ١٢٢٨) الذى جمع خلال رحلاته شتى المعلومات الجيدة عن غانة وتبرها وتكرور وذكرها في معجمه المعروف ، وقد ترجم إلى عدة لغات أوروبية ، منها ترجمة ووستنفلد التى صدرت في ليبزج (١٨٦٦ – ١٨٧٠) .

وذكر زكريا بن محمد القزوينى (ت٦٨٢ هـ - ١٢٨٣ م) في آثار البلاد (ط بيروت) ، السودان وتكرور (ص ٢٦ - ٢٧) ، وغانة (ص٥٧) بلاد التبر .

وذكر على بن سعيد المغربي (ت ٦٨٥ هـ - ١٢٨٦ م) في كتابه « بسط الأرض في الطول والعرض » (نشره خوان فرنيط خمينس ، تيطوان ١٩٥٨ ، في ص ٢٤ – ٢٨ ، التكرور ومدنها ، كما ذكر أبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ ١٣٣١ م) في « تقويم البلدان ، ط باريس ، ص ٢ ، ٣ ، ١٥ ، بلاد التكرور وقد نقل عن ابن سعيد ماكتبه عن مدينة أودغشت (ص١٣٧)

وابن أبي زرع (ت١٣٢٦) ، صاحب « الأنيس المطرب بروضة القرطاس في أخبار ملوك المغرب « وتاريخ مدينة فاس » . وقد حققه المستشرق

---

(١) الادريسى : Description de l'Afrique et de l'Espagne, trad, Dozy et de Goeje, Leiden 1866.

انظر أيضا : Monteil: L'ouvre d'Idrisi, Bull. I.F.A.N., 1939, p. 838 - 857.

وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية ، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق تحقيق هنرى بيريس . الجزائر ١٩٥٧ ، ص ٤ – ٨ ، ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٩

تورنبرج ١٨٣٩ . وترجمه إلى الفرنسية A. Beumier بعنوان « روضة القرطاس» في عام ١٨٦٠ .

وفي القرن الرابع عشر يقابلنا أحمد بن فضل الله العمرى (١٣٠١ - ١٣٩٨) صاحب « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار [١] ألفه فيما بين ١٣٤٢ — ١٣٤٦ . وهو لايزال مخطوطاً بدار الكتب المصرية (رقم ٢٥٦٨) ويقع في ٢٠ جزءاً ، وقد حقق المرحوم أحمد زكى باشا ونشر الجزء الأول من هذا المخطوط عام ١٩٢٤ . وكثيراً ما يقتبس منه القلقشندى في كتابه «صبح الأعشى» ويأخذ منه فقرات كاملة .

وتقى الدين أحمد المقريزى (١٣٦٤ — ١٤٤٢) صاحب الخطط المعروفة وله كتاب بعنوان : الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك » نشره لأول مرة الأستاذ جمال الدين الشيال في عام ١٩٥٥ ضمن سلسلة مكتبة المقريزى الصغيرة . وقد ذكر فيه منسا موسى أول من حج من ملوك مالى (التكرور) . (ص ١١٠ — ١١٣)[٢] .

ومن أهم المراجع العربية في القرن الرابع عشر أبو عبدالله محمد بن بطوطة (١٣٠٤ — ١٣٨٨) ، صاحب كتاب « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، وهذا الكتاب عامر بوصف وأحوال دول غرب أفريقيا ، ولاسيما مالى قاعدة الدولة الإسلامية التى زارها ابن بطوطة وأمضى فيها ثمانية أشهر . وقد شاهد إبن بطوطة نهر النيجر وظنه متصلاً بنهر النيل ، كما زار تنبكتو حينما كانت مركزاً للحضارة الإسلامية ، وأخذ يجول في بلاد السودان الغربي وواحاته حتى وصل تاكدا وهى حينذاك أكبر مدن الطوارق . كان ذلك في أثناء رحلة ابن بطوطة الثالثة التى خصها بالسودان الغربي حوالى عام ١٣٥٢ .

(١) ترجمه الى الفرنسية جود فرى ديومبين ، باريس ١٩٢٧ . انظر ما كتبه عن ابن فضل الله فى كتابه La Syrie a l'époque de Mamelouks. فى القسم المعنون Les Auteurs Arabes

(٢) Description des races des Noirs et Pèlerinages des Sultans du Tekrur (vers 1420).

٨) وزوّدنا المؤرخ الفيلسوف عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ — ١٤٠٦) في كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » (تاريخ البربر والأسرات الإسلامية ، ٣ أجزاء) ، على حقائق هامة عن السودان الغربي وعلى معلومات دقيقة وللمرة الأولى عن قبائل الطوارق الذى كانوا في منطقة أير Air (أسبن) في الصحراء الكبرى وأهم مدنها أجادس التى بنيت في القرن ١٥ ، وجميع سكانها مسلمون[١] .

٩) وأحمد بن عبد الله القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨) صاحب صبح الأعشى ، أمدنا بصورة جلية لمجتمع دولة مالى الإسلامية ، وأورد ثبتاً لحكامها قبل وبعد اعتناقهم الإسلام ، كما بين لنا الصلات الوطيدة التى كانت تربط سلطنة بُرنو بمصر على أيام السلطان الظاهر سيف الدين بن برقوق ، وعثمان برى بن إدريس وسلطان بُرنو حوالى سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩١—٩٢[٢].

١٠) **الحسن بن الوزان (ليون الافريقى) :**

ومن أهم المراجع ، ماكتبه الحسن بن محمد الوزان الزياتي (١٤٩٢ — ١٥٥٢ (المعروف باسمه ليون الأفريقى[٣]) . ولد في غرناطة عام ١٤٩٢ وتلقى العلوم في فاس ثم رافق عمه في بعثة سياسية أوفدها سلطان مراكش إلى بلاط محمد أكسيا إمبراطور سنغاى في جاغ وقام بعد ذلك برحلة طويلة في غرب أفريقيا . ثم وقع أسيراً في قبضة بعض القرصان المسيحيين في البحر ،

---

(١) Ibn Khaldoun. Histoire des Berbères (1373), trad. De Slane, Alger, (1852-1856), 4 vols.

وصدرت طبعة جديدة فى باريس عام ١٩٢٥ (٥ أجزاء) .

(٢) يراجع الجزء الخامس الذى تناول فيه الكلام عن غانة ومالى . ويراجع الجزء الثامن ص ١١٦ — ١١٨ وفيه ما ورد عن كانم — برنو .

(٣) كتب الحسن كتابه بالعربية ، ثم ترجم فى حياته الى الايطالية (١٥٢٦) .

Leon L'Afrique : Description de l'Afrique tierac partie du Monde ; traduit de l'italien par E. Epaulard et annoté par Théodore Monod, Henri Lhote et Raymoud Mauny.

(٤) صدرت الطبعة الانجليزية بمعرفة جون بورتى وبوساطة جمعية هاكليوت فى لندن عام ١٨٩٦

فأخذوه إلى روما ، وتعهده البابا ليو العاشر فشجعه على الدرس والمطالعة . عاش سنين طويلة في روما وزار في خلالها عدة مدن إيطالية ليعلم اللغة العربية فيها . ولما مات البابا عاد الحسن بن محمد إلى تونس واتخذها مقاماً له حتى توفي عام ١٥٥٢ . ولقد أفاد الحسن من رحلته الأولى فامدته بكثير من المعلومات التى دونها في كتاب رحلته . وكان رحالتنا قد مر بجنى ومالى وتنبكتو وجوجو وجوبر ، وكانو ، وكتسينا وزنفرا ونقارة ، وبرنو وغيرها وقد وصف تلك الأماكن وصفاً جيداً وتكلم عن أحوال مجتمعاتها بإفاضة . والجدير بالذكر أن الحسن خص مصر ، ولا سيما القاهرة بفصل طويل في كتابه وكانت البلاد حينذاك قد خضعت لحكم العثمانيين . وقد ذكر الرحالة الحسن في كتابه ، المؤرخ والشاعر أبو اسحق إبراهيم المعروف بابن الرقيق القيرواني (ت حوالى ١٠٢٦ م)[١] صاحب كتاب « تاريخ أفريقيا والمغرب» الذى أفاد منه كثيراً المؤرخ ابن خلدون[٢] .

محمد بن عمر التونسى (ت ١٨٥٧) :

صاحب كتاب « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » أهم مصدر للتعريف بأحوال إقليم دارفور الذى قامت فيه سلطنة إسلامية كانت تكون حلقة في سلسلة الممالك الإسلامية السودانية الواقعة بين الصحراء الكبرى ومصر في الشمال ، وبين الغابات الإستوائية في الجنوب ، وتمتد من البحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، وتشمل ممالك سناروكردفان ودارفور ووادای وباجرمى وبرنو أوكانم وممالك الهوسا ثم مالى[٣] . أما كتابه

(١) قدم ابن الرقيق مصر سنة ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م فى زمن الحاكم بأمر الله وله قصيدة طريفة وصف فيها أحوال القاهرة وترحيب أهلها به .

(٢) Mauny, R. « L'Ouest Africain chez les géographes arabes du Moyen age ». Compts rendus de la Conférence Internationale deds Africainistes de l'Ouest, Santa Isabel. 1051, vol. II, pp. 503 - 508.

(٣) طبع كتاب « تشحيذ الأذهان » طبع حجر للمرة الأولى ، باشراف الدكتور برون Perron فى باريس سنة ١٨٥٠ وترجمه بدوره الى الفرنسية بعنوان Voyage au Darfur وقام بتحقيق هذا الكتاب ونشره الأستاذان الدكتور خليل محمود عساكر والدكتور مصطفى محمد مسعد وراجعه الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة عام ١٩٦٥ فى مجموعة كتب « تراثنا » .
انظر : عبد العزيز عبد الحق . استدراكات عن الرحلة فى هذا العدد من المجلة .

الثاني ، فهو رحلة واداى (جمهورية أفريقيا الإستوائية اليوم) وقام المستشرق بيرون بترجمتها إلى الفرنسية ونشرها في باريس عام ١٨٥١ ولم ينشر النص العربي لهذه الرحلة حتى اليوم ، ولعله في حوزة أسرة برون[١] الذى كان مديراً لمدرسة الطب بالقصر العينى عام ١٨٣٩

وللتونسى مؤلفات أخرى ساعده على كتابتها عمله كمصحح أوكرئيس لمراجعى الكتب المترجمة في مدرسة الطب بالقاهرة ومنها :

« الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية » صنفه بتكليف من الطبيب كلوت بك وهو ما زال مخطوطاً بالمكتبة الوطنية بباريس رقم ٤٦٤١ ويوجد منه بدار الكتب المصرية أربع نسخ مصورة من نسخة باريس . وقد طبع منه الجزء الأول فقط .

وجرى محمد بن عمر التونسى في أواخر أيامه ، على إلقاء دروس في الحديث بمسجد السيدة زينب في يوم الجمعة من كل أسبوع ، وتوفي بالقاهرة سنة ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧ بعد أن عمر سبعين سنة .

والجدير بالذكر أن عمر التونسى تلقى علومه الدينية في الأزهر وتزوج من فتاة مصرية أنجب منها إبنه محمد عام ١٧٨٩ . بدأ رحلته إلى دارفور عام ١٨٠٣ وعاش فيها نحو سبع سنوات ونصف السنة ، ألم خلالها بأحوال البلاد إلماماً تاماً . ثم سافر إلى واداى في غربها حيث قضى فيها ثمانية عشر شهراً ثم استأذن السلطان صابون في السفر إلى تونس ، فأذن له وبلغها حوالى عام ١٨١٣ ثم عاد إلى القاهرة ليلتحق بخدمة الجيش المصرى في وظيفة واعظ بإحدى فرق المشاة التى حاربت في المورة سنة ١٨٢٧ . ولما عاد منها عام ١٨٣٢ اشتغل بتنقيح كتب الطب المترجمة إلى العربية ، وفي مدرسة الطب التقى بالدكتور بيرون الفرنسى الذى أخذ يتعلم العربية على يد محمد بن عمر التونسى . ولما علم الطبيب برحلة التونسى في بلاد السودان ودرفور وواداى شجعه على كتابة مذكراته عنها ففعل . ويعتبر كتاب « تشحيذ الأذهان » أهم

(١) نشر برون الترجمة الفرنسية لهذه الرحلة وجعل عنوانها :
Voyage au Waday.

مراجع واداى ، ولاسيما بعد ما أصابها من الخراب في أعقاب إقامة إمبراطورية رابح السوداني ، وبداية الإستعمار الفرنسى في تلك البلاد .

* * *

وقبل أن نختم هذا الثبت الضخم بمنجزات علماء العرب في حقل الأفريقيات نذكر العمل العلمى الجديد بالثناء : أطلس أفريقيا ومصر الجغرافي **Monumenta Cartographica Africae et Aegypti** الذى نشره على نفقته الأمير يوسف كمال في خمسة مجلدات ضخمة بين ١٩٢٦و ١٩٥١، وقد جمع فيه ما كتبه العرب وغيرهم عن البلدان الأفريقية ، ولا سيما مصر في اللغتين العربية والفرنسية ، بالإضافة إلى ما ورد في مؤلفاتهم من الخرائط القديمة النادرة .

نعوم شقير (ت ١٩٢٢) :

مؤلف تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، ويعتبر هذا الكتاب الجليل إلى اليوم من أهم المراجع العربية ، ليس فقط عن سودان وادى النيل حتى عام ١٩٠٠ ، بل إنه يحتوى على كثير من المعلومات التاريخية التى تتعلق بدارفور وسلطنتها منذ أول نشأتها إلى الفتح المصرى الأول (٨٤٨—١٨٧٥) . ثم استعادة فتحها بعد ذلك[١] ولذلك يعتبر تتمة لما كتبه التونسى من قبل .

٢ ـ مراجع المؤرخين الافريقيين

من المتفق عليه بين العلماء أن الكتابة بالحروف العربية والتأليف باللغة العربية وصلتا إلى غرب أفريقيا في أثناء قيام أسرة المرابطين ونهوض هذه الأسرة بفتح مملكة غانا القديمة ووصول أبي بكر بن عمر المرابطى إلى منطقة النيجر بين عامى ٤٧١ ـ ٤٧٥ ه (١٠٧٨ ـ ١٠٨٢) ، ويتفق هذا التاريخ مع تاريخ انتشار الإسلام في المنطقة المذكورة[٢] . وقد وجه علماء غرب

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان ، ص ١١١ ـ ١٤٧ ، مطبعة المعارف ١٩٠٣

(٢) يتفق هذا مع ما جاء فى كتاب « الحلل الموشية » ص ١٣ ، تونس عام ١٩١١ عن تحركات أبى بكر بن عمر الذى غادر المغرب قاصدا الصحراء عام ٤٦٣ هـ/١٠٢٠ م ثم عاد لزيارة المغرب ثانية فى ٤٦٥ هـ/١٠٧٢م ورجع ثانية الى جنوب الصحراء وبقى فيها حتى توفى ٤٨٠ هـ/١٠٨٧م .

أفريقيا جل عنايتهم إلى دراسة الفقه والتأليف فيه ، ولا سيما فقه الإمام مالك ، كما أنهم التزموا بمنهج تفكير علماء المرابطين فتأثروا به كثيراً . ولم يصل إلينا شيء من مؤلفات العلماء الأفريقيين التى تنسب إلى هذا العصر المبكر بالنسبة لهم ، أو حتى بعض عناوين قليلة لرسائل ربما فقدت . ومما يثير الدهشة أيضاً أنه لم يصل إلينا سوى شذرات من تراث مالى الأدبي بالرغم من ازدهار تلك المملكة . وهذه الشذرات ذكرها المستشرق بالمر في كتابه « ذكريات سودانية»[1] .

وليس الآن مجال الحديث عن العلامة الفقيه أحمد با التنبكتى (١٥٥٣— ١٦٢٧) صاحب المؤلفات التى تربو على الأربعين ، وفي طليعتها « نيل الإبتهاج بتطريز الديباج »[2] ، ويمدنا هذا العلامة الجليل في مؤلفه هذا ، بصورة لامعة للتراث الفكرى في السودان الغربي في القرن الخامس عشر وما بعده بقليل .

القرن الخامس عشر

وأولى المراجع الهامة في أخريات القرن الخامس عشر يمدنا بها أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلى الفقيه التلمساني الأصل . ويذكر عنه أنه في أثناء إقامته في توات أوحى بحركة شعبية ضد اليهود لأنهم شيدوا معبداً لهم دون إذن . وقيل أنه أوصى بدفع سبعة مثاقيل ذهب عن كل رأس يهودى . انتقل من توات فزار أير وتاكدا وكتسينا وكانو . وفي البلدتين الأخيرتين ألقى دروساً في الدين والشريعة الإسلامية ثم قصد جاغ عاصمة دولة سنغاى الإسلامية وكان على عرشها السلطان الحاج محمد أسكيا . فلما تقابلا سأله السلطان في بعض مسائل الشريعة . ولما وصل إلى المغيلى نبأ مقتل إبنه على يد اليهود ، أسرع عائداً إلى توات ، حيث لاقته المنية بعد ذلك بقليل (عام٩٠٩هـ

---

(١) Palmer, H. R. : Sudanese Memoirs. Lagos 1928.

وقد أطلق بالمر على مجموعة قليلة من المخطوطات العربية « أخبار كانو » ونشرها فى كتابه ص ١٠٠ — ١٠١ و ص ١٠٤ — ١٠٥ بعنـــوان : The Kano Chronicle ويرجع تاريخها حوالى ١٣٤٩ — ١٣٨٥

(٢) طبع على هامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون . القاهرة ، ١٣٥١ هـ .

١٥٠٤) . وذكر « مارتي »[١] في رسالته عن الإسلام في غرب السودان أن المغيلى هو الذى أدخل طريقة القادرية الصوفية في تلك المنطقة ويحتمل أن يكون مارتي قد عثر على تلك الحقيقة في مخطوطة « فتح الشكور »[٢] . فإذا ثبت صحة هذه الحقيقة الهامة ، فقد تساعدنا على تفسير الأسباب التى من أجلها ظلت كتابات المغيلى وذكراه حية في غرب أفريقيا ، بينما لا يذكر شيء عن أعمال أسلافه في القرون السابقة . ولا تزال آثار المغيلى باقية وقد اقتبس منها كثير من العلماء النيجيريين ولا سيما فيما كتبه المصلح الإمام الشيخ عثمان دان فوديو الذى أفاد كثيراً من آراء المغيلى في الحركة الجليلة التى نهض بها في أخريات القرن ١٨

ونذكر فيما يلى أهم آثار المغيلى الباقية :

١ — التعريف فيما يجب على الملوك[٣] .

٢ — مختصر مما يجوز للحكام في رد الناس عن الحرام . (يرجع كتابتها في عام ٧٩٧ هـ — ١٤٩١) .

٣ — تأليف إجابة فيه عن مسائل . (هكذا ورد في نيل الإبتهاج ، ص ٣٣٠) .

٤ — تأليف فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار[٤] .

٥ — أحكام الذمة .

٦ — ورقات في عمل اليوم والليلة .

---

(١) Marty, P. : L'Islam et les tribus du Soudan, 20-1., 35, 41.

(٢) Smith, H. F. : « Source material for the history of the Western Sudan » J. of the Historical Society of Nigeria, 1, 3, 1958, 244.

(٣) قام بتحقيق النص العربى محمد زيان بن محمد المأمون وزير كتسينا ، ط بيروت ١٩٣١ وترجمها ت.هـ. بلدوين الى الانجليزية بعنوان : The Obligations of Princes. بيروت ١٩٣٢ ، ذكرهابروكلمان ، جـ ٢ ص ٣٦٣ ، وذكرها أحمد بابا فى نيل الابتهاج ، ص ٣٠٣

(٤) Catalogue to MSS arabes de Rabat, 1, 260 item 1386.

(٥) بروكلمان : الملحق ، جـ ٢ ، ص ٣٦٣ . انظر التعريف عن المغيلى فى « النيل » ص ٣٣١

٧ — البدر المنير في علم التفسير .

٨ — مصباح الأرواح في أصول الفلاح (قطعتان أرسلهما إلى السنوسى وابن غازى) .

٩ — المغنى النبيل في شرح مختصر الخليل .

١٠ — اكليل المغنى .

١١ — شرح « بيوع الآجال » لابن الحاجب الفقيه المالكى القاهرى .

١٢ — مختصر « تلخيص المفتاح » للقزوينى مع شرحه .

١٣ — تأليف في المنهيات (طبع في القاهرة) .

١٤ — مفتاح النظر في علم الحديث .

١٥ — شرح الجمل (رسالة في المنطق للخونجى) .

١٦ — المقدمة في المنطق .

١٧ — منح الوهاب (قصيدة)(١) .

١٨ — شروح وتعليقات على ما ورد في ١٥ و ١٦ و ١٧

١٩ — تنبيه الغافلين عن بكر الملبسين بدعنو مقامات العارفين .

٢٠ — شرح خطبة المختصر .

٢١ — المقدمة في العربية .

٢٢ — الفتح المبين .

٢٣ — مجموعة قصائد منها ميمية على وزن البردة .

القرن السادس عشر

خلفاء المغيلى :

ويمدنا أحمد بابا التنبكتى في النيل بأسماء خلفاء المغيلى من الفقهاء ، ثم نقلها المؤرخ عبد الرحمن السعدى في كتابه » تاريخ السودان « . ومن هؤلاء العلماء :

---

(١) يرجح أنها التى وردت فى نيل الابتهاج بعنوان منظومة المغيلى فى المنطق ، ص ٩٤ ، ورجز المغيلى فى المنطق ، نيل ص ٣٤٢

محمد بن أحمد بن أبي محمد التازختي (عايدا — أحمد) . اشتهر في بلاد الهوسا وتتلمذ في تاكدا . ثم رافق محمود بن عمر بن محمد عقيت في أثناء الحج (ح ٩١٥ / ١٥٠٩) واتصل في أثناء إقامته في مصر ببعض علمائها ، مثل شيخ الإسلام زكريا ، وبرهان الدين القلقشندي ، وحضر دروس الأخين اللقانين ، وأحمد بن عبد الحق السنباطي . وفي أثناء وجوده بمكة نال الإجازة من أبي البركات النويري ومن ابن أخيه عبد القادر ، وعلى بن ناصر الحجازي ، وأبي طيب البسطي . ولما عاد التازختي إلى كتسينا استقر بها ونصبه السلطان قاضياً . فأذاع ما حصل عليه من علم ومعرفة[1] . وتوفي في حوالى ٩٣٦ ـ ه ١٥٢٩ وهو في الستين من عمره بعد ما كتب عدة شروح لمختصر الخليل وتصانيف أخرى . ولم يصل إلينا شيء من أعماله .

مخلوف بن على بن صالح البلبالى :

هو فقيه كانو وكتسينا وتلميذ عبد الله بن عمر بن محمد عقيت عم أحمد بابا التنبكتى في ولاته . اشتغل بالتجارة قبل العلم ورحل إلى المغرب حيث حضر دروس بن غازى وغيره من العلماء وقد اشتهر بقوة ذاكرته وعرف عنه أنه حفظ صحيح البخارى عن ظهر قاب . ولما عاد إلى كانو وكتسينا اتصل بالفقيه العاقب بن عبد الله الأنصمينى الذى سيرد اسمه ، ثم رجع إلى تنبكتو وقصد مراكش مرة أخرى ولما عاد إلى وطنه توفاه الله وذلك بعد عام ٩٤٠ ه ـ ١٥٣٣

العاقب بن عبد الله الأنصمنى المسوفى :

معاصر مخلوف وهو من أهل أجادس (في النيجر اليوم) وهذه أسماء بعض تصانيفه :

التعليق على قول الخليل وخصيصة نية الحالف .

وجوب الجمعة بقرية أنصمن .

---

(١) عبد الرحمن السعدى : ص ٣٧

الجواب المحدود عن أسئلة القاضي محمد بن محمود .

أجوبة الفقير عن أسئلة الضمير .

وكان الأنصمني واحداً من تلاميذ المغيلي وحضر بعض دروس السيوطي في أثناء إقامته بمصر وهو في طريقه إلى الحج . وقد اختلف كثيراً في بعض المسائل مع الفقيه مخلوف البلبالي . كان على قيد الحياة حتى عام ٩٥٠هـ –١٥٤٣

الامام احمد بن فرتوه البرناوى :

من جيل علماء تنبكتو الكبار الذين ذكرهم أحمد بابا وقد وصلت إلينا أهم مؤلفاته[١] في رسالتين خطيرتي الشأن : الأولى تاريخ الإثنى عشرة سنة الأولى في حكم ادريس علومه سلطان برنو (١٥٧١ – ١٥٨٣) ، والرسالة الثانية « حروب كانم ضد قبائل البلالة . وقام بنشرهما المؤرخ بالمر ، وتعتبر هاتان الرسالتان من أهم المراجع العربية في تاريخ برنو الإسلامى . ومن المرجح أن ابن فرتوه كتب رسالتين حوالى عام ١٥٧٥ ومن محتوياتها نستطيع الوقوف على أشياء كثيرة من حياته .

شمس الدين النجيب بن محمد التكداوى الأنصمنى :

معاصر العلامة أحمد بابا وهو مؤلف شرحين لمختصر الحليل ، الشرح الأول في أربعة أجزاء، والثاني في جزئين ، ولهما ذيل عن « معجزات البكرى» وكان النجيب حياً في عام ١٠٠٥ هـ – ١٥٩٧ حينما انتهى أحمد بابا من تأليف « النيل » .

ونذكر هنا الشيخ سفرمة عمر بن عثمان الذى ألف في تاريخ برنو في أوائل القرن ١٦ ، ويعرف مؤلفه بعنوانه « ديوان السلاطين » . وقد عثر الرحالة بارت الألماني حوالى عام ١٨٥٣ على إحدى نسخ الكتاب[٢] وترجمها بالمر إلى الإنجليزية .

---

(١) پالمر : تاريخ ماى ادريس وغـــزواته . كانوا ١٩٣٢ . وهناك ترجمة انجليزية لپالمر Mai Idris of Bornu, Lagos 1926 انظر أيضا لپالمر : Sudanese Memoirs, Lagos, 1928, 1, 15 - 72.

(٢) Barth : Travels in North and Central Africa. vol. II, p. 633.
وقد ترجمه پالمر وضمه الى كتابه « ماى ادريس ملك برنو » .

القرن السابع عشر

وينبغي أن نشير هنا إلى الصلة الوثيقة التى قامت بين تنبكتو ألمع مراكز الثقافة الإسلامية في غرب أفريقيا حتى أوائل القرن السابع عشر ، وبين جامعات المغرب الإسلامى . فهذه المدينة الجليلة مدينة في ثقافتها وفي تراثها إلى المغرب[١] . وكانت على اتصال وثيق غير منقطع بمراكش وتونس والجزائر وغدامس وطرابلس ، والقاهرة أيضاً . وكان علماء المغرب دائبي الرحلة إلى تنبكتو . كما كان علماء تنبكتو كثيراً ما يقيمون بفاس أو مراكش يعلمون أو يتعلمون[٢] . ومن المراكز الهامة أيضاً : جنى ، وجاغ ، وكانو ، ، وكتسينا . وقد أشار العلامة بارت إلى العلاقة التى نشأت بين جلال الدين السيوطى وبين أمير كتسينا ، وهناك ما يدل على أن السيوطى رحل إلى شمال نيجيريا وأقام في كتسينا زمناً يعلم الناس ، وعاد إلى مصر سنة ٨٧٦ ﻫ ١٤٧١ وقد تحدث المؤرخ السعدى عن علماء مصر الذين زاروا تنبكتو وقضوا مدة للتدريس بمعاهدها ومساجدها .

ونمر بعد ذلك بأعمال علماء القرن السابع عشر .

محمد الكتسيناوى (ابن الصبّاغ) ، أو كما يعرف بين أهل الهوسا « دان مارينا » جاء عنه في كتاب « إنفاق الميسور » لمحمد بلو أنه كان أستاذاً لدان ما سنيه . الذى سنتكلم عنه بعد قليل . وهناك من يقول أن دان مارينا أقام في كتسينا وتوفي عام ١٦٥٥[٣] . وأهم مؤلفاته :

الشرح على عشر بينات الفرازى . ولا يعلم مقره اليوم .

مزجرات الفتيان وهى قصيدة موجهة إلى الفتيان من أجل تشجيعهم وبث الروح الدينية فيهم .

---

(١) عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى غرب أفريقيا ، ص ١٤٨ — ١٥٤

(٢) السعدى : ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٦١

(٣) Kensdale : A Catalogue of the Arabic manuscripts preserved in the University Library, Ibadan, Nigeria, 1955.

وله قصيدة في مدح أمير المؤمنين على ، سلطان برنو (ماى على) ابن الحاج عمر البرناوى عقب انتصاره على جوكون وقد ترجمها بالمر ونشرها[1] . وتعتبر وثيقة هامة عن هذه الحرب .

أبو عبد الله محمد بن ماسنية برنوج البرناوى الكتسبناوى :

صاحب النفحة العنبرية في حل ألفاظ العشرينية للفزازى ويقع الكتاب في ٢١٩ ورقة تحتوى على المتن وقد أكمل أبو عبد الله عمله هذا في ربيع الأول عام ١٠٤٩ / ١٦٤٠ . أما مصنفاته الأخرى فهى :

– اللطيف المنظوم وليس فيه حرف منقوط فوقانية ولا تحتانية .

– البزوغ الشمسية ؟ على مقدمة العشماوية . وهو شرح لكتاب عبد البارى الرفاعى العشماوى الموسوم « المقدمة العشماوية في العبادات »[2] .

– تزيين العصا وضرب هامات من عصى .

– عين الخلاص في تلاوات سورة الإخلاص .

– شفا ، رُبي في تحرير فقهاء البوربا .

– نزهة يسيرة على معرفة ما يقبل الصرف وعدمه .

– فتح المرام بمثل قصيدة ابن هشام .

ولا تزال سلالة أسرة ابن ماسنيه تقيم في كتسينا ولأفرادها مكانة محترمة .



عبد الرحمن بن عبد الله السعدى (١٥٩٦ – ١٦٥٥) :

صاحب كتاب « تاريخ السودان »[3] وألمع مؤرخى غرب أفريقيا حتى القرن التاسع عشر ، وهو مؤرخ إمبراطورية سنغاى دون منازع . تناول في كتابه تاريخ غانه ومالى وحضارتها وذكر قبائلها بإيجاز ، ثم تحدث

---

(١) Palmer, H. R. : History of Katsina. Journal of the African Society, XXVI., April 1927, pp. 226 - 227.

(٢) بروكلمان : تاريخ آداب اللغة العربية ، الملحق ، جـ ٢ ص ٤٣٥

(٣) ترجم المستشرق هودا (Houdas) تاريخ السودان الى الفرنسية ونشره أيضا فى لغته العربية عام ١٩٠٠

طويلاً عن أحوال سنغاى في أثناء حكم سلاطينها الكبار من أسرة أسكيا .
وينتمى السعدى إلى إحدى أسرات تنبكتو الرفيعة . وتلقى العلم في معاهد مدينته ثم اشتغل محاسباً وفي عام ١٦٢٧ عين إماماً لمسجد سنكوريه في مدينة جنى . وفي عام ١٦٣٧ عاد إلى تنبكتو ليشغل وظيفة إمام المدينة ، وعين في منصب « الكاتب » (أمين عام الدولة) ، ثم أخذ في تأليف كتابه بالعربية الذى انتهى فيه بأحداث عام ١٦٥٥ . وقد أشار السعدى كثيراً إلى أعمال أحمد بابا وغيره من العلماء في كتابه[١] . فقد أورد تراجم سبعة عشر عالماً من تنبكتو مبيناً الميادين العلمية التى تخصص فيها كل منهم ، وكانوا من النحاة والمناطقة والفقهاء والأدباء وعلماء اللغة والتفسير والحديث ، والأطباء . وقد عدد بعض مؤلفاتهم التى فقدت بسبب ما أصاب تنبكتو منذ الفتح المغربي حتى الإحتلال الفرنسي . ومن هؤلاء العلماء المؤرخ محمد بن أبي بكر الوانكورى وكان أستاذاً للمؤرخ السعدى ، ومنهم الشاعر محمد بن محمود (ت ١٥٦٥) وكان فيلسوفاً . ويتحدث السعدى عن أستاذه الوانلورى ، فيقول : « لقد تعلمت منه الكثير ، وأجاز لى كتباً قرأتها عليه ، بخط يده ، وأهديت إليه بعض المصنفات التى ألفتها بمساعدته . ويسرد السعدى في تاريخه براهين تؤكد وجود مجتمع ثقافي عربي يحاكى المجتمعات في شمال أفريقيا . وإن الأثرين العظيمين اللذين تركهما السعدى ومحمود كعت الذى سنتكلم عنه ، يشهدان على دقة في البحث التاريخى وأمانة في سرد الحوادث ، فقد ذكرا في كتابيهما المصادر ورجال السند ، واحتفظا بالنصوص المنقولة منسوبة إلى أصحابها .

والجدير بالذكر أن كاتباً مجهولا ولد في تنبكتو عام ١١٦٤ هـ (١٧٥١) وكان حفيداً من أحفاد الأمير محمد بن سودو أتم كتاب السعدى بإضافة أحداث المغاربة في مملكة سنغاى في كتاب تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان : نشره هودا (Houdas) الفرنسى عام ١٨٩٩

---

(١) الفصل العاشر .

محمود كعت التنبكى (١٤٦٨ – ١٥٩٣) :

مؤلف أكثر فصول كتاب « تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس » ترجمه المستشرقان هودا ودى لافوس إلى الفرنسية ، وطبع في باريس عام ١٩١٣ كما أصدرا النسخة العربية في العام المذكور .

وذكر المحققان هوداس ودى لافوس أن الكتاب احتوى على كثير من الأخطاء اللغوية التى وقع فيها محمود كعت وأحفاده الذين أسهموا في كتابة الفصول الأخيرة من الكتاب . فهم لم يكونوا عرباً أو من الشعوب التى تجيد الكتابة باللغة العربية ، بل كانوا من قبائل السوننكة ولغتهم إحدى لغات السنغاى . ويبحث هذا الكتاب في تاريخ ونظم دولة سنغاى تحت حكم أسرة أسكيا التى اتخذت جاغ قاعدة لها منذ تولى الحكم الحاج محمد أسكيا (١٤٩٣– ١٥٢٩) حتى غزا المغرب سنغاى عام ١٥٩١ ، بالإضافة إلى تاريخ سنغاى ، تناول المشتركون في تأليف « الفتاش » تاريخ الدول السودانية الإسلامية الأخرى : كاياباجا ، ودبارة ومالى . وقد وقفت الأحداث التى تناولها محمود كعت المؤلف الأول للفتاش عند السنوات الأولى للغزو المغربي .

ومحمود كعت ابن الحاج المتوكل كعت وهو اسم المؤلف الذى ذكره السعدى في كتابه « تاريخ السودان » . ولد حوالى عام ١٤٦٨ وبدأ كتابة مؤلفه وهو في الخمسين من عمره أى عام ١٥١٩ كما ذكر في كتابه . وكان من أصدقاء الحاج محمد أسكيا المقربين ، صاحبه في تأدية فريضة الحج إلى مكة ، وكان موضع ثقته وثقة خلفائه . عاش طويلاً وكان شاهد عيان لحوادث الغزو المغربى أحمد بن الحاج أحمد والد العلامة أحمد بابا . ويلاحظ أن أحداث « الفتاش » انتهت أصلا عام ١٥٩٩ أى بعد وفاة محمود بست سنوات . ويبدو أن أحد أحفاده هو الذى كتب أحداث السنوات الست التالية لوفاته ، ولم يقم بهذا العمل واحد من أبنائه الذين عملوا في وظائف الدولة ولم يضيفوا إلى مخطوط أبيهم شيئاً حتى تناوله أحفاد أبنائه ثم أحفادهم فأتموا كتابة المخطوط بعد ما نسقوا أوراق جدهم الكبير . وهكذا نرى « الفتاش » قد أسهم في كتابته أسرة العالم الكبير وهو الملهم البادىء الأول في تأليف هذا السفر الجليل .

وللأسف لم يذكر واحد منهم اسمه مع أنه ذكر أنه والد المختار جُمبيلة وأن والدته كانت إبنة العالم ألفا محمود كعت كما تحدث عن أخواله : القاضى إسماعيل كعت ، والثاني القاضى محمد الأمين كعت ، والثالث يوسف كعت .

قلنا أن الأحداث الأولى التى أضيفت إلى الفتاش تنتهى في عام ١٥٩٩ ، ثم أضاف الأحفاد أحداث زمانهم فانتهوا بها إلى عام ١٦٦٥ . وهكذا رأينا أن محمود كعت بدأ تأليف كتابه عام ١٥١٩ وأنجزه الأحفاد عام ١٦٦٥ وربما بعد ذلك أى بعد مرور عشر سنوات على انتهاء السعدى من تأليف كتابه « تاريخ السودان » . ولذلك استصوبنا ذكر كتاب السعدى قبل الفتاش .

وقد تحدث كعت في مقدمة كتابه ، عما يمكن أن يسمى النقد العلمى في البحث التاريخى ، فقال :

« لما رأيت إهمال الناس للتاريخ ، على ما له من فائدة جليلة في معرفة البلاد ، والوقوف على أخبار أبطالها ، التمست من الله تعالى ، جات قدرته ، أن يساعدني على كتابة هذا التاريخ الذى يبحث في سلاطين السودان » .

بابا كور بن الحاح محمد بن الحاج الأمين كانو :

يقول عنه محمود كعت مؤلف « الفتاش » ، إنه كان من مهاجرى كانو ، ونسب إليه تاريخ « درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان ». وقال عنه إنه معين لاينضب من المعلومات التاريخية . ومما يؤسف أن هذا المرجع لم يصل إلينا .

وحينما يتقدم بنا الزمن إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، نلمس تطوراً كبيراً في الثقافة العربية في غرب أفريقيا ، يشهد به الرحالة البريطانيون الذين زاروا مدنها خلال هذين القرنين .

القرن الثامن عشر

الحاج عبد السلام الشبينى :

وهناك رسالة للحاج عبد السلام الشبينى ، وهو مغربي من تيطوان ، رافق والده في رحلة للتجارة إلى تنبكتو وبلاد الهوسا حول عام ١٧٨٧ لما كان في السابعة عشرة ثم وقع أسيراً في قبضة الروس عام ١٧٩٥ في أثناء عودته

من رحلة للتجارة إلى هامبورج لشراء الكتان وبعض السلع ، ثم نزل ميناء دوفر بانجلترا واستقر بعض الأعوام في تلك البلاد ، حيث حكى لبريطاني اسمه جاكسون أخبار مشاهداته في بلاد الهوسا وتنبكتو(١) . ومع أن ماجاء في هذه الرسالة لايعتبر من المراجع الرئيسية ، إلا أنها هامة لتناولها وصف أحوال تلك البلاد في أثناء النصف الثاني من القرن ١٨ قبيل أيام الحركة الإصلاحية التى تزعمها الشيخ عثمان دان فوديو .

عثمان دان فوديو (١٧٥٤ — ١٨١٧) وشقيقه عبد الله وابنه :

وهذا زعيم جليل لقبائل الفولة في بلاد الهوسا . ومصلح بكل معنى الكلمة ، تفقه في العلوم الدينية ثم نهض بحركة إصلاحية كبرى شملت مناطق فسيحة في غرب أفريقيا حتى برنو ، وكان لهذه النهضة أثراً عظيماً في تقدم أحوال المسلمين فيما يعرف اليوم بمالى ونيجيريا . وكانت هذه الحركة أيضاً لإعلاء الثقافة العربية في تلك البلا د . فلم تكن دعوة في الدين مبنية على صوفية ، إنما أسست على حركة علمية وعلى دراسة أصيلة ، والدليل على ذلك ما صدر من المؤلفات في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وفي طليعتها مؤلفات عثمان بن فوديو ، فقد ألف حوالى العشرين كتاباً وبحثاً ، معظمها في الجهاد والسياسة والفقه ، منها : أصول الولاية ، وإحياء السنة ، بيان البدع ، علوم المعاملة ، عمد العلماء، نصائح الأمة . وغيرها(٢) وكان شقيقه عبد الله بن فودى محدثاً قوى الحجة ، ألف عدة كتب وقصائد، منها تزيين الوقات ، وضياء السياسة ، وضياء الحكام . وقد وصل إلينا من أعمال السلطان محمد بلو بن عثمان ، كتاب إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور(٣) جمع فيه أخبار القتال بين والد ه الشيخ عثمان والزعيم محمد

---

(١) Jackson, G. : An account of Timbuctoo and Hausa, London 1820.

(٢) المرجع السابق ذكره Kensdale : Catalogue.

(٣) أصدر هذا الكتاب فى لغتـــه العربية مستر وتنج Whitting المحاضر بمدرسة العلوم العربية بكانو عن نسخة خطية ونشرته مكتبة لوزاك بلندن عام ١٩٥٧

الأمين الكانمى وكذلك الرسائل المتبادلة بينهما . وقد وصف محمد بلو في كتابه بلاد الفولة والهوسا وذكر فيه أسماء بعض علمائهم .

* * *

وفي أوائل القرن العشرين ، تقابلنا مؤلفات الشيخ أحمد بامبا والحاج مالك سى ، وموسى كالم ، وتعتبر استمراراً للحركة الثقافية في العصور السابقة ، فقد أنشأ زعماء الطريقة المريدية إحدى شعب الطريقة القادرية مدارس تعلم فيها اللغة العربية إلى جانب العلوم الدينية التقليدية . وأحمد بامبا هذا هو أمادوا بامبا من قبيلة الولوف الكبيرة وأصله من التوكولور . اضطهدته الإدارة الفرنسية ونفته من البلاد مراراً لاشتغاله بالسياسة ، ثم قصر نشاطه على الشئون الدينية . ولما توفي عام ١٩٢٧ كان عدد أنصاره بلغ حوالى ٤٠٠,٠٠٠ شخص ، ولايزال ضريحه مزاراً إلى اليوم في بلدة طوبا التى تقع شمال شرقي دكار وهى أهم مراكز المريدية .

والمعروف أن الاستعمار بذل جهوداً جبارة لمقاومة الثقافة العربية وإحلال الثقافة الفرنسية محلها . وكان من إصالة الثقافة العربية في صدور الناس أن عمد المسلمون إلى إنشاء المدارس في المناطق التى تسيطر عليها الوثنية ، كما حدث في شمال ساحل العاج ونيجيريا في أقاليمها الجنوبية.

* * *

أدرك علماء الغرب منذ وطد الاستعمار الأوري أقدامه في أفريقيا ، أهمية المخطوطات العربية ، فنقلوا كثيراً منها إلى مكتبات بلادهم (كالمتحف البريطاني ، والمكتبة الوطنية في باريس وغيرهما ، ودأبوا على بحثها وترجمتها إلى لغاتهم ، كما نشطت الجمعيات والمعاهد الخاصة بالدراسات الأفريقية وأسهمت في نشرها وطبعها ، ولاسيما ما اتصل من هذه المخطوطات بتاريخ الشعوب الأفريقية . كما أنه تتكدس في المعهد الفرنسى للآثار بدكار عاصمة سنغال أكثر من ثلاثمائة مخطوط عربي تنتظر الباحثين . ومع ذلك

فلا تزال هناك إلى اليوم مخطوطات عربية كثيرة في غانا وغينيا وسنغال ونيجيريا لم تحقق بعد تحقيقاً علمياً تنتظر جهود المؤرخين العرب والأفريقيين ونأمل أن يكون الوقت قد حان للوفاء بهذا التراث العربي الجليل .

ومما يدعو إلى الغبطة ، أن في هذا اليوم في غرب أفريقيا حركة نشيطة تهدف إلى جمع هذا التراث العربي ، تنهض به جامعات غانه ونيجيريا وغينيا وسنغال ، الغرض منها تصنيف جميع المخطوطات العربية الموجودة في المكتبات الخاصة والمتاحف والمعاهد ودراستها وتبويبها ، ثم نشر الكتالوجات العلمية الوصفية لكى تكون في متناول العلماء والباحثين . وقد صدر منذ عامين ثبت عام للمخطوطات العربية الموجودة في مكتبتى متحف جوس ولوجارد في مدينة كادونا[1] بنيجيريا ونهضت جامعة إيبادان بنيجيريا منذ أعوام بالتعريف عن المخطوطات العربية التى في حوزة مكتبتهما وأصدر القائم على هذه المكتبة ثبتاً طيباً عن تلك المجموعة[2] . وتتركز موضوعات غالبية مخطوطات إيبادان في الدين والأدب ووصف الأحوال الاجتماعية التى سادت شمال نيجيريا في القرنين الثامن عشر والناسع عشر ، ولاسيما خلال حركة الإصلاح الدينية التى تزعمها الشيخ المصلح عثمان دان فوديو ، والتى أسهم فيها شقيقه عبد الله بن محمد ، وإبنه محمد بلو ، وعبد القادر بن مصطفى حفيد الشيخ عثمان ، وغيرهم من رجال الفكر بين المسلمين . (أنظر الملحق بالمقال) .

---

(١) Aida S. Arif and Ahmad M. Abu Hakima : Descriptive Catalogue of Arabic Manuacripts in Nigeria. Luzac, London 1965.

(٢) Kensdale, W. E. N. : A Catalogue of the Arabic manuscripts preserved in the University Library. Ibadan, Nigeria. 1955 - 58.

أهم المخطوطات العربية فى مكتبة إيبادان

البداوى ، محمد بن عبد الله البرناوى :

القناعة ، ٤٢ص ، ٢٧×١٩ سنتى . قصيدة في ٤٠٩ بيت في علامات يوم الحساب . اعتمد على « الإشاعة لإشارات الساعة » لمحمد بن عبد الرحمن البرزنجى . وقد نظمها في عام ١٣١٠ ، رقم ٨٢-٢٦[1] .

البدماصى ، أبو عبد الله محمد ، مؤلف شهر في نيجيريا لقصيدته التى يتغنى بها أهل البلاد ولا سيما مسلمى اليوروبا .

شرح هذه القصيدة محمد بلوني « شرح القصيدة » . وللبدماصى مخطوط في المكتبة الوطنية بباريس .

القصيدة التائية ؟ في مدح النبي ، ٨ ص ، ٢٣×١٧,٥٠ سنتى ، ٥٥ خمسية رقم ٨٢—٢٥ .

جنيد السكتى وزير بسوكوتو :

١ — ضبط الملتقطات من الأخبار المتفرقة في المؤلفات ، ٩٩ ص ، ٢٠×١٦,٥٠ سنتى ، ١٤ س . في تاريخ خلافة الفولة في سوكوتو ، أهداها المؤلف للمكتبة .

٢ — مرتع الأذهان لمن يريد لغة الفولاني ، ١٠ ص ، ٢٣,٥×١٨ سنتى ، ١٨١ بيت عن لغة الفولة ، رقم ٨٢ — ٣٢ .

الزقاق ، أبو الحسن على :

لامية ابن الزقاق : ٤٤ ص ، ٢٢,٥×١٧ سنتى ، ٢٦٢ بيت ، شرحها محمد بن أحمد بن محمد الميارة[2] .

---

(١) Brockelman : Gall. Suppl. 11. p. 529.

(٢) المصدر السابق . ص ٣٧٦

عبد الله بن محمد بن سالم ، وهو المعلم الفولى عبد الله سقا : مخطوط العطية للمعطى ، ٥٦ ص ، ٢٢ × ١٧ سنتى .
١٤٥٠ بيت شعر ، مرتبه في ٣٧ بابا ، يعالج كل باب منها ناحية من العقيدة الدينية وتأديتها ، رقم ٨٢ — ١[1] .

عبد الله بن محمد بن عثمان بن صالح المعروف بابن فودى (شقيق عثمان) .

١ — علامات المتبعين لسنة رسول الله ، ٢ ص ، ٢٢,٥ × ١٦,٥ سنتى ، ٢٢ سطر .

ثبت يشتمل على الصفات التى ينبغى توافرها في تابعى السنة الصادقين .

ميكروفيلم للمخطوط ، أهداه أمير باوتشى ، رقم ٨٢ — ٢ .

٢ — ضياء الأنام في الحلال والحرام ، ٢٠ ص ، ٢٣ × ١٧ سنتى ، ١٩ س . في التمييز بين الحلال والحرام في جميع الشئون . الأكل ، المعاملة ، الرشوة ، العلاقات بالسلطان الظالم رقم ٨٢ — ٣ .

٣ — ضياء الحكام فيما لهم وعليهم من الأحكام ٤٣٠ ص ، ٢٢ × ١٦ سنتى ، ١٩ س رقم ٨٢ — ٤ .

٤ — نسخة أخرى — ٨٦ ص ، ٢٣ × ١٨ س . رقم ٨٢ — ٥ .

٥ — نسخة أخرى — ٦٧ ص ، ٢٢,٥ × ١٦,٥ س . ١٥ س . رقم ٨٢ — ٦ . وهناك نسخة أخرى في المكتبة الوطنية بباريس .

٦ — ضياء المجاهدين حماة الدين الراشدين ، ٢٢ ص ، ٢١ × ١٥,٥ سنتى . ٣١ س . مقتبسة من مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار الإسلام لشمس الدين أحمد بن ابراهيم الدمشقى الدمياطى الذى تم تأليفه في ١٢٢٦ هـ . رقم ٨٢ — ٧ .

---

(١) راجع محمد بلو : انفاق الميسور ، تحقيق C. E. J. Whitting London 1051.

راجع أيضا :
E. J. Arnett : The Rise of the Sokoto Fulani. Kano, 1922.

٧ — ضياء السياسات وفتاوى النوازل ، ١٠ ص ، ٢٢ × ١٦ سنتى ، ١٧ س . غير تام . يحتوى على الفصل الأول وقسم من الفصل الثاني رقم ٨٢-٨ هناك نسخة كاملة في المكتبة الوطنية بباريس (١) وأخرى في مكتبة مجلس المنطقة الشمالية بكادونا

٨ — ضياء الأمة في أدلات الأئمة ، ٩٣ ص ، ٢٣,٥ × ١٨ سنتى ، ٢٠ س . لايظهر إسم المؤلف على المخطوط . ولكن هناك مؤلف باسم عبد الله في فهارس أخرى . تاريخ التأليف ١٢٢٦ هـ . وهو مقتبسات من الشعراني : كشف الغمة من جامع الأمة . رقم ٨٢ — ٩ .

٩ — لباب المدخل في آداب أهل الدين ، ٦٣ ص ، ٢٠ × ١٦ سنتى ، ١٣ س . وخلاصة لابن الحجاج « المدخل في تنمية الأعمال » . رقم ٨٢—١٠

١٠ — اللؤلؤ المصون ، ٤٢ ص ، ٢١ × ١٦ سنتى رقم ٨٢ ١١.

خلاصة مقفاة للمنهج المنتخب للزقّاق . في ٨٠١٠ بيت شعر مع التعليق . كتبت عام ١٢٣١ هـ . ميكروفيلم لمخطوط استعير من الحاج بشير الميدوجرى .

١١ — المسائل ، ٢٤ ص ، ٢٠ × ١٦ سنتى ، ٢٠ س . في الفقه في شكل أسئلة وأجوبة . رقم ٨٢ — ١٢ .

١٢ — مطية الزاد إلى المعاد ، ٤٠ ص ، ٢٣ × ١٨ سنتى ، ١٦ س . تبحث في الحاجة إلى الزهد ، الصلاة والذكر واتباع عظات الصالحين . كتبت عام ١٢٣٣ هـ . رقم ٨٢ — ١٣ .

١٣ — سبيل النجاة . ٤ ص ، ٢٢ × ١٥ سنتى ، ٢٣ س . وهى في قسمين :

(أ) في الندم

(ب) في العناية بخمسة أعضاء هى : العين والأذن واللسان والقلب والمعدة.

---

(١) G. Vajda : Contribution à la connaissance de la litterature arabe en Afrique Occidentale.
Journal de la Société des Africanistes, t. XX, fasc. 2, 1950. pp. 229-237.

نسخة ميكروفيلم فن مخطوطة م . أبوبكر النفاتي المدرس العربي الزائر في باوتشي . رقم ٨٢ — ١٥ .

١٤ — تزيين الورقات بجمع بعض مالى من الأبيات ، ١٩ ص ، ٢٢,٥٠ — ١٦ أسنتي ، ٢٥ س .

عالج مضمون هذه المخطوطة بالتطويل براس [١] (Brass)

يوجد أربع مخطوطات من هذا الكتاب في مكتبة مدرسة الدراسات بكانو ، وأخرى في لندن . وهذه المخطوطة أهم مؤلفات عبد الله ، كتبها في عام ١٢٢٨ هـ . مخطوط مكتبة إبدان غير كاملة . رقم ٨٢ — ١٦ .

عبد القادر بن مصطفى بن ابنة عثمان دان فوديو . يعرف عند الهوسا باسم عبد القادرى دان تافا . وعند الرحالة بارت بأنه أعلم علماء الجيل بين أهالى سوكوتو ، وقد استفاد منه كثيراً . ومن مخطوطاته :

١ — أخبار البلاد الحوسية والسودانية ، ١١ ص ، ٢٢,٥ × ١٧,٥ سنتي ، ١٨ س أهداها جنيد وزير سوكوتو ، رقم ٨٢ — ١٨ [٢]

٢ — موصوفات السودان ، ٩ ص ، ٢٢ × ١٧ سنتي ، قصيدة في ٢٦٥ بيت ألفت عام ١٣٤٨ هـ ، رقم ٨٢ — ١٩ .

٣ — تعليق بديع وجيز على الأسئلة البضع والخمسين ، ١٤ ص ، ٢٣,٥ × ١٨ سنتي ، ٢٠ س عبارة عن ٥٣ جواباً لأسئلة تتناول أشياء كثيرة عن الخليقة إلى شريعة الميراث ، رقم ٨٢—٠٢٠

عبد الرحمن بن الخطيب محمد السنوسى الخزرجي :

من أهالى برنو وكان أمام مسجد كوكو ، توفي في بيروة حوالى ١٩٢٢.
له ثلاثة مخطوطات كتبها عبد الرحمن بخط يده :

---

(١) Brass : Eine neue Quelle zur Geschichte des Fullreiches Sokoto. Der Islam, X. 1920.

وراجع : Broc. Gall. Suppl. 11. p. 894.

وقد أشار اليها الرحالة بارث فى كتاب رحلته . طبعة ١٨٥٧/٨ ، ج ٤ ص ١٨٦

(٢) اشار اليها الرحالة بارث فى كتاب رحلته ، ج ٤ ص ١٠١ — ١٠٢

١ — الدرة السنية في ذكر الكعبة البهية والمدينة المنورة الشذية وشيءٌ من مدح ساكنها خير البرية سيدنا محمد ، ٤ ص ، ٢٤ × ١٦ سنتى ، ٦٣ بيت ، صنفت عام ١٣٣٨ ﻫ ، رقم ٨٢ — ٢١ .

٢ — القصيدة اللامية ، ٤ ص ، ٢٣ × ١٨ سنتى ، ٦٢ بيت في مدح النبي محمد ، ألفت عام ١٣٢٦ ﻫ ، رقم ٨٢ — ٢٣ .

٣ — القصيدة المامية في مدح خير البرية ، ٤ ص ، ٢٢ × ١٧ سنتى ، ٦٥ بيت في مدح النبي ، رقم ٨٢—٢٢.

عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح (ابن فودة) : أمير المؤمنين ، ومؤسس خلافة سوكوتو[1] .

١ — الأمر بموالاة المؤمنين والنهى عن موالاة الكافرين : ٨ ص ، ٢٠ × ١٦ سنتى ، ١٢ س . مؤرخة في ١٢٢٧ ﻫ ، رقم ٨٢ — ٥١ .

٢ — بيان البدع الشيطانية التى أحدثها الناس في أبواب الملة المحمدية . ١٤ ص ، ٢٠,٥ × ١٦ سنتى ، ٢١ س .

توجد مخطوطة أخرى في المكتبة الوطنية بباريس (راجع فاجدا ص ٢٣٠) .

٣ — بيان وجوب الهجرة على العباد : ٨٥ ص ، ٢٣ × ١٧ سنتى ، ١٨ س تحتوى على ٦٣ فصلاً عن الهجرة ، وإمامة الجهاد ، يليها سيرة موجزة عن النبي محمد ، والخلفاء الأربعة . مؤرخة في ١٢٢١ ﻫ ، رقم ٨٢—٥٣.

٤ — حصن الإفهام في جيوش الأوهام : ٦٧ ص ، ١٩,٥ × ١٣ سنتى ١٣ س . توجد نسخة أخرى في المكتبة الوطنية بباريس . (راجع فاجدا ص ٢٣٠)

---

(١) راجع :
E. J. Arnett : Gazatteer of Sokoto Province
E. W. Bovill : Car avans of the old Sahara, London 1933.

٥ – إحياء السنة وإخماد البدع : ١٨٦ ص ، ٢٢ × ١٦,٥ سنتى ، ١٦ س . توجد نسخة أخرى من المخطوطة في لندن والمكتبة الوطنية في باريس (راجع فاجدا ص ٢٣٠)

٦ – اتباع السنة وترك البدع : ١٥ ص ، ٢٢,٥ × ١٧ سنتى ، ٢١ س . رقم ٨٢ – ٥٦ .

٧ – نجم الاخوان : ٣٨ ص ، ٢١,٥ × ١٦ سنتى ، ٢٤ س . نسخة غير كاملة عن الفقه ، تمت في ١٢٢٧ هـ . مستعارة من أمير باوتشى ، رقم ٨٢ – ٥٧ .

٨ – نور الألباب : ٧ ص ، ٢٢,٥ × ١٦,٥ سنتى ، ٢١ س . توجد مخطوطتان أخريتان في المكتبة الوطنية بباريس وثالثة في لندن . رقم ٨٢-٥٨. (راجع فاجدا ص ٢٣٠)

٩ – سوق الصادقين إلى حضرة القدس : ٤ ص ، ٢٠ × ١٦ سنتى ، ٢١ س . عن فوائد الجوع ومساوئ الشره : نسخة من مخطوطة في كاتسينا. رقم ٨٢-٥٩.

١٠ – سوق الأمة إلى أتباع السنة : ٤٥ ص ، ٢٣ × ١٧,٥ سنتى ، ١٢ س . مستخرجة من البخارى . رقم ٨٢- ٦٠ .

١١ – نسخة أخرى ، ١٩ ص ، ٢٢ × ١٦ سنتى ، ٢٥ س . ميكروفيلم مستعار من أميربيدا ، رقم ٨٢–٦١ .

١٢ – سراج الاخوان في أهم مايحتاج إليه هذا الزمان : ٤٩ ص ، ٢٣,٥ × ١٨ سنتى ، ١٩ س .

توجد مخطوطة أخرى في لندن ، وفي المكتبة الوطنية بباريس ، مؤرخة في ١٢٣٤ هـ . رقم ٨٢ – ٦٢ . (راجع فاجدا ص ٢٣١)

١٣ – عمدة العباد فيما يدان الله به من جهة الصلاة والصوم وتلاوة القرآن . ٦ ص ، ٢٢ × ١٦ سنتى ، ٢٠ س . رقم ٨٢ – ٦٣٢ .

وتوجد مخطوطة أخرى في كانو والمكتبة الوطنية في باريس . (راجع فاجدا ص ٢٣١ (على ماعجى أبوجا : الجبر الدنيا (هكذا (، ١٢٦٠ ص (٣ أجزاء) ، ٢٠ × ١٦,٥ س ٢٤ سطر . رقم ٨٢ — ٢٤[1]

غداد بن الإمام وزير محمد بللو [2]

روض الجنان في ذكر مناقب الشيخ عثمان ، ١٤ ص ، ٢٣,٥ × ١٨ سنتى ، ٢٠ س . تم في ١٢٣٢ ، رقم ٨٢ — ٢٨ .

محمد بلو بن عثمان دان فوديو [3]

١ — الإنصاف في ذكر ما في مسائل الخلافة من وفاء وخلاف ، ١٣ ص ٢٢,٥ × ١٦,٥ سنتى ، ٢٩ س . مقتبسه من رسائل أبو عبد الله محمد أحمد بن بن أبي بكر ، مؤرخة في ١٢٣٢ هـ . ميكروفيلم من المخطوطة الأصلية ، رقم ٨٢ — ٣٤ .

٢ — جلاء الصدور عما يحتاج فيها من صدر الغرور ، ٣١ ص ، ٢٤×١٨ سنتى ١٨ سطر . جمعت في ١٢٢٩ هـ . ميكروفيلم ، رقم ٨٢—٣٥

٣ — نسخة أخرى من المخطوطة السابقة .

٤ — مرثية عمه عبد الله بن فودى ، صفحة ٢٣ × ١٧ سنتى . ٢٩ بيت شعر بالشرح ، ميكروفيلم ، رقم ٨٢ — ٣٧

٥ — قصيدة .... محمد باو يمدح الغزاة من أشباهه ، صفحة ، ٢١ × ١٥,٥ سنتى ٢٥ بيت ، مستعارة من أمير باوتشى . رقم ٨٢ — ٣٨

٦ — القول المرهم في أحكام الزنا بذات المغنم : ٣ ص ، ٢١ × ١٦ سنتى ، ٢٦ س . مستعارة من م. أبو بكر النفتى ، رقم ٨٢ — ٤٠

---

(١) Hassan & Shuaibu : Chronicle of Abuja. Ibadan, 1952.

(٢) Arnett : Gazetteer of Sokoto Province. London 1920. pp. 31-32.

(٣) راجع المرجع السابق ذكره .

E. W. Bovill : Caravans of the old Sahara. 1933.

٧ — الرباط والحراسة : ٣٠ ص ، ٢٢ × ١٦ سنتى ، ١٩ س . مقتبسة من مشارق الأشواق ... الخ . رقم ٨٢ — ٤١

٨ — شرح القصيدة الطائية البدماشية . ١٧ ص ، ٢٢ × ١٦ سنتى ، ٢٨ س . ميكرو فيلم من مخطوطة أمير باوتشي ، رقم ٨٢ — ٤٢

٩ — تنبيه الفهوم على وجوب اجتناب أهل الشعذبة (؟ (والنجوم : ٣ ص ، ٢٣ × ١٧ سنتى ، ١٥ س . رقم ٨٢ — ٤٣

١٠ — تنبيه الصاحب على أحكام المكاسب : ٢ ص ، ٢٢×١٦ سنتى ، ٣١ س . جمعها في عام ١٢٣٥ هـ . مستعارة من أمير باوتشي ، رقم ٨٢—٤٤ .

محمد بلو رئيس قضاة كاتسينا :

الهائية في مدح نيجيرية : ٣ ص ، ٢٢ × ١٧ سنتى ، ٣١ بيت ، أهداهما المؤلف . رقم ٨٢ — ٤٥

محمد جبريم :

بث الشوق والشكوى في طلب الوصل والجدوى إلى ذى الفضل والتقوى . ١١ ص ، ٢٢,٥ × ١٧ سنتى ، ٢٥٧ بيت في مدح النبي محمد (صلعم) أهداها محمد بلو رئيس قضاة كاتسينا ، رقم ٨٢ — ٤٦

محمد الوالى بن ابراهيم الفلاتى :

الأحكام للنجوم في أشكالها : ٩ ص ، ٢٣ × ١٨ سنتى ، ٢٩٧ بيت في الفلك (علم الرمل) ، كتبت في عام ١٣٧١ هـ ، رقم ٨٢ — ٤٧

محمد الوالى بن سليمان بن محمد الفلاّتي [1] :

المنهج الفريد في معرفة علم التوحيد ، ٤٧ ص ، ٢٣ × ١٧ سنتى ، ١٧ س . رقم ٨٢ — ٤٨

محمود بن محمد بن محمد الأول ، المعروف بأمير العلماء :

---

(١) راجع محمد بلو : انفاق الميسور ، تحقيق هويتنج ، لندن ١٩٥١ ، ص ٢٢

من المحتمل أنها كتبت في حوالى ١٨٩٠ ، تاريخ ، ٢٣ × ١٧ سنتى ، ٢٤ س . تشتمل على تاريخ نوبيه Nupe في أيام حكم الفولة الأولى . تشتمل على أسماء ملوك نوبيه إلى المعز وملاحظات قليلة عن بعضهم . رقم ٨٢ — ٣٣ .

القرآن الكريم :

٥٥٦ ص ، ١٣ س . رقم ٨٢—٥٠

القضاعى ، أبو عبد الله بن محمد :

الشهاب في الحكم والمواعظ والآداب والوصايا والأمثال : ٥٨ ص ، ٢٤ × ١٧ سنتى ، ٩ س .

المخطوطات العربية فى سكوتو :

وهناك في مكتبة مدرسة الشريعة بمدينة سكوتو عدة مخطوطات عربية لعثمان بن فودة من أهمها[1] :

١ — نور الألباب .

٢ — ضياء الأمة في أدلة الأئمة الأربعة .

٣ — نجم الإخوان يهتدون بإذن الله في أمور الزمان .

٤ — بيان رجوع الشيخ السنوسى عن التشديد على التقليد في علم التوحيد .

٥ — عمدة البعاد فيما يدان به الله تعالى ، من جهة الصلاة والصوم وتلاوة القرآن وما كان من أوراد الذكر والصدقة .

٦ — إرشاد أهل التفريط والإفراط إلى سواء الصراط في علم أصول الدين .

٧ — معراج العوام إلى سماع علم الكلام . فرغ من تأليفه سنة ١١٩٩ هـ .

---

(١) دكتور محمد الفحام : المسلمون فى نيجيريا ، مقالان نشرا فى مجلة منبر الاسلام ، اكتوبر ونوفمبر ١٩٦١ ، ص ٢١ — ٣٠ ، ص ٥٧ — ٦٠ .

٨ ـ تنبيه الغافلين وتنظيم الأخبار وبديع الآثار في الوعظ .

٩ ـ السلاسل الذهبية للسادات الصوفية .

١٠ ـ كتاب عنوانه « لما بلغت ستاً وثلاثين سنة » .

ولعبد الله بن فودى شقيق عثمان في مكتبة سكوتو ، المخطوطات التالية :

١ ـ نيل المرام من شيم الكرام مخطوط سنة ١٢٤٢ هـ .

٢ ـ تعليم الأصحاب فضل تعلم الأنساب مع ذكر نسب النبى والعرب والأنجاب سنة ١٢٤٣ هـ .

٣ ـ ضياء السياسات .

٤ ـ كتاب المدخل في آداب أهل الدين والفضل . . .

٥ ـ ضياء الحكام فيما لهم وما عليهم من الأحكام .

٦ ـ قصيدة دالية في مدح النبي (ص) .

مخطوطات كانو :

فإذا قصدنا مكتبة مدينة كانو بشمال نيجيريا ، لوجدنا المخطوطات التالية لعثمان بن فودى :

١ ـ عمدة علماء الفقه .

٢ ـ تحفة الألباب ونخبة الإعجاب في التصوف .

٣ ـ تحذير الإخوان عن إدعاء المهدية الموعود به آخر الزمان .

٤ ـ إحياء السنة وإخماد البدعة .

ولعبد الله بن فودى بكانو المخطوطات العربية التالية :

١ ـ كتاب مطية الزاد إلى المعاد في التصوف والوعظ . مخطوط سنة ١٢٣٣ هـ .

٢ ـ ضياء المجاهدين ، حماة الدين الراشدين ـ مخطوط سنة ١٢٢٦ هـ

٣ ـ كتاب الحصن الرصين في التصريف وهو نظم .

٤ ـ مختصر الحصن الرصين .

وبهذه المكتبة مخطوطة لمحمد بن بلو بن عثمان فودى :

١ — النصيحة الوضيئة في بيان أن حب الدنيا رأس كل خطيئة .

إن مكتبة كانو عامرة بكتب اللغة والنحو والحديث والتفسير والفقه المالكى وكلها مطبوعة بالقاهرة .

وبالإضافة إلى مكتبتى سكوتو وكانو هناك مكتبتان أخريتان في زاريا وكاتسينا ، عامرتان بالمؤلفات العربية .

وتوجد عدة مخطوطات بدار الكتب الوطنية بباريس ، منها :

عثمان بن محمد بن فودى :

١ — بيان البدع الشيطانية التى أحدثها الناس في أبواب الملة المحمدية ، رقم ٥٦٠١ ، (ص ٢٣٤ إلى ص ٢٤٥) ورقم ٥٧٢٧ ، (ص ١٥—٢٧) .

٢ — حصن الأفهام من جيوش الأوهام ، رقم ٥٣١٩ ، (ص ٥٦— ٧٠) ، رقم ٥٥٤١ ، (ص ١٠٨—١٢٩) ، رقم ٥٧٢٤ ، (ص١—٢٦) .

٣ — إحياء السنة . (طبع بالقاهرة — الجامعة الأزهرية) .

٤ — مسائل ملهمة : ١٤ سؤال وجواب .

٥ — سراج الإخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان . عشرة فصول تتناول شرح الأسباب لمحاربة المسلمين الطالحين ، أكثرها مستمد مما قال به محمد بن عبد الكريم المغيلى التامساني ت ١٥٠٤

٦ — شمس الإخوان ، في أصول الأديان ، رسالة كتبت فيما بين ١٢٢٨ هـ — ١٨١٣

٧ — عمدة العباد فما يدان الله من جهات الصلاة . عبارة عن إرشاد مقتبسة من الحديث عن فريضة الصلاة .

٨ — مخطوطة توضح الصلة بين عثمان بن فودى وأحمد المدني رقم ٥٤٨٤

٩ — رسالة إلى عثمان بن فودى من الشيخ محمد راجى بن على أبو الفتح رقم ٥٧١٦ ، ورسائل أخرى .

عبد الله محمد بن عثمان بن صالح بن فودى [١] :

١ — ضياء الإحتساب على طريقة السنة والصواب ويتناول الحسبة والحبوس رقم ٥٤٠١

٢ — ضياء الحكام فيما لهم وعليهم من الأحكام . كتبها في طريقه للحج ١٢١٥ — ١٨٠٤ من بلاد الهوسا وأثناء المعارك الظافرة التى أعقبتها وتشتمل على :

٣ — مقاصـــد الهجرة — تنصيب الإمام — نواب الإمام — الجهاد — السياسة الشرعية .

٤ — ضياء السياسة وفتاوى النوازل رقم ٥٥٩٩

٥ — ضياء أولى الأمر والمجاهدين في سيرة النبي والخلفاء الراشدين رقم ٥٦٣٤

٦ — مرثية : رثي فيها بعض الشخصيات السودانية رقم ٥٦٨٧

٧ — شكر الإحسان على المنن لمن أراد صواب الأمان رقم ٥٤٤١

ولمحمد بلو بن عثمان بن فودى :

١ — البدر اللامع في الورد الجامع ، صنف عام ١٢٤٦هـ — ١٨٣٠ — ٣١

٢ — مواعظ (ليس هذا العنوان الأصلى للمخطوطة) .

٣ — قدح الزناد في أمر هذا الجهاد رقم ٥٥٧٦

حقائق عن الأحوال المدنية للسودان منذ ظهور عثمان بن فودى ومعلومات عن بعض الوقائع الحربية .

٤ — شفاء الأسقام في معرفة مدارك الأحكام . رسالة كتبت قبل عام ١٢٥٥ هـ — ١٨٣٩ في سوكوتو وتحتوى على ثلاثة مقاصد .

---

(١) من أهم مؤلفــاته : تزيين الورقات ، وكتابه البركة فى الســكون والحركة الموسوية بايداع المنسوخ من أفدت عنهم من الشيوخ .

٥ — الشبهات الواضحات فيما جاء في باقيات الصالحات رقم ٥٥٧٥

٦ — الطب الهين في أوجاع العين رقم ٥٦٦٦

٧ — عجالة الراكب في الطب الصائب رقم ٥٥٨٨

٨ — نبذة من كتاب الرقائق .

٩ — رسائل إلى أحمد بن أحمد وتلاميذه في ما سيينا

١٠ — رسالة إلى الشيخ المختار رقم ٥٥٧٤

مخطوطات الحاج عمر الفوتى :

وفي دار الكتب الوطنية بباريس عدة مخطوطات للزعيم الحاج عمر (ابن سعيد الفوتي) ، وهى :

١ — أجوبة مسائل — فتاوى منوعة .

٢ — عقيدة (رقم ٥٧١٦) .

٣ — هاديات المذنبين إلى كيفية الخلاص من حقوق الله (عن التوبة) رقم ٥٥٧٣

٤ — منظومة في إصلاح ذات البين ، عبارة عن أرجوزة كتبت في فزان في طريق الحج رقم ٥٥٣٢

٥ — المقاصد السنية لكل موفق من الدعاة إلى الله من الراعى والرعية (عن أعمال الدعاة) .

٦ — قصائد منوعة رقم ٥٤٣٢ ، ٥٦٨١ ، ٥٦٨٤

٧ — رياح الحزب الرحيم على نهور حزب الرحيم (في واجبات مريدى التيجانية) ١٢٦١ هـ — ١٨٤٥

٨ — سفينة السعادة في أهل الضعف ؟ والنجادة .

٩ — سيوف السيد المتقد في أهل الله .

كات التيجاني على رقبة الشقى الطريد المنقذ الجاني رقم ٥٤٠١،٥٦٥١، ٦١٠٨

١٠ – تذكرة المسترشدين وفلا الطالبين رقم ٥٧٠٨

١١ – أرجوزة في العقائد رقم ٥٧٢٢[1] .

وفي المكتبة الوطنية بباريس قليل من المخطوطات العربية لأدباء السودان في القرن ١٩ ، ولمن لهم بعض تلك المخطوطات .

أبناء الحاج عمرو أحمد ونيحو (الشيخ أحمد) ومنيرو (أحمد المدني) فلهؤلاء المخطوطات ذات الأرقام ٥٤١٠ ، ٥٧٢٢ ، ٥٤٠١

---

(١) **Edmond Blochet : Catalogue des manuscrits arabes des nouvelles addition.**

التحرر العالمى وتجدد العلوم الاجتماعية(*)

للدكتور جاك بيرك Jaques Berque

العالم الثالث ، أو البلاد التى كانت مستعمرة تابعة ثم أصبحت اليوم مستقلة متحررة ، أو البلاد « المتخلفة » كما سماها البعض ، ثم تأدب آخرون فأطلقوا عليها « النامية » ، مترادفات كلها متنوعة اقترحها جيلنا قاصداً إلى التعبير عن الشعوب التى نفضت عن نفسها غبار الوصاية الأجنبية ، والتى تحاول اليوم أن تحمل عبْ الحضارة الصناعية .

وبما أن هذه الحضارة المنبثقة من مراكز محددة كانت قد نشرت الخراب والتحريض على صورة استعمار خلال فترة طويلة من الزمان ، لذلك فإن المجهودات المعاصرة للتحرر السياسى والبناء الاقتصادى وإعادة التكوين الجماعى تتكيف بالنسبة لهذا الإطار التاريخى ، تلك المجهودات التى تشكل من حيث الامتدادالجغرافي والتزاحم المعنوى ، السمة الكبرى لعصرنا على الأقل . ولعله من الجائز السائغ والأمر كذلك ، أن نطلق على دراسة ظاهرة كتلك ، في مضمون علم الاجتماع ، « التحرر العالمى » .

صحيح أن هذه الدراسة لم تنتظر تسمية خاصة حتى تأخذ طريقها بسرعة ، وحتى تقطع شوطاً واسعاً إلى الأمام ، والأتنوجرافيا Athnographie لعبت دورها خلال القرن التاسع عشر بتحسّسها خصائص الثقافات ، شريطة ألا تكون قد ألبست ثوب الزعم بأنها بدائية أو غريبة ، وكذلك كانت الدراسات الاقتصادية والسياسية في الحالات التى كانت تتجاوز فيها التقدير الضيق للمصالح وتحاول تبرير ضرورة وجود الشكل الذى عرفت به السلطة القائمة آنذاك . ولايختلف الأمر كثيراً حتى في محيط الأدب

(*) محاضرة ألقيت بدار الجمعية مساء الاثنين ١٨ من ديسمبر سنة ١٩٦٨

القصصى ذاته حينما كان يتجاوز المناظر وحالات النفس الفردية إلى الواقع الجماعى ، كل ذلك كان يمثل مجهودات جادة مبتكرة سبقت موضوعنا هذا ومهدت له .

وفي الفترة القريبة من السنوات الأخيرة التى يمتد أثرها إلى أيامنا هذه ، نرى تقدم الأنثروبولوجيا Anthropologie والتاريخ الاجتماعى والتحليل الاقتصادى والتعميق النظرى والعملى الذى ينبثق عن الأوضاع الثورية والالتزامات الجماعية ـ كالتخطيط مثلاً ـ نرى هذه الأمور جميعاً تزود موضوعنا بمواد غنية تتوافق حيناً وتتنافر أحياناً ، وإذا كانت هناك مقاومات تقف في الطريق ، فإنه سوف يتسنى لنا ـ برغم ذلك ـ اختبار مشروعنا على الوجه الأكمل ، واستخلاص بعض خصائصه حاضراً ومستقبلاً .

فالتحرر العالمى Decolonisation تعبير مولد استدعاه تجدد الواقع ، وهو لذلك ينبغى تقريبه من تعبير مولد آخر هو الأتمته (التحريك الذاتي آلياً : Automation) فإذا كان التحرر من الاستعمار ينحو إلى توزيع أفضل للمبادرة التاريخية على سطح الأرض ، فهو بهذه الصفة يكوّن مع تقدّم الأتمته الظاهرة البارزة لعصرنا شيئاً ذا بال ، وإنه في واقع الأمر إذا كانت هذه الأخيرة تغير علاقات الطاقة والزمن البشريين بالمادة ، فإن التحرر الأوفي يعرض وجهاً جديداً للزمان والمكان ، يجعل الإنسان في إطار جديد من المكان والزمان . نعم إنه يطلق الإمكانيات في أنحاء العالم وفق تطور ناتج من الماضى إلى حد ما ولكن على وجه العموم دون أن يجول بخاطر أحد في المرحلة السابقة فيستعمل عوامل فنية تكنيكية واجتماعية ونفسية ، والأفضل من ذلك أن يسعى إلى التحكم بعلاقاتها المتبادلة ، وهو بذلك يكون محدّداً منسقاً مجدداً معاً ، إنه محدد لأنه يعمل بفعل تحريضات تأتيه من خارجه ، ويدخل في سلسلة قاسية من الأسباب والنتائج ، وهو منسق لأنه يسعى جهده لتكوين الذوات الاجتماعية أو إعادة تكوينها ، وهو أخيراً مجدد لأنه ينمو في سياق غير منتظر إلى حد بعيد .

بهذا المعنى نستطيع القول ، حسب مصطلح عاطفى لايخلو على كل حال من التأثير في الوقائع ، إن هذا التحرر يحقق تقدماً واسعاً للحرية الإنسانية نرجو أن يكون حاسماً .

غير أن هذا التقدم يمكن أن يكون أيضاً تقدماً في التساؤل مما يجعلنى أقف أمامه حائراً قائلاً : أهو تقدم في التناقض ؟

إذا كان هناك مكسب يرتجى من التحرر العالمى فهو الاعتراف بتنوع العالم، وبالتعددية الحضارية والكرامة الأساسية لثقافاته وأجناسه المختلفة وما كان بالأمس القريب مجرد أمنية شعورية ، أو ملتمساً فلسفياً ، يمكن أن يكون اليوم حقيقة ثابتة . وأفضل من ذلك ، من الناحية النظرية ، أن تعدد الأنظمة التى يكشف عنها البحث ، تاريخية كانت أو ثقافية أو وجودية، تمنح المصير الإنساني مروحة من الممكنات . ولكن ماتجب ملاحظته مع ذلك هو أن الإمكان الوحيد المطروح في الواقع ، وحتى الذى تطالب به الشعوب ، هو التقدم الصناعى ، غير أنه مرهون حتى الآن بمراكز انتشاره، ومن المفارقة أن نكشف وأن نتقبل - وربما للمرة الأولى - المساواة التامة بين الحضارات المختلفة في الوقت الذى تلتزم أكثريتها نماذج أقليتها . فالتشابه ، أو بتعبير أصح ، التشبّه المضر هو الذى يتحقق لبعضها مع البعض يتزايد في زمان حركات الاستقلال أكثر مما كان عليه في زمان الإمبراطوريات .

غير أن ظاهرة كهذه قد تستحب لضرورة ملموسة ، وهى من بعض النواحى محمودة ، لأنها تشيع الأمل وتعمم الوسائل الكفيلة بتحقيقه . وإن بداهة التوْق وانتشاره في كل مكان يعتبران من الحق العام ، سواء تعلق الأمر بالرفاهية أو برفع مستوى المعيشة أو بالصراع ضد ما يسميه العرب بالثالوث المشئوم : الفقر والجهل والمرض . وبالإمكان التفاهم حول عمليات أساسية Pedagogies de Base تنشر وصفات أولية وتستهدف نتائج يمكن إدراكها للجميع بدون مراعاة الاختلافات العقائدية ، لأنه يبرز

عن التعارض التام للعقائد المتصارعة في العالم بعض الأهداف المشتركة كزيادة الإنتاج وانخفاض سعر التكلفة ، ومحاولات التحكم بتقابلات الجهود القطاعية واستعمال نماذج عملية ومعايير رياضية . . الخ وبهذا تهتم الأبحاث العالمية وتزداد تخصصاً واقتناعاً بعمومية القوانين إن لم يكن بشمول تطبيقاتها وبحتمية أحكامها .

ولكن المناهج المجلوبة من الخارج كثيراً ما تفشل في الميدان، فيرى المتخصص تشككا — لافي صحة توصياته فحسب ، فهذا ما يمكن أن يتقبله - بل بقيمة نماذجه أو بقيمة النظرية ذاتها ، يقابل ذلك أن عالم الأنثروبولوجيا وعالم الاجتماع يلحظان مراراً رفض التنوع الذى يحاولان إدخاله في المعلومات العامة ، وكذلك رفض المعالجة الموحدة التى يخضعان لها هذه المعلومات، فتأويل هذا التناقض يجب ألا يقف عند هذا الحد ، فهو في الواقع يستطيع أن يفضى ، كما نظن ، إلى فهم أفضل للتحرر العالمى ولدراسته العلمية .

إن الواقع المشاهد الآن وليد الاستعمار في الماضى القريب ووليد التحرر في الوقت المعاصر ، والصراع ينتهى ويبقى ، كالعلاقات الاجتماعية والذهنية التى يغذيها ، وكأنماط التحليل التى كانت - أو هى عادة - تطبق عليه مشكّلاً بتاريخ يبتعد عن مركزه ابتداء من منشأ الحضارة الصناعية . لهذا تميل الشعوب التى تتحرر إلى وضع الأساسى من تاريخيتها في أشد مناطق ذاتيتها نشاطاً ، أى في المناطق المنطلقة من كيانها الإقليمى والاجتماعى والنفسى التى تتفاعل إيجابياً وسلبياً مع تحدى الخارج . وها نحن هنا نراها بأنفسنا ، ولكن هذه المناطق مهما كان النفاذ إليها عميقاً ، ومهما كان دورها مهماً ، فليست إلا محيطية بالنسبة للاستمرارات الداخلية ، وليس التحرر الحقيقى غير ظهور ، بل انفجار ، تلك القواعد على مستوى التاريخ الحى . غير أننا نرد - أكثر مما ينبغي - صيرورة المجتمعات إلى سرد تاريخى ميكانيكى، ونترك جانباً ما يمكننا تسميته بديموماتها الداخلية . إن هذه الأخيرة ترتبط بمواقف وعواطف ونظم كان الاحتكاك مع ما هو خارجى لم يصل إليها ،

أو بتعبير أصح لم يغيرها تغييراً أساسياً . إن هذه القواعد من الكيان الاجتماعى كثيراً ما لم يتكفل بها الفعل الواعى ، ولكنه جهلها أو أهملها باعتبارها منوطة بأمور وأحكام اجتماعية خالية من البساطة ومن الوضوح ، وحتى من التسلسلات الثابتة التى يرضى عنها العلم الوضعى ، وهاهى مع ذلك تعمل فى الكثير من الميادين إما إيجابياً بالطاقات التى تمنحها المقاومة أو سلبياً بالفشل الذى يحكم بها على كل من يزعم تجنبها سواء أكان خبيراً أجنبياً أو عاملاً وطنياً ، ولكن الاعتراف بقوتها لايعنى طبعاً فهمها وتصويبها ، ومن هنا كان الكثير من التأكيدات أو الإنكارات محمولة عليها فالتبس العديد من التطورات فى العالم الجديد .

إن المطالبة « بالطرق الخاصة » فى المشروعات القومية أو المذاهب العقائدية يمكن أن تصبح إحداهما مجرد رفض للأخرى وتشكل مظهراً من مظاهر التخلى عن العالمية . إن هذه الملامح التى لم تتوقعها الجامعة تدهشنا بعض الشئ أينما وجدت وحيثما ظهرت ، ولكن ظهورها فى مرحلة التحرر تدفع بنا إلى الرجوع إلى صميم المجتمعات التى ربما كان قد حجبها عن العيون الخصومة الفكرية والتأثر من طرف واحد . إن أولوية ماهو علائقى relationnel لايقع فى تحليلاتنا فحسب ، بل فى التعبير الذى تقدمه هذه الشعوب عن نفسها ، وقد لايترتب عليها آنذاك إلا ماهو ناتج عن أولوية المبادرة الآتية من الخارج بينما يكون الدرس الذى تلقيناه من غير زماننا يظهر ثبات الشخصية الجماعية وتحركها من الداخل .

على أن هذه المجتمعات ليست بشخصيات رومانتيكية مزودة « بعبقرية » ما ، وهى ليست أيضاً بالكيانات المتحررة التى تتذرع بها أحياناً المغالاة الجماعية ، إنها تأتى من التاريخ ، وتتغير بما تقتضيه ظروف هذا التاريخ هذا هو معنى التحرر فى مشروعنا كما هو فى الواقع ، ولكن التاريخ المقصود هنا ما كان ، ولم يكن فقط تاريخ منازعة مع الخارج طابعها الإيجابى الخلق وطابعها السلبى الهدم ، فهى مهما كان عنفها ومداها لم تغير الشخصية الأساسية إلا إلى حد محدود ، ففى الأحوال التاريخية الاستعمارية المغرقة فى ضراوتها لم تتفتت الهوية القومية أو تنمحى ، بل كانت تتفجر على

شكل صراعات من أجل التحرر ، باحثة في الاستقلال عن ذاتها بفضل مكتسبات المرحلة السابقة وعلى الرغم منها .

نستطيع إذن أن نتساءل عما إذا كان التاريخ الحقيقى ، تاريخ هذا البحث عن الذات ومقاوماته ومصالحاته مع العالم الخارجى ،لايضع نفسه على مستوى دون أهميته وفعاليته ظهوراً ، مستوى الكوامن أكثر منه مستوى الظواهر ، مستوى الاحتماءات قبل أن يكون مستوى التلاؤمات . إذا صح ذلك فإن إحراز الاستقلال الذى يعتبر ذروة الصراع العلائقى قد يكون قبل كل شئ — كما يمكن لعالم المنطق أن يسميه — استعادة المحمول **restitution du predicat** ، ومن الممكن أن يقال بهذا الخصوص إن مستقبل الشعوب المتحررة يتعلق بالكيفية التى تجيب أو ستجيب بها — عملياً ونظرياً — على هذا السؤال الخطير المزعج : من كنت ؟ أو بالأحرى : من ساكون ؟ وعلى الباحث طبعاً أن يوافق هذه الشعوب على سؤالها الذى يبعث على التحير ، لقد صدرت من ذلك نتائج نظرية وعملية مهمة مما هيأ لنا برنامجاً حياً للدراسة والبحث .

إن الأهمية الخاصة للمعرفة وللفعل ، التى كثيراً ما كنا نوليها للمحيط الزاخر بالنشاط دون سواه ، ونعنى به محيط التحولات المفروضة أو المتقبلة ، ينبغى لها أن ترجع من جديد إلى الهوية التى أثرت فيها هذه التحولات ، وبما أن هذه الهوية ليست مما يدخل في مفهوم ما وراء الطبيعة **metaphysique** بحال من الأحوال ، بل ترجع إلى أحكام وصفية تخضع لأحكام البحث الموضوعى ، فإن الدراسة تستطيع معالجتها من ثلاث وجهات نظر متكاملة :

أولاً : إعطاء عناية مجددة إلى تبادل الأثر بين الجماعة والبيئة ، فالسببيات والرموز ترتبط الواحدة منهما بالأخرى بطريقة تتفاوت بين اللزوم أو الارتخاء ، وبين التحرك أو السكون . وإن نضالات التحرر وما ينتج عنها من سعى لإعادة الكيان الجماعى تبرز — بعمق أشد مما كان يعترف

به حتى الآن — التكيف المتبادل بين الطبيعة والثقافة باعتباره مقياساً لحيوية المجتمع .

ثانياً : إنه في الوقت الحاضر يبرز كفاح البناء الوطنى أصالات قوية يبدو أنها توازن ضغط التأثيرات العالمية باندفاعة معوضة لما هو موزون ، وجور الأوضاع التاريخية بالالتجاء إلى ما هو أولى ، وهكذا تفسر الخاصية المتناهية للأجناس والثقافات وحتى للقيم القومية التى يدعمها توسع « المجموعات الكبرى» التى كان يبدو من واجبها إلغاؤها . وهذا يفسر أيضاً التباس الظاهرة والآفاق التى تفتحها على عقلانية عالمية يجب أن تتوفر لها الحماية من التهديدات المنبعثة بلا انقطاع مما هو لاعقلاني .

ثالثاً : إنه لابد من اكتشاف الأفعال والرموز التى تحقق للمجتمع شخصيته المتميزة وتسمح له بأن يراقب — إلى درجة ما — تطوره المقبل .

إن العناصر المتنافرة المتباينة التى يكوّن تمازجها كل حياة جماعية كثيرة عديدة ، مثل عناصر الإجابة للغير ، وعناصر التوكيد بالذات ، منها ما هو شعورى ، وما هو واع ، وما هو بدائي وما هو راق ، وما هو تلقائي ، وماهو مدبر ، والتراث الداخلى والتأثر بالدخيل ! ! إلى أى مدى تندمج هذه العناصر في تنظيمات فعالة وتكتمل في الحقيقة ؟ إذا كانت هذه هى المشكلة لأبحاثنا فإنها تستدعى تجديداً للطريقة وللأدوات . وقد يكون ذلك في هذا المقام الانعكاس الوقائعى على الصعيد الدراسى في عودة هذه الشعوب إلى مسئوليتها ، فلم يعد الأمر كما كان في قديم الزمان متعلقاً بمجرد ملامح متفرقة تُنعت بالترسبات أو الإضافات ، بالقدم أو التغير ، وإنما باستقصاء نمط ترتيبها المتبادل ، ودرجات تنسيقها الداخلى ، ويتفاوت هذا التنسيق قوة وقابلية للنجاح بالقدر الذى يحقق فيه المجتمع ذاته وبالقدر الدى يغير فيه كيان هذه الملامح ويكتشفها من جديد ، أى بالقدر ذاته وبالقدر الذى يجعل فيه نفسه في عالم الغد .

من الطبيعى أن العالم يسير ويتحرك من حول المجتمعات النامية ، وعليها أن تأخذ ذلك في حسبانها لئلا تبتعد عن قريناتها ، وهى تتنبه أيضاً إلى

أن التاريخ لا يتحول عنها أبداً ، وإن ما يجب أن نتطلبه منه ليس الانزواء والسكون بل فتح ميدان لمعارك جديدة وتجدد مستمر .

إن تجدد تلك المساعى لن يتحقق في النهاية إلا إذا كان مستنداً إلى محاورة خلاقة بين الشخصية الجماعية ومرتكزها المادى . غير أن ذلك لا يعنى العودة إلى التصميمات الباردة والتطبيقات المبتذلة . والأمر لهذه الشعوب لا يتعلق فقط بالتقدم الجزئي ولكن بالوجود الكامل ، فالتخطيط بالنسبة لها ليس أداة اقتصادية فحسب ، بل هو أسلوب تنسيقى وطريق إلى التجمع والتجدد الذاتي . والمعنى الحقيقى لمثل تلك المجهودات هو فتح مجال جديد للاتصالات التى كانت منفصمة بين ثقافة هذه الشعوب وطبيعتها ، وحينئذ يجوز القول بأن كل مجتمع متجدد يسعى إلى إعادة نفسه أى إلى تثقيف طبيعته وتطبيع ثقافته .

إن صح ذلك فعلى علم الاجتماع إذا أراد أن يتتبع تطور العالم الحالى أن يكون تاريخياً بالمعنى الأكمل ، وسيكون أيضاً — ولنغامر بالتعبير — طبيعياً لأن واجبه استقصاء التفاعلات الجديدة بين المجتمع المتكون وقواعدها الأولية . إنه سيتجاوز ذلك في بحثه إلى المساعى التنظيمية والتعبيرية التى تحقق المجتمع ككل ، ولا يهمل الرياضيات ولا الانفعالات ، ويهتم بالتطابقات الأولية التى تجمع بين التنظيم الإنساني وتنظيم الكون ، ويهتم في نفس الوقت بالإدارة الجماعية التى تؤثر على تلك التطابقات أو تغيرها أو تبنيها من جديد .

إن هذا الهدف العلمى الذى لا يرتبط عادة بمشروع أكاديمى يحدد لدراستنا أكثر المطامع خطورة بل أشد الأعمال صعوبة وربما أعظمها خطراً .

بعد تحديد المهمة العلمية على هذا النحو ، لا بأس من أن نبسط أبعادها « لا يتوبيا » L'utopie حتى نستطيع أن نحسن تناولها ، إذ أن ما يفرض علينا ليس مجرد منهج علمى فحسب ، بل إنه الود والالتزام ، وأوشك أن أقول إنها عاطفة نتقاسمها مع الواقع ذاته . إن صيرورة العالم التى تستحثنا والتى نبحث عن تفهم كنهها تستدعى لقاءات بين الفعل والشعور ، وبين المعرفة والأحلام دون أن تكون الصلة بين هذه الأنماط المختلفة ليست دائماً كاملة الوضوح بينة المستوى ، فالتحرر من الاستعمار — شأن كل مغامرة

إنسانية كبرى — يجرى على مستويات كثيرة التنوع ابتداء من الانبثاق الغريزى إلى أكثر المخططات إحكاماً . وذلك يجعلنا نتساءل : هل باستطاعتنا التأكيد على أن هذه الظاهرة قد أثارت حتى الآن عند كل من الفريقين اللذين يعيشانها أو يحرمانها رؤية عريضة تتكافأ مع القدر الكبير من رحابتها ؟ هذه الرحابة التى يمكن تسميتها بالأنثروبولوجيا ، لأنها بتهجماتها ومرتجياتها على مستويات كبيرة تتجاوز التاريخ نفسه . إلا أننا نعود فنقرر أننا نخضع هذا التعديل المتبادل بين الإنسان والكوكب الأرضى إلى ضيق أفقنا . وكما أن قيم الثورة الفرنسية كان ينبغى لها أن تبدو وكأنها متجاوزة كثيراً أفكار اليعاقبة وحتى تجرؤاتهم ، وألا نجد ما يعادلها فى الميدان الفكرى إلا فى إعادة النظرة الأساسية للفلسفة الرومانتيكية الألمانية ، كذلك نستطيع أن نفترض بأن عقيدة ما (أيدويولوجيا) أو علماً اجتماعياً يتناول الظواهر العالية المعاصرة ما زالا حتى الآن بعيدين عن استغراق الواقع الذى يستهدفانه ، ولكن فى استطاعتهما أن يطمحا فى الغد القريب إلى مطابقة أفضل من المرحلة الحالية .

وفى أيامنا هذه ، وكنوع من الجزاء — حسب تعبير فشته — قد يولد إطار فلسفى جديد لجمع كبير للإنسان فى العالم ، وإن كنا بعيدين كثيراً عن تحقيق هذا الهدف ، ولكن هذا النقص النسبى ، أو بالأحرى هذا القصور فى التفسير يجب ألا يدهشنا ، لأن الواقع الذى نتوق إلى فهمه ليس فى نطاق الإنجاز فقط ، بل إنه عدم الإنجاز ذاته . إن التحرر — من وجهة النظر هذه — يحكم بالتكذيب الصارخ على كل تعاليم الاكتفاء . إن تحرر شعب ما معناه انعدام الرضى عن طرف آخر ، والسير بنقمته البناءة حتى نتائجها النهائية ، فالمضمون الاقتصادى والبناء المادى اللذان يستطيعان وحدهما تدعيم مجهودات المجموع يدفعان بدورهما الشعب المتحرر إلى مساومات الحضارة الصناعية وتناقضاتها ، تلك الحضارة التى تسىء عالميتها فى تغطية تفاوتاتها ، والتى لا تنفى علاقات القوة والتوسعات الوحيدة الطرف . حينئذ فقط يتكشف الهدف الحقيقى ، إن حتمية الحضارة الصناعية الممكن توحيدها قليلاً أو كثيراً مع حتمية العقل التاريخى وحتمية الاستعانة بالآلات ، هذه

الحتمية هل يكفى فقط التكفل بها بعد أن جرى تحملها ، أفما ينبغى أن يضاف إليها حتميات أخرى جديدة أو مجددة تكون خاصة بهذا المجتمع .

وعلى كل حال فإن عدم الاكتفاء وعدم الأطمئنان ليسا الأستثناء بل هما القاعدة ، لأن هذه التجديدات تتضمن حواراً خطيراً بين القومى والعالمى وبين التاريخى والأصولى ، أما الحوار فيحمل في ثناياه معنى المغامرة ، وأما النتائج فأمرها يحتوى الألتباس والغموض : هل ينبغى أن نعود إلى البديهيات التشاؤمية وإلى النظرة الكئيبة التى تجعل من كل تحقيق ضرباً من الإغراب ، وقد تكون الخيبة على قدر الأمل ، ومن الأفضل ، إذا جاز القول ، أن يكون الجهد خطاً مقارباً Asymptote كذلك الخط الذى يميل نحو خط آخر دون أن يلتقى به إلى الأبد ، ومن الممكن القول عن المحاولة البطولية كجوقة فوست الثاني : لقد كرست جهدك من أجل هدف سام ، ولكنك لم تصبه ، فمن سيصيبه إذن ؟ إنه لسؤال مقلق ، أمامه يتقنع القدر . . . . .

ومع ذلك قد يكون التوسل إلى القدر مستغرباً عندما يتعلق الأمر بأعنف وأصدق جهد بذله الإنسان حتى الآن لتحطيم أغلال الضعف والبؤس واللون . ولكن ليس من قبيل المصادفة أن أستحضر هذه الغنائية البروماتية Promatheen أو ليست تلك الغنائية نفسها هى التى تذكى فعالية هذه الشعوب لإعادة تثبيت ذاتها على وجه كوكب صائر بدونها إلى تشابه عقيم ، ولبناء واقع أسمى بفضل قوانين الواقع وعلى الرغم منها .

إن اندفاعة كهذه ، جامعة بين السخط والتقدير ، مترددة ما بين الأشياء والعقل ، محققة عظمة الإنسان وضعفه ، مجندة مأساته وسخريته ، وذلك ضمن طلاطم المناظر والعصور وتصادم الأصوات والألوان ، هذه الاندفاعة قد يكون باستطاعتها أن تنشر رومانتيكية جديدة في العالم . على هذا النهج تناسقت اللهجة التى يتخذها أصلاً وبصورة تلقائية كثير من هذه الأفعال والأقوال ، ويصح ذلك على دفتر العودة إلى مسقط الرأس ، كما يصح على بناء السدود العليا ، لا ، ليس ذلك بالعصر المتوسط الجديد الذى بشر به بردياثيف Berdiaeff الذى يعمل التحرر العالمى على إظهاره ، وإنما

هو عهد جديد للإنسان الذى يتكفل بنفسه في صراعه مع الأقدار التى لم تعد فقط أقدار التقاليد ، بل أقدار الألكترونيك l'elcctronique ووسائل الإعلام الكبرى .

إذا فطن الباحث لرؤية كهذه ، فهل في ذلك بُعد عن الواقع ؟ قد لا يستطيع — والحق يقال — أن يفعل غير ذلك ، لأن ما يجده أخيراً في أمل العالم ومعركته هو أمله الخاص ومعركته الذاتية . إن البحث الذى لا يفى دوماً بالإنجاز رغم مضيه صُعداً ، وإن التناقضات المزمع اعتلاؤها ، والتمزق الذى يحمل الوعى ، وحتى هذه المقاومة التى تبديها الكائنات والأشياء — لا عجز المقصد الإنساني وسيادته — كل ذلك يميز المسلك الخاص للباحث وللتاريخ الذى نطمح إلى خدمته . فالباحث إذن يثير تناسبات بين صيرورة العالم وبين بحثه ونزعته الفردية ، ولكن أليس في ذلك ما ينافى الرصانة في حياته والموضوعية في بحثه .

إن هذا الالتزام الذى تصدم به عادة مناهج العمل الأكاديمى قد يكون هو التعبير عن إحدى سمات هذا الواقع المتحرك ، وعلة استشهادنا بفوست Faust ليعود بنا إلى الرومانتيكية الأولى وقت أن قصرت أوربا عن العلم ، لقد قصرت عنه لأنها انفصمت في ذاتها على حسابها وعلى حساب الآخرين . إن المصادفات التفاؤلية لجيل الأنوار كقلاع الحضارة الصناعية والاكتشاف الجغرافي للبسيطة ، وابتداع غنائية جديدة ، بيد أن هذا الوصل الذى كان من الممكن أن يُعطى إنسانية عالمية كاملة سرعان ما تفكك ، فالتكنيك جاء بالرأسمالية ، والتوسع الجغرافي أصبح استعماراً ، والشعر صار نائحة التاريخ .

ولكن العالم اليوم يستطيع أن يحقق بنجاح ما أخفقت فيه أوربا ، ولقد أمكن القول لواحد من أصدقائي في وقت من الأوقات إن الجزائرى ليس إنساناً منفرداً ، فلنفهم ذلك وكأنه صرخة الأمل ، على أن الجانب الأكثر إيجابية من كل جوانب التحرر العالمى هو إعادة التوحيد الذاتي التى يحاول تحقيقها التحرر في الإنسان ، وفي المجتمع وفي العالم متجمعاً .

ويبدو أن جميع الظروف سوف تجبر العالم على ذلك وسوف يتحقق هذا الأمر ، ولسوف ينبغى له أن يوفق في ذاته وفي عموميته وعالميته ، وفي وشائجه التاريخية وأصالته الاجتماعية ، وأن يغترف المستقبل الملىء بالتعقل من أكثر ينابيعه غورا وثراء وتجرداً من مداومة الاستجواب للجميع .

حقاً ، هذا الكائن الذى يتشكل بين التجربة والعنف ، بين الحلم والواقع ، بين النجاح والإخفاق ، أليس هو في الطور الذى يعيد فيه الانسجام الكلى الذى كان الإنسان القديم قد فقد الأمل فيه ؟ ! !

استدراكات على رحلة التونسى إلى دارفور (*)(١)

المعروفة باسم

« تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان »

للأستاذ عبد العزيز عبد الحق حلمى

---

١ ــ مقــــدمة :

نشر الدكتوران : خليل محمود عساكر ، ومصطفى محمد مسعد في سنة ١٩٦٥ م رحلة الشيخ محمد بن عمر بن سليمان التونسى إلى دارفور التى أسماها : « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » . واعتمدا في تحقيق نصها العربي على الطبعة الحجرية التى كان المستشرق الفرنسى الدكتور أ . بيرون A. Perron قد نشرها في باريس في سنة ١٨٥٠ م ، وكان قبل ذلك قد ترجمها إلى الفرنسية ونشر الترجمة في سنة ١٨٤٥ م ، وراجع المحققان النص العربي على هذه الترجمة للاستيثاق من تقويمه . وأضافا من الحواشى ما رجعا فيه إلى مصادر مختلفة ، وخاصة ما يتعلق منها بدارفور ، وألحقا نشرتهما بطائفة من الرسوم والخوارط مما أدرجه بيرون في الترجمة الفرنسية وأدرج غالبيته في طبعته العربية للرحلة ، وزادا عليها خارطتين حديثتين إحداهما لشمال شرقي إفريقية والأخرى لدارفور لم يوضحا للأسف مقياس الرسم فيهما . وأضاف المحققان معجماً صغيراً للمفردات الفوراوية كان ف. جومار E. F. Jomard قد ضمّنه أواخر مقدمته التى صدر بها الترجمة الفرنسية للرحلة ، مع إيراد مقابلها في الفرنسية ، فترجمها المحققان إلى اللغة العربية كما ترجما لحقاً خاصاً بالأمير الفوراوى ، أبي مدين ومشروع محمد على

(*) محاضرة ألقيت بدار الجمعية مساء الاثنين ٢٢ من يناير سنة ١٩٦٨

(١) لم تتسع المجلة لنشر النص الكامل لهذه الاستدراكات واقتصر فيها على هذه المقتطفات .

لفتح دارفور ، كان بيرون قد ذيّل به ترجمته الفرنسية للرحلة . ثم أضاف المحققان ذيلاً جديداً نقلاه عما كتبه عن تاريخ دارفور نعوم شقير في كتابه «تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته» (القاهرة سنة ١٩٠٣ م) ، رغبة منهما في إمداد القارئ العربي بمصدر آخر عنها . ولم يفت المحققين أن يقوما بزيارة دارفور لمشاهدة معالمها والتحدث إلى أبنائها ومراجعة البيانات التي أوردها عنها التونسي في رحلته إبان مقامه بها في العِقْد الأول من القرن الماضي ، واستكمالاً للعناية بإخراج الرحلة قام بمراجعتها الدكتور محمد مصطفى زيادة .

ولقد اضطر المحققان في تقويم النص إلى الاعتماد على هذه الطبعة الحجرية وحدها التي نشرها بيرون في باريس في سنة ١٨٥٠ م . ذلك لأنه لم يُعْثَر على أصلها الذى دوّنه التونسي ، عندما اقترح عليه بيرون أن يجعل من مشاهداته وذكرياته عن البلاد السودانية التي زارها وأقام بها نحو عشر سنوات من سنة ١٨٠٣ م إلى سنة ١٨١٣ م ، وهي دارفور ووداى ، جزءاً من دروس اللغة العربية التي كان يتعلمها من مؤلفها إبان تزاملهما في العمل في مدرسة الطب في أبي زعبل ، حيث كان التونسي مصححاً للكتب العلمية المترجمة إلى اللغة العربية ، كما كان بيرون أستاذاً للمادة الطبية بها . وقد تزاملا مرة أخرى عندما رقي الأول كبيراً للمصححين والثاني ناظراً لمدرسة الطب عندما نقلت الأخيرة إلى قَصْر العيني .

وعلينا أن نأخذ في الاعتبار دائماً تلك الحقيقة الأساسية ، وهي اضطرار المحققين إلى الاعتماد على الطبعة الحجرية التي نشرها بيرون بخطه . فبيننا وبين النسخة الأصلية التي دوّنها التونسي تلك التي نشرها بيرون نقلاً عنها . ويحق لنا أن نتساءل : هل وفق بيرون في أن ينقل عن الأصل نقلاً صحيحاً ؟ أوَ كان مستواه في علوم اللغة العربية من حيث نحوها وصرفها وبلاغتها وعروضها وفقهها مما يعينه على أداء هذه المهمة على الوجه الأكمل ، على الرغم من أنه كان أجنبياً عنها ؟ لقد غاب ذلك عن المحققين ، إذ اعتقدا أن تلك النسخة الحجرية التي نشرها بيرون إنما تمثل تماماً الأصل الذى كتبه التونسي ، وقاما

أحياناً بتصويب الأخطاء مع التنبيه إلى ذلك فيما كتباه من الحواشي ، أو إثباتها كما هي مع الإشارة إليها في ذيل الصفحات بعبارة « : كذا في الأصل ». كما تركا عدد غير قليل منها دون تصويب إذ لم يتنبها إلى وجه الخطأ فيها ، وهي كلها مما يوحي للقارئ صدورها عن مؤلف الكتاب ، مع أنها بالنسبة إلى غالبيتها لاتصدر إلا عن مبتدئ أو شاد في علوم العربية ، لم يحصل منها إلا على صبابة يسيرة فكيف بِجَهْبَذٍ علاّمة كالتونسي كان الرائد الأول في مصر في تعريب المصطلحات الطبية والعلمية قبل إنشاء المجامع اللغوية في البلاد العربية ، كما كان محققاً لطبعتي مقامات الحريري والمستطرف للأبشيهي اللتين أخرجتهما مطبعة بولاق ، ومشرفاً على تحقيق القاموس المحيط للفيروز أبادي فضلاً عن ملكته في تذوق الشعر بل وفي نظمه ، كما يتجلى ذلك في الشواهد التي تمثّل بها والمقطعات التي جادت بها قريحته مما ساقه في ثنايا كتابه ، وسنعود إلى بيان هذه الأخطاء تفصيلاً فيما بعد .

٢ ــ مدى الاهتمام برحلة التونسي الى دارفور :

كانت الطبعة الحجرية للنص العربي لرحلة التونسي إلى دارفور التي ظهرت في باريس في سنة ١٨٥٠ م بالغة الندرة عزيزة المنال مما جعلها بالنسخ الخطية أشبه بدليل ماذكره جورج دوان في المجلد الثالث من تاريخ اسماعيل[١] من « أن الترجمة الفرنسية لرحلة الشيخ محمد التونسي وقعت في يد جعفر مظهر حكمدار السودان وذلك في سنة ١٨٦٧ م ، وأنه طلب من القاهرة أن يقوم رفاعة رافع الطهطاوي بإعادة ترجمتها إلى العربية إذا لم يسفر البحث عنها على العثور على أصلها العربي» . ومع ذلك فقد أتيح لعلي مبارك بعد هذا التاريخ بما يقرب من عشرين عاماً أي سنة ١٨٨٧ م أن يرجع إلى الطبعة الحجرية للنص العربي للرحلة بدليل مانقله عنها في الفصل الذي عقده عن الواحات في كتابه الخطط التوفيقية الجديدة فقد جاء في ص ٣٣ من الجزء السابع عشر من كتابه قوله : « ثم إني قد رأيت وصف بعض بلاد الواحات ووصف الطريق من ريف مصر إليها ومنها إلى بلاد دارفور في رحلة الشيخ

---

(١) الجزء الأول من الامبراطورية الافريقية (١٨٦٣ ــ ١٨٦٩ م) نشر الجمعية الجغرافية المصرية (بالفرنسية) القاهرة سنة ١٩٣٦ م ص ٣٢٠ .

محمد بن عمر التونسي وهي كتاب سماه : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ، فأحببت إيراد ذلك هنا لما فيه من الفائدة ، ثم عاد على مبارك بعد ذلك ونقل عن التونسي ترجمته لنفسه .

هذا ونجد إشارات مختلفة إلى التونسي ورحلاته في كتابات مؤرخي الآداب العربية والباحثين من أبناء البلاد العربية المشتغلين بالتاريخ الجغرافي مثل إسماعيل رأفت[1]، وتاريخ السودان مثل نعوم شقير[2] ولكن كتابات هؤلاء يتضح منها أنهم لم يطلعوا عليها على الرغم من إدراجهم لها بين المصادر التي رجعوا إليها . كما أن رحلات التونسي قلما تذكر في المؤلفات الإفرنجية الخاصة بتاريخ الكشوف الجغرافية الخاصة بإفريقية .

٣ ــ رحلات التونسي فى اطار حركة الكشف الجغرافى لافريقية :

لم يوضح المحققان في مقدمتهما لرحلة التونسي إلى دارفور قيمة مشاهدات التونسي في البلاد السودانية ، وتحديد منزلتها بالنسبة لما كتبه الرحالة الأوربيون في استكشافهم لمجاهل القارة الإفريقية في القرن الماضي . وقد قال جومار في تصديره للرحلة إلى دارفور : « لقد اتضح لى عند قراءتي لهذه الرحلة أنها ستضيف الكثير إلى مالدينا في الوقت الحاضر من معلومات (عن إفريقية) وأنها ستكون نعم العون لأولئك الذين سوف يعتزمون السياحة إلى ذلك البلد النائي الذى يمكن أن نعده مدخلاً إلى البلاد السودانية . » وقال في موضع آخر : إنه ليس من نافلة القول أن يحذّر القارئ مما يحدثه في نفسه الأسلوب الشرقي للمؤلف من الانطباعات ، فهو أسلوب أقرب إلى الكتابات التى تعتمد على الخيال ، ونظراً لأن كتب التاريخ والرحلات رائدها الأساسي هو تَوَخّي الحقيقة ، فإن أسلوب المؤلف قد يوحى للقارئ أن هذه الرحلة لاتخلو من المبالغة » . غير أن جومار أكد صدق مااشتملت عليه الرحلة من البيانات وأن « المؤلف إذا كان قد أخطأ في بعض ما أورده فقد صدر في ذلك عن

---

(١) التبيان فى تخطيط البلدان ج ١ القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ ص ٣٨٨
(٢) القاهرة سنة ١٩٠٣ م ج ١ ص ٧

حسن نيه ، فهو حين لايرى شيئاً بعيني رأسه لايتردد في أن يصرح لنا بذلك ، كما أنه يروى لنا ما يحكى له دون أن يؤكد لنا صحته » .

وقال بيرون في مقدمته بأنه كان عليه أن يستوثق من صحة البيانات التى أوردها التونسى في رحلتيه ، فرجع إلى عدد من أبناء كردفان ودارفور ووداى وأنه وجد دائماً في أقوالهم مطابقة تامة لما كتبه التونسى ، ولزيادة الاستيثاق سعى بيرون في الحصول على بيانات عن رحلات الإنجليز في البلاد السودانية ابتداء من سنة ١٨٢٢ م وقد تأكد لديه « أن التونسى لم يعرف شيئاً ألبتة عن كتابات كلابرتون Clapperton ودنهام Denham وأدني Oudney والأخوين Landers عندما دوّن رحلاته . ولم تكن لديه أية فكرة عن هؤلاء الرحالة الإنجليز ومشاهداتهم عندما وصف القبائل العديدة التى التقى بها وخبر التقاليد والعادات التى درجوا عليها وألم بتاريخ سلاطينها الذين اتصل بهم وقتاً طويلاً . . . ولابد من أن يكون المرء قد عاش مثل التونسى في هذه البلاد حتى يحصل على جميع هذه التفصيلات والدقائق التى أودعها كتابه . » .

وقد انتقد كل من بارت Barth وناختيجال Nachtigal رحلات التونسى بأنها لا تزودنا بمعلومات وثيقة عن البلاد التى زارها وذلك من النواحى الجغرافية والطبوغرافية والإحصائية والمتيورولوجية . وليس هذا نقداً جديداً فقد اعترف به كل من جومار وبيرون فيما كتباه من مقدمات لرحلتى التونسى بل أخذا عليه ميله إلى الإستطراد فيما لا يتصل بموضوع رحلاته . وانتقده آخرون بأن بياناته على الرغم من صحتها فإنها تفتقر إلى منهج منسق في البحث ويقول شتريك Streck محرر مادة التونسى في الموسوعة الإسلامية القديمة : « إن كتابات التونسى تعد مصدراً هاماً لدراسة الأحوال الإثنوغرافية والثقافية والسياسية لبلاد السودان التى زارها ، ولكنها مع ذلك لا تلقى سوى قليل من الإهتمام والتقدير » .

ومع ذلك فان رحلات التونسى تعتبر في نظرنا إضافة هامة للمعلومات الخاصة بإفريقية ، لايغض من قيمتها إغفال الأوروبيين لذكرها أو قلة تقديرهم لها . وهى بالنظر إلى ظروف تدوينها بالقاهرة يمكن أن نلحقها بالعصر الذى

أسهمت فيه مصر في حركة الكشف الجغرافي لإفريقية في القرن الماضي ، سواءً بتيسيرها للرحالة الأجانب القيام برحلاتهم بفضل توطيدها للأمن في ربوع البلاد التي هيمنت عليها أو فيما اضطلعت به من إرسال البعوث لكشف منابع النيل ، بيد أن تدوين التونسي لرحلاته كان ثمرة من ثمرات البيئة العلمية التي هيأتها مصر وأوجدت فيها تعاوناً وتزاملاً بين العلماء العرب والأجانب .

ومن جهة أخرى تعتبر رحلات التونسي حلقة متأخرة من حلقات الكتابات العربية عن إفريقية لأنها بها أشبه ، فهي تذكرنا بما كتبه الرحالة العرب القدامى الذين لم يقتصروا على إيراد ما أمكنهم إيراده من وصف للمعالم الجغرافية للبلاد التي جالوا في ربوعها ، بل كتبوا عن نظمها ووقائع تاريخها ومآثر أعلامها وعادات أهلها ومذاهبهم . وإذا صح ما قاله أحد المستشرقين من أن الجبرتي هو آخر من يمثل المؤرخين العرب في الكتابة طبقاً للتقاليد العربية في تدوين التاريخ ، فإن التونسي يمثل أيضاً آخر من كتب طبقاً لأساليب الرحالة العرب .

٤ ـ منهج للتعليق على رحلة التونسي الى دارفور :

جرت عادت أعلام الباحثين من محققي الكتب العربية من أبناء بلاد الشرق العربي ، وذلك في السنوات الأخيرة ، بأن يقوموا بالتعريف بأعلام الأشخاص والمؤلفات وغيرها مما يرد في النصوص التي يحققونها ، مع ذكر مواضع ورودها في المصادر العربية الأخرى ، كما يحرصون على تخريج الأحاديث وضبط النقول ونسبة الأشعار إلى قائليها وإثبات ما ورد منها في روايات مختلفة ، بالإضافة إلى استقصائهم شرح الألفاظ اللغوية . وهذه التعليقات التي يوشّون بها المؤلفات العربية القديمة في حواش ضافية تعتبر إحدى الخدمات المثلى لتجلية نصوصها . ومما يدعو إلى الإعجاب أن بعض المستشرقين اتبع هذه الطريقة فيما ترجموه أخيراً لعدد من الكتب العربية . ففي ترجمة سير هارولد جيب **H. Gibb** لرحلة ابن بطوطة إلى الإنجليزية نراه يثبت في الحواشي تراجم من يرد ذكرهم من الأعلام في النص يستقيها من معجمات التراجم العربية ، كما يتبع هذه الطريقة في بيان الأماكن التي

زارها ابن بطوطة بالرجوع إلى كتابات الرحالة والجغرافيين العرب ، وقد يرجع فيما يكتبه من الحواشي إلى مصادر غير عربية زيادة في تجلية النص . وسار على هذا النهج فرانز روزنتال F. Rosenthal في ترجمته الإنجليزية القيمة لمقدمة ابن خلدون .

ونظراً إلى أن رحلة التونسي إلى دارفور التي مضى على ظهور طبعتها الحجرية الأولى زهاء مائة وثماني عشرة سنة تعد من أسفار الرحلات العربية ، أودعها مؤلفها من الوقائع والأشعار وأسماء الأعلام والمؤلفات ما جعلها أقرب شبهاً بما دونه العرب قديماً في رحلاتهم ، فإنها في حاجة ماسة إلى مثل هذه التعليقات . ولم يفت المحققين أن يزودا النص بحواش عن أسماء القبائل والأماكن ، ويبدو أنهما قنعا بذلك فلم يوردا سوى النزر اليسير من التعليق على ما ورد في الرحلة ، كما يتضح من حاشيتهما على على باشا الأول صاحب تونس ، حيث أحالا القارىء على كتاب الخلاصة النقية في أمراء إفريقية لمحمد الباجي المسعودى ، وحددا له الصفحات للمراجعة . بيد أن كتابتهما لم تزد القارىء تعريفاً بعلى باشا هذا ، متى عاش ؟ ومتى توفي ؟ وماذا صنع في تونس ؟ ويتجلى ذلك أيضاً في حاشيتهما الموجزة عن ابن دريد . كما أشارا في ثبت المراجع إلى مقال أوريان A. Auriant عن أحمد أغا الزانتي الذى لم يطلعا عليه وبالتالى لم ينتفعا به للتعريف بذلك اليوناني المنتسب إلى المماليك الذى وفد على عبد الرحمن الرشيد سلطان دارفور وحاول اغتياله . وكان الفوراويون يطلقون عليه اسم : « زوانة كاشف » . وقد فصل جانباً من قصته الرحالة الإنجليزى وليم جورج برون[1] W. G. Browne . وكتابه من مراجع المحققين ، ولكنهما لم ينتفعا به أيضاً .

لقد أغفل المحققان أن يوردا من الحواشي المختلفة ما يوضح النص مثل التعليقات اللغوية والتاريخية وتراجم الأعلام وإيضاح ما ورد ذكره في الرحلة من المصنفات وما لم ينسب إلى قائله من الأشعار إلى آخر ما هنالك ،

---

(١) رحلات فى افريقية ومصر والشام ، لندن ١٧٩٩م ص ١٥٦ الى ص ١٥٨

وامتد هذا الإغفال إلى مقدمتى جومار وبيرون اللتين صَدّرا بها الترجمة الفرنسية لرحلة التونسى إلى دارفور ، وقد استمددنا منهما عدداً غير قليل من البيانات ، وكنا نود أن يوفر المحققان على القارىء عناء الرجوع إليهما لو أنهما ترجما على الأقل مختارات منهما وذلك بأن يثبتا ما يتصل منهما اتصالاً مباشراً بالرحلة ، وأن يُغفلا ما أفاض فيه جومار عن كشف منابع النيل ، وما كتبه بيرون عن الأجناس الإفريقية ودعوى التعاون بين الأفارقة والأوروبيين . أما ما أورده بيرون في مقدمته من نصائح قدمها للراغبين في استكشاف مجاهل إفريقية ، فمن الجائز إهماله أيضاً لبعده عن موضوع الرحلة . ويبدو أن المحققين قد خشيا من ترجمة هاتين المقدمتين لأنهما تزيدان في حجم الكتاب بما يؤدى إلى تقسيمه إلى مجلدين . بيد أنهما لو عمدا إلى اختصارهما كما أوضحنا ، ووفّرا الحيز الذى شغلاه في تصويب الأخطاء التى نسباها ظلماً إلى التونسى ، وهى في حقيقتها قد صدرت عن بيرون ، لكان من الميسور إثبات جانب من هاتين المقدمتين ، ذلك لأنا نرى أن رحلتى التونسى يرجع الفضل في تدوينهما ونشرهما إلى كل من المؤلف والمترجم ، مضافاً إليهما جومار الذى عُنى بتحريرهما والإنفاق على نشرهما والفضل يتقاسمونه على هذا الترتيب . ومن الواجب الوفاء بحق هؤلاء جميعاً عند العمل على إحياء هاتين الرحلتين بعد انقضاء أكثر من قرن من الزمان صدورهما .

أما الحواشى التى أدرجها بيرون في ترجمته لرحلة دارفور سواء في ذيل الصفحات أو فيما ألحقه بالرحلة تحت عنوان : مذكرات وإيضاحات فأكثرها يتعين ترجمته وإثباته . وعلينا أن ننظر في تعليقات بيرون التى رمز إليها بحرف P وهو الحرف الأول من إسمه . إن قُصِد بها تبصير القارىء الأوروبى بما استغلق عليه فهمه ولكنه واضح للقارىء العربي ، فهذا لابأس من إغفاله . أما الشروح الإضافية التى تزيد المتن إيضاحاً ، أو التى تمد القارىء بمعلومات جديدة ليست واردة في النص ، فهذه يتعين ترجمتها ولا سيما إذا كانت مذيلة بهذه العبارة وهى : « مذكرة من الشيخ » أو« كما

جاء في الإيضاح الشفوى من الشيخ » . فهذا النوع من الإيضاحات المستقاة شفوياً من التونسى يجب أن تُعَدّ جزءاً لايتجزأ من النص العربى لرحلته . ولذا فقد كان من واجب المحققين أن يترجماها إلى العربية وأن يذيلا بها صفحات كتاب التونسى ، ذلك لأن بيرون قَصَّر في إضافة هذه الإيضاحات لطبعته الحجرية للنص العربى للرحلة وآ ثر بها ترجمته الفرنسية .

٥ — التعليقات التى كان يحسن بالمحققين أن يضيفاها لرحلة التونسى الى دارفور :

١ — درب الأربعين : أورد على مبارك في خططه (ج ١٧ ص ٣١ : ٣٣) بيانات عن درب الأربعين الذى سلكه التونسى في رحلته إلى دارفور تزيد على ما كتبه برون Browne في رحلته إليها وما كتبه شو Shaw في مجلة S.N.R. ولا شك أن المحققين كان بوسعهما أن يفيدا من تلك البيانات في كتابة حواش أفضل مما كتباه تي ص ٤٩ وينطبق هذا أيضاً على ما كتبه الرحالة الإنجليزى ج. ا . هوسكنز G. A. Hoskins في كتابه : زيارة للواحات الكبرى في صحراء ليبيا (لندن سنة ١٨٣٧م ص ١٤٨ : ١٦٠) وعلى ما كتبه الكونت إسـكايراك دى لوتور Escayrac de Lauture عن طرق التجارة السودانية في كتابه : الصحراء والسودان (باريس سنة ١٨٥٣ م ص ٥٥٧ : ٥٨٥) .

٢ — ابن دريد : تمثل التونسى في ص ٥ من التحقيق ببيت من الشعر من مقصورة إبن دريد أخطأ بيرون في إيراده ، إذ كتبه خالياً من واو العطف في مطلعه مما يؤدى إلى كسر وزنه ، وجاراه المحققان في هذا الخطأ وهو كما جاء في المقصورة الدريدية التى نشرت بمطبعة الجوائب بالاستانة (سنة ١٣٠٠ هـ ص ١١٥) :

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وأورد المحققان ترجمة موجزة لابن دريد لم يشيرا فيها إلى مظانها ولا إلى منزلته في اللغة والأدب . وقد ترجم له ابن خلكان في وفياته كما ترجم له

ياقوت في معجم الأدباء وذكر ما قيل فيه بأنه كان : « أشعر العلماء وأعلم الشعراء » ومن أشهر مؤلفاته الجمهرة والاشتقاق .

٣ — الوَرْغى : أورد التونسى في ص ٢٣ و٢٤ ثلاثة أبيات للورغى ولم يحقق ناشرا الرحلة نسبة قائلها إلى وَرْغة كما لم يترجما له ، وا كتفيا بالقول بأنهما نقلا ضبط كلمة ورغة عن ترجمة بيرون الفرنسية للرحلة . وورغة هى ناحية قريبة من بلدة الكاف شمال غربي تونس وكتب عن هذا الشاعر محمود أصلان في الفصل الذى كتبه تحت عنوان : نظرة عامة إلى الأدب التونسى وذلك في المجلد الخاص بتونس في الموسوعة الفرنسية المسماة بالموسوعة الاستعمارية والبحرية (باريس سنة ١٩٤٨ م ص ٤٨٠ : ٤٨٦) والذى جاء فيه ما ترجمته أن الورغى من إقليم ورغة قرب الكاف كان شاعراً بالغ الرّقة في شعره كما كان ناثراً موهوباً . وقد اتصل بخدمة الوالى على باشا ، ونظم في مدحه من القصائد ما سارت به الركبان في أرجاء البلاد التونسية كافة » . كما ترجم له صاحب شجرة النور الزكية[1] حيث وصفه بأنه « عالم تونس المحقق وشاعرها المفلق ، الكاتب البليغ نشأ في ا كتساب العلم وطلب الأدب حتى صار إماماً فيه ، له ديوان اشتمل على نظمه الرائق ونثره الفائق ، شاهدٌ بنبله وقوة عارضته وفضله ، توفي سنة ١١٩٠ هـ » .

٤ — الشيخ ابراهيم الرياحى : أشار إليه التونسى بقوله : «شيخنا وشيخ المشايخ الآن بتونس » . ولم يترجم له المحققان لتعريف القارئ به ، وكان لايزال على قيد الحياة عندما دون التونسى رحلتيه السودانيتين فيما بين سنتى ١٨٣٥ و ١٨٤١م ، أورد له مخلوف[2] ترجمة ضافية جاء فيها أنه ولد سنة ١١٨٠ ه وتوفي سنة ١٢٦٦ ه (١٨٤٩ م) كان من أعلام علماء تونس

---

(١) لمحمد بن محمد مخلوف ، المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٩ هـ ص ٣٤٨ رقم ١٣٨٤

(٢) شجرة النور الزكية ، القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ ص ٣٨٦ : ٣٨٩ رقم ١٥٥٥

ورئيس مفتيها وإمامها وخطيبها بالجامع الأعظم، اجتمع بأعلام الإسكندرية والحرمين له ديوان خطب وديوان شعر ومؤلفات فقهية وصوفية .

٥ ــ الشيخ على الدرويش : استشهد التونسى بأبيات له لم يرجع ناشراً الرحلة في تحقيقها إلى ديوانه الذى نشره تلميذه مصطفى النجارى وطبعه طبعة حجرية في القاهرة في سنة ١٢٨٤ هـ ، ولم يورد المحققان حاشية موجزة في ترجمته . وقد ولد الدرويش في القاهرة في سنة ١٢١١ هـ وتوفي سنة ١٢٧٠ وكان يعرف بشاعر عباس الأول والى مصر، ترجم له السندوبي في كتابه أعيان البيان وأورد نبذاً من نثره وشعره .

٦ ــ الشيخ محمد شهاب الدين : ذكر التونسى التاريخ الشعرى لمحمد شهاب الدين المصرى في السبيل الذى أنشأه محمود أفندى بالمحروسة، وبالرجوع إلى ديوانه[1] وجدنا بيتين آخرين بين ما أورده التونسى وهما : وانظر إلى رونق راقت محاسنه ــ وطالع العز والإقبال مسعود ـ شادته ، أيدى فريد لا نظير له ــ أخلاقه البر والإحسان والجود .هذا وصدر البيت الأخير ورد في الديوان برواية مخالفة لما أورده التونسى[2] ولم يكتب المحققان حاشية موجزة عن هذا الشاعر الذى ولد بمكة سنة ١٢١٠ هـ وتوفي بالقاهرة سنة ١٢٧٤ هـ وهى السنة التى توفي فيها التونسى ، ترجم له السندوبي في كتابه أعيان البيان وأورد نبذاً من شعره وثبتاً بمؤلفاته .

٧ ــ الحسن محمد المهلبي : تمثل التونسى بأبيات له عدها بيرون في طبعته من بحر الهزج وأصلحها المحققان بأنها من الوافر ومن الثابت أن التونسى لايخطئ مثل هذا الخطأ وقد أضاف بيرون إلى خلطه في بحور الشعر خطأ آخر في النحو إذ كتب في صدر البيت الأول « ألاموتاً » . وكان يحسن بالمحققين أن يكتبا حاشية موجزة عن المهلبي الذى وزر لمعز الدولة البويهى في سنة ٣٣٩ هـ

---

(١) القاهرة سنة ١٢٧٧ هـ ص ٢٤٥ و ٢٤٦

(٢) صدر البيت الأخير فى ص ٢٤٦ من الديوان : « وهاتفات المنى قالت مؤرخة » . وفى رواية التونسى : وانظر الى حسنه والسعد أَرَّخَهُ .

وقد ترجم له ابن خلكان وذكر قصة الأبيات الأربعة التي ارتجلها عندما كان يعاني شدة عظيمة . وهي بطولها في الوفيات ورواية ابن خلكان للبيت الذي صدره : «ألا رَحِمَ المهيمن نَفس حر أجود من رواية التونسي ، هذا وقد توفي المهلبي في سنة ٣٥٢ هـ .

٨ ـ محمد بن نصر الدين بن عُنَين : ذكر التونسي هذا البيت :

لقد خانت الأيام فيك فقربت يوم الردى من ليلة الميلاد

ولم ينسبه لقائله وذكر الصفدي في شرحه على لامية العجم أنه لابن عُنين المتوفي سنة ٦٣٠ هـ ، ترجم له ابن خلكان ، وذكر المحققان أن عَجُز البيت من الرجز وصحته من الطويل كما في الأصل .

٩ ـ شهاب الدين العزازي : أورد التونسي بيتين من الشعر أولهما : عجباً لمولود قضى من قبل أن يقضي لأيام الصبا ميقاتا . ولم يذكر قائلهما وقد أوردهما الصفدي في شرحه على لامية العجم وبينهما بيت ثالث وذكر أن هذه الأبيات من نظم شهاب الدين العزازي الذي ترجم له ابن شاكر في فوات الوفيات وقال بأنه توفي سنة ٧١٠ هـ كما ترجم له ابن تغري بردي في المنهل الصافي (جاص ٣٤٠ : ٣٥٢)

١٠ ـ على بن محمد التهامي : أورد له التونسي بيتاً من الشعر في رثاء ولده وهو من قصيدة مطلعها : «حكم المنية في البرية جار» أوردها بطولها العاملي في الكشكول . وترجم ابن خلكان للتهامي ونقل عن ابن بسام في الذخيرة استجادة الأخير لشعره ، توفي التهامي بالقاهرة سنة ٤١٦ هـ

١١ ـ الشيخ عرفه الدسوقي : ذكره التونسي في ص٣٦ من التحقيق . كان من أعلام علماء الأزهر توفي سنة ١٢٣٠ وترجم له الجبرتي في تاريخه وذكر تآليفه وأورد قصيدة الشيخ حسن العطار في رثائه .

١٢ ـ الشيخ محمد الأمير الكبير : أشار إليه التونسي وقال بأن والده حضر عليه في الأزهر هو والشيخ عرفه الدسوقي ووصفه قائلاً « شيخ مشايخنا

العالم الأوحد » . ترجم له الجبرتي وقال بأنه صنّف في كثير من العلوم وكانت تصانيفه موضع الإجلال والثقة لما امتازت به من براعة التحرير وقوة التحقيق حتى لقد كان بعض أشياخه إذا غُم عليهم الأمر في إحدى مسائل العلم راجعوا ماكتب فيها الأمير ، ومصنفاته شروح في فقه المالكية وعلم العربية ، توفي سنة ١٢٣٢ هـ وأشار الجبرتي في ترجمته إلى ولده محمد الأمير الصغير

١٣ ـ كمال الدين بن النبيه : تمثل التونسى في ص ٣٨ من التحقيق ببيتين من الشعر لم يذكر قائلهما وصدر الأول : « الناس للموت كخيل الطراد ، ذكرهما الصفدى مع بيت ثالث في شرحه على لامية العجم ونسب الأبيات لابن النبيه الذى ترجم له ابن شاكر في الفوات وقال بأنه مدح بنى أيوب وتوفي بنصيبين في سنة ٦١٩ هـ وهناك ثلاثة أبيات أخرى تكمله لما ذكره الصفدى وردت في المنتخب والقصيدة بطولها في ديوانه ص ٩ و ١٠

١٤ ـ صلاح الدين الصفدى : تمثل التونسى في ص ٤٢ من التحقيق ببيتين أولهما : « سافر تنل رتب المكارم والعلا فالدر سار فصار في التيجان» ولم يذكر قائلهما . وذكر الصفدى هذين البيتين في شرحه على لامية العجم وقال بأنهما من نظمه . ورواية الصفدى تخالف قليلاً ما تمثل به التونسى فالبيت الثاني عند الأخير : والبدر لولا سيره في أفقه ماكان إلا زائد النقصان ونَص ماقاله الصفدى من نظمه : وكذا هلال الأفق لوترك السُّرى ما فارقته مَعَرَّة النقصان . هذا والصفدى من أعلام القرن الثامن توفي سنة ٧٦٤ هـ ترجم له ابن حجر في الدرر الكامنة وابن العماد في شذرات الذهب وقال ابن كثير عنه في البداية والنهاية إنه « كتب الكثير من التاريخ واللغة والأدب وله الأشعار الفائقة والفنون المتنوعة . » وأورد التاج السبكى في طبقات الشافعية ما كان بينهما من المراسلات وأشهر مؤلفاته معجمه الضخم في التراجم وهو الوافي بالوفيات وشرحه على لامية العجم للطغرائي ومعجم في تراجم المكفوفين أسماه نَكْت الهِمْيان في نُكت العِمْيان .

١٥ ـ الحسين بن على الطغرائي : قال التونسى في ص ٤٢ من التحقيق : ولله در الطغرائي حيث يقول . . ثم أورد بيتين من قصيدته المعروفة باسم

لامية العجم ومطلعها أصالة الرأى صانتنى عن الخطل وحلية الفضل زانتنى لدى العطَل ، أوردها بطولها كل من ياقوت في معجم الأدباء وابن خلكان في وفيات الأعيان . وقد ترجم له أيضاً ابن تغرى بردى في وفيات سنة ٥١٤ هـ وأورد ما قاله الذهبي في حقه من أنه كان أفصح الفصحاء وأفضل الفضلاء وأمثل العلماء .

١٦- ابن حجر الشافعي : قال التونسى إنه تذكر بهذه الألغاز « ما ألغزبه خاتمة المحققين الإمام ابن حجر الشافعى من أبيات في لغز مُدام (ص ٤٦ من التحقيق) . وسواء أقصد التونسى ابن حجر العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٢ هـ صاحب معجمات التراجم الموسوعية في سير الصحابة ورواة الحديث وغيرها أم قصد سَميّه ابن حجر الهيثمى المتوفي سنة ٩٧٤ هـ صاحب الصواعق المحرقة والزواجر عن اقتراف الكبائر وكلاهما يلقب بشهاب الدين ومن فقهاء الشافعية ويمكن أن يقال في حق كل منهما إنه كان خاتمة المحققين فإنا لم نجد في مؤلفاتهما ولا في ترجمة السخاوى للأول وترجمة العيدروسى للثاني في النور السافر هذه الأبيات . وقد وردت في كتاب حلبة الكميت للنواجى على أنها من نظم صلاح الدين الصفدى .

١٧ - خليل بن إسحاق : ذكر التونسى في ص ١١٦ من التحقيق كتاب المختصر في الفقه المالكى للشيخ خليل بن إسحاق ، وكان يحسن بالمحققين كتابة حاشية عن هذا الفقيه المصرى الذى نال كتابه المختصر تلك الشهرة الواسعة في شمالى إفريقية ووسطها وغربيها ، ونظراً لأهميته عنيت وزارة الحربية الفرنسية بترجمته وقام بهذه الترجمة بيرون نفسه . وقد وصف ابن فرحون خليل بن إسحاق في كتابه الديباج المذهب وكان معاصراً له . بأنه « كان صدراً في علماء القاهرة مجمَعاً على فضله وديانته أستاذاً ممتعاً من أهل التحقيق . . . ألّف مختصراً في المذهب قصد فيه إلى بيان المشهور مجرداً عن الخلاف ، جمع فيه فروعاً كثيرة مع الإيجاز البليغ وأقبل عليه الطلبة ودرسوه » وأشار أحمد بابا التمبكتى المتوفي سنة ١٠٣٦ هـ في كتابه نيل الابتهاج إلى عكوف الناس شرقاً وغرباً على دراسة مختصر خليل وأنه لسعة انتشاره كثرت

عليه الشروح والتعاليق حتى وضع عليه أكثر من ستين تعليقاً . هذا وقد توفي خليل في سنة ٧٦٧ ﻫ .

١٨ ــ أبو عبد الله مغلطاى : ذكر التونسى في ص ١١٧ من التحقيق أن عبد الرحمن الرشيد سلطان دارفور أمر والده الشيخ عمر التونسى أن يكتب شرحاً على الخصائص التى ألّف متنها مغلطاى التركى ، فكتب شرحاً عظيماً سماه الدرة الوفية على الخصائص المحمدية . وكان يحسن بالمحققين أن يشرحا معنى الخصائص التى يقصد بها في السيرة النبوية ما ميّز الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام من الفضل والكرامة . ومؤلفها من أعلام القرن الثامن توفي سنة ٧٦٢ ﻫ تولى مشيخة الحديث في القاهرة وله مؤلفات كثيرة منها مصنف في السيرة أسماه : الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم ، ومما يسترعى النظر في اهتمام سلطان دارفور بشرح كتاب مغلطاى وذلك في أواخر القرن الثامن عشر أنه يدلنا على اتساع انتشار الثقافة العربية الإسلامية في البلاد السودانية.

١٩ ــ أحمد الزانتى[1] : دلل التونسى في ص ١١٨ من التحقيق على براعة سلطان دارفور بما صنعه في إحباط مؤامرة زوانه كاشف التى بدأها بقوله : « فمن حسن تدبيره أنه لما دخلت الفرنساوية مصر ، وهرب الغز عنها توجه إلى دارفور منهم كاشف يسمى زوانة كاشف قيل إنه من مماليك مراد بك أو هو أحد كُشّاف الألفى . . . » وهذا خطأ من التونسى لأن ذلك الذى يسمى زوانة كاشف كان قد ذهب إلى دارفور قبل دخول الفرنساوية مصر. كما أنه لم يكن من طبقة المماليك وإنما كان يونانياً يعمل في خدمة مراد بك وكان بوسع محققى الرحلة أن يصححا هذا الخطأ لأنهما رجعا إلى رحلات برون Browne الذى فصّل لنا أسباب رحلة الزانتى إلى دارفور وتاريخ قيامه بها في نوفمبر سنة ١٧٩٦[2]م أى قبل حملة بونابرت على مصر بما يقرب من سنة ونصف سنة .

---

(١) نسبة الى جزيرة زانته Zante احدى الجزر الأيونية غربى بلاد اليونان .

(٢) رحلات برون ص ١٥٦

والمقال الذى نشره أوريان في مجلة تاريخ المستعمرات الفرنسية في سنة ١٩٢٦ عن أحمد الزانتي والذى أدرجه المحققان في ثبت مصادرهما دون الرجوع إليه ، أورد فحواه بوليتيس Politis في كتابه : « الهلينية ومصر[١] الحديثة » وختمه بقوله : « ولقد حكى لنا أوريان في دراسة شائقة تقلبات الأحوال التى صادفها أحمد الزانتي في دارفور ، وكيف أنه اكتسب ثقة السلطان وكيف دبر مشروعاً لخلعه والجلوس على العرش مكانه ، ولكن خانه الحظ كما خانه أولئك الذين استودعهم سره ، فذُبح مجللاً الخزى في الأرض التى حَلُمَ بفتحها » . هذا وخطأ التونسى الذى أشرنا إليه آنفاً نقله عنه كل من آركل A. J. Arkell في كتابه تاريخ السودان إلى سنة ١٨٢١م[٢] وروبير كورنفان R. Cornevin في كتابه المطول عن تاريخ شعوب إفريقية السوداء[٣] ونص عبارتهما أن السلطان عبد الرحمن كان على وشك أن يخلع عن عرشه بواسطة أحد المماليك الذين طاردتهم الجنود الفرنسية من إقليم الدلتا . »

٢٠ — أبو عبد الله القرطبي : ذكر التونسى في ص ١٢٦ من التحقيق أن الفقيه مالكاً كان يقرأ في تذكرة القرطبي وكان يحسن بالمحققين أن يعرفا القارئ بكل من التذكرة ومؤلفها . وقد ترجم للقرطبي كل من ابن فرحون في الديباج والمقرى في النفح وقالا بأنه كان من عباد الله الصالحين . أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف ، أشهر مؤلفاته الجامع لأحكام القرآن توفي سنة ٧٦١ هـ بمنية ابن خصيب بمصر ، أما التذكرة بأمور الآخرة التى يشير إليها التونسى فقد اختصرها عبد الوهاب الشعراني المتوفي سنة ٩٧٣ هـ .

٦ — تقويم النص العربى للرحلة مع اضافة بعض الشروح والتعليقات :

ليس لدينا لتقويم النص العربي لرحلة التونسى إلى دارفور سوى النسخة التى كتبها بيرون بخطه وطبعها على الحجر في باريس في سنة ١٨٥٠ م وذكر

---

(١) باريس جـ ١ سنة ١٩٢٩م ص ٨٧ وما بعدها .

(٢) لندن سنة ١٩٥٥ ص ٢٢٣ وكنت أنتظر أن يصحح آركل هذه الغلطة فى الطبعة الثانية المنقحة لكتابه التى صدرت فى لندن سنة ١٩٦١ م ولكنه تركها على حالها .

(٣) باريس سنة ١٩٦٠م ص ٣٤٣ ويلاحظ أن عبارة كورنفان منقولة بالحرف الواحد عن آركل .

بيرون في مقدمته للترجمة الفرنسية للرحلة التى نشرها قبل هذا التاريخ بخمس سنوات قوله : « وجمعت الكل بيدى ونسخت منه نسخة صحيحة أعدتُ قراءتها على الشيخ » . فعند بيرون أولاً : أن النسخة التى كتبها بخط يده صحيحة ، ثانياً يزيد من صحتها أنه أعاد قراءتها مع الشيخ التونسى ، ويفهم من ذلك أن التونسى أقر نسخة بيرون فكأن الأخيرة مساوية للأصل . وليست لدينا للأسف النسخة الأصلية التى كتبها التونسى بخط يده لمناقشة دعوى بيرون ، غير أن النقد الداخلي للنص الذى نشره بيرون يمكن أن يحل لنا هذه المشكلة ، فالنص العربي الذى نشره بيرون يزخر بأغلاط متنوعة يمكن تصنيفها فيما يلي :

(١) أخطاء نحوية (٢) أخطاء إملائية ، والنوع الأول والثاني لايصدر إلا عن المبتدئين في تعلم العربية : ٣ أخطاء لغوية لايعقل صدورها عن رجل مثل التونسى يعتبر من فقهاء اللغة العربية كان في عصره رأساً في علومها . (٤) أخطاء عروضية تدل على الخلط في بحور الشعر ، بل هناك أخطاء في كتابة الأبيات تمسخ معانيها وتؤدى إلى كسر أوزانها ولا يعقل صدورها عن التونسى الذى كانت له ملكة في تذوق الشعر ونظمه بدليل الأبيات الكثيرة التى أودعها رحلته (٥) تصحيفات كثيرة خاصة بإعجام الكلمات سنهمل ذكرها في التصويبات

وليس أمامنا إزاء هذه الأخطاء إلا أن نفترض أحد أمرين : إما أن هذه الأخطاء بل السقطات كانت موجودة في الأصل الذى دونه التونسى ونقله بيرون على علاته وعند ذلك تبرأ ساحته لأن ناقل الكفر ليس بكافر ، وإما أن بيرون أخطأ في النقل وأهمل إجراء التصويبات التى أشار بها التونسى عندما قرأ عليه بيرون النسخة التى خطها بيده وكان خطأه وإهماله راجعين إلى ضعف مستواه في علوم العربية ونظراً إلى أن جانباً كبيراً من هذه الأخطاء لايصدر إلا عن مبتدئ في دراسة العربية فإنا نميل إلى الأخذ بالرأى الثاني .

غير أن المحققين درجا فيما كتبا من الحواشي تعليقاً على هذه الأخطاء إما أن يشيرا إليها بعبارة كذا في الأصل للتنصل من تبعتها وترك المسألة معلقة بين المؤلف والناقل فلا يدرى القارئ أيهما يعد مسئولاً عنها ، وإما أن

يزعما أن المقصود هو الاستعمال العامى وليس الفصيح ، ثم يلصقان التهمة صراحة بالتونسى بقولهما : « ومن هذا وكثير غيره نلاحظ أن المؤلف يزاوج كثيراً بين الفصحى والعامية في أسلوبه » . وكأنما يوحيان إلى القارئ بأن الكثرة الغالبة من هذه الأخطاء قد صدرت عن المؤلف نفسه ، وطوراً يحاول المحققان أحياناً التصويب فتسفر المحاولة عن خطأ جديد . والاستعمالات العامية في رحلة التونسى تكاد لاتتجاوز إثنين أحدهما استعمال كلمة وحاشة بمعنى قبح الملامح والثاني استعمال كلمة حيلته بمعنى الأشياء التى يقتنيها الإنسان كما في قوله : « وقد انكسرت سفينته وضاع ماكان حيلته » . وقد اضطر التونسى إلى استعمال هذه الكلمة مراعاة للسجع ، وفي سبيل السجع أيضاً أغفل مراعاة قواعد النحو في مثل قوله : « ففسد ما به من النخيل وذهب رونقه بعد أن كان جميل » بدلاً من جميلاً . وفي مثل قوله : « فاعتذر بعذر ساقط لايجد له لاقط» . بدلاً من لاقطاً . وفي قوله : « بين أقوام لاأعرف من حديثهم إلا القليل ، ولا أرى فيهم وجهاً صبيحاً جميل » . بدلاً من جميلاً . ونرى أن ما تورط فيه التونسى من أخطاء إنما يعزى إلى الطريقة التى جرى عليها الكتّاب منذ عهد القاضى الفاضل وصديقه عماد الدين الأصفهاني من تعشق لالتزام السجع [1] حتى صار للسجع ضرورة كضرورة الشعر يباح فيها للناثر ما يباح للشاعر . ولم تتخلص الكتابة العربية من قيود السجع إلا في العصر الحديث

ونذكر فيما يلى ما نراه في تقويم النص وشرحه والتعليق عليه مكتفين في ذكر المواضع بصفحات التحقيق دون صفحات الطبعة الحجرية :

١ ــ ص ٢ : تمثل التونسى ببيت صدره : تبيت الأسد في الغابات جوعاً. وفي طبعة بيرون أن هذا البيت من الرجز وصحته كما أوضح المحققان أنه

---

(١) ظهر ذلك قبل عصر القاضى الفاضل ووصف بأنه ما خف على السمع غير أن أبا العلاء فى رسالة الغفران أورد فواصل مسجوعة اتبع فيها ما التزمه فى شعره وهو لزوم ما لا يلزم . وتروى فى تعشق السجع نوادر كثيرة من أشهرها فى كتب الأدب ما صنعه الصاحب بن عباد فى عزل قاضى مدينة قم دون أن يصدر منه ما يقتضى عزله . ومن الطريف أن الكتب المترجمة التى أخرجتها بولاق اختيرت لها عناوين مسجوعة ومنها مؤلفات بيرون نفسه فى الطبيعة والكيمياء وهى الأزهار البديعة فى علم الطبيعة والجواهر السنية فى الأعمال الكيماوية .

من الوافر وكان من واجب المحققين أن يكتبا حاشية عن هذا التصويب والإشارة إلى خطأ بيرون .

٢ — ص ٣ : كتب بيرون بيتاً من الشعر في متن رحلة التونسى على أنه نثر ، وجاراه المحققان في هذا الخطأ وكان أولى بهما أن يكتباه هكذا :

وإن إراقة ماء الحيا   ة دون إراقة ماء المحيا

٣ — تمثل التونسى بخمسة أبيات في أعلى ص ٣ ومطلعها : لَقَلْعُ ضرس وضَنك حَبس   ونَزْع نفْس وورد رَمْس . وكتب بيرون أنها من الرجز ولم يصحح المحققان خطأه لأنها من مُخَلع البسيط .

٤ — ص ٢ : « فتراه يرفع كل غمر جاهل » . اقتصر المحققان في ضبط كلمة غمر على فتح الغين المعجمة ولاستيفاء ضبطها كان يحسن إيراد ماكتبه صاحب القاموس من أن الكلمة تُثَلّث وتحرّك واستدرك عليه الزبيدى في التاج من أن الفتح والضم والتحريك هو المنصوص عليه في الأمهات اللغوية وأما الكسر فغير معروف . وعلى ذلك يحسن الإشارة هنا إلى أنه يجوز ضم الغين . وقد اقتصر على إيرادها بالضم كل من المصباح ومختار الصحاح ومن العجيب أن محققى المعجم الوسيط لم يذكروا سوى الفتح والتحريك !

٥ — ص ٣ : « جوده ناسخ لكل الوجود » . يلاحظ أن كلمة الوجود هنا تكسر وزن البيت كما أنه لا معنى لنسخ الوجود كله بسبب الجود فضلاً عن أنه كفر ، والأبيات كما هو ظاهر من تقديم التونسى لها أنها من نظمه . وقد أخطأ بيرون في النقل لخلطه بين الوجود والجود ولعدم معرفته بالعروض ، ومما يستقيم به المعنى والوزن هو : جوُدُه ناسخ لكل الجود .

٦ — ص ٥ : علق المحققان في الحاشية رقم ١ أن المقصود ببلاد السودان في عنوان كتاب التونسى هو دارفور وفي الحق أنه يشمل أيضاً رحلة التونسى إلى وَدّاى هذا مع العلم بأن دارفور ووَدّاى لا يستأثران وحدهما بهذه التسمية وهى بلاد السودان التى تطلق أيضاً على على بورنو أو كانم وبلاد التكارير . ونرى أن عنوان تشحيذ الأذهان قصد به التونسى إطلاقه على رحلتيه فالرحلتان

هما في الحقيقة كتاب واحد وتقسيمهما إلى كتابين إنما هو من صنع بيرون يؤيد ذلك قول بيرون نفسه في رسالته السادسة إلى موهل بتاريخ ٢٨ مارس سنة ١٨٤٢م : « إنني أرسل إلى مسيو جومار بقية الجزء الأول من رحلة السودان أى رحلة دارفور » . وأعاد هذا المعنى في رسالته العاشرة إلى موهل بتاريخ ١٢ يوليو سنة ١٨٤٥م حيث يقول : « إن الجزء الأول من هذه الرحلة يطبع كما تعلمون بعناية مسيو جومار الذى ضحى في سبيل نشره من وقته وجهده وماله » . أما ما جاء في العنوان خاصاً بالعرب فليس مقصوراً كما زعم المحققان على القبائل العربية في السودان : دارفور ووَدّاى ولكنه يشمل أيضاً البلاد العربيه في إفريقية لأن رحلتي التونسي تتضمنان إشارات غير قليلة عن مصر وتونس وطرابلس . هذا ولم يشرح المحققان كلمة سيرة في العنوان ، ومن معانيها اللغوية الطريقة وشرحها الزبيدى بقوله : يقال سار الوالى في رعيته سيرة حسنة وأحسن السير وهذا في سيرة الأولين ، والسيرة النبوية وكتب السير مأخوذة من السيرة بمعنى الطريقة . ونضيف إلى ذلك أن رحلة الحيمى إلى الحبشة اسمها : سيرة الحبشة .

٧ — ص ٨ : « وسطت عليها سطوة الحجاج » . وكانت في الأصل : وبسطت عليها ولا ندرى لم غيرها المحققان مع أنها أصح ، فبسط الشيء يبسطه بسطاً من باب نصر نشره ، ومن المجاز : بسط إليه يده بما يحب ويكره ، مدها . وكان يحسن تشكيل كلمة الحجاج ليتنبه القارىء إلى أن المقصود هو الحجاج بن يوسف الثقفى حاكم العراق في عهد عبد الملك بن مروان وإبنه الوليد .

٨ — ص ٨ : شرح المحققان كلمة هميان بأنها وعاء للدراهم نقلاً عن القاموس مع أن نص عبارة مؤلفه لم ترد فيها كلمة وعاء ، إذ قال عن الهميان بكسر الهاء وسكون الميم بأنه التكة والمنطقة وكيس للنفقة يُشدّ في الوسط . وفات الفيروز أبادى أنه فارسى مُعرّب كما ذهب إلى ذلك الجواليقى في المعرّب وأكده شير الكلدانى في الألفاظ الفارسية المعربة .

٩ — ص ٩ : « هذه طيبة هذى الكتب » ضبط المحققان كلمة الكتب بالتاء المثناة وصحتها بالثاء المثلثة جمع كثيب . وفي البيت التالى أثبت بيرون في طبعته الهمزة في كلمة الزرقاء مما يؤدى إلى كسر الوزن ، وهذا دليل على جهل بيرون بالعروض .

١٠ — ص ١٠ : الأبيات التى تبدأ بهذا الصدر : « يغدو الفقير وكل شيء ضده » . أخطأ المحققان في ضبط الدال في ضده بالفتح ، وهناك روايات أخرى لهذه الأبيات أثبتها الأبشيهى في المستطرف ونسبها لابن الأحنف .

١١ — ص ١٣ : أبيات المقامة الدينارية أوردها بيرون على غير الترتيب الذى ورد في مقامات الحريرى وحواشي المحققين مطابقة لشرح إبراهيم عبد الغفار الدسوقي دون إشارة إلى نقلهما عنه وعلينا أن ننوه بذكر الدسوقي أحد أعلام الأزهر وجهابذة اللغة في القرن الماضى وقد عاون المستشرق لين في عمل معجمه العربي الإنجليزى فهو قسيمه في الفضل وترجمة الدسوقي الذاتية أوردها على مبارك في خططه (ج ١١ ص ١٠ : ١٣) .

١٢ — ص ٣٠ : ضبط المحققان كلمة يتم في عجز البيت : « بمماته يتم الكرام » على اعتبار أن يتم فعل ماض وصوابه يُتم الكرام .

١٣ — ص ٣١ و ٣٢ : ذكر التونسى خال أبيه بأنه العلامة الرحل سليمان الأزهرى ، وكتب المحققان عن كلمة الرحل : كذا في الأصل ، وقد أخطأ بيرون في النقل عن نسخة التونسى ولم يهتد المحققان إلى صحتها ثم رجحا في باب التصويبات أن المقصود هو الرحالة . وما أبعد كل هذا عن مراد المؤلف والصواب هو الرُّحلة بضم الراء والعلاّمة الرُّحلة هو الذى يرتحل إليه الطلاب من الآفاق للأخذ عنه .

١٤ — ص ٣٦ : ذكر التونسى تاريخ مولده بأنه كان « في الساعة الثالثة من يوم الجمعة منتصف ذا القعدة سنة ١٢٠٤ ﻫ » ولم يصحح المحققان كلمة « ذا » التى أخطأ بيرون في إيرادها . ثم ذكر المحققان في الحاشية أن السنة

الميلادية الموافقة لسنة ١٢٠٤هـ هى سنة ١٧٨٩ م مع أن التاريخ الذى يوافق ضبطاً ١٥ ذى القعدة من هذه السنة هو ٢٨ يوليو سنة ١٧٩٠ م .

١٥ — ص ٤٦ : في عجز البيت : « بها الهداية في داج لنا بَهِم » . ضبط المحققان كلمة بهم بفتح الباء الموحدة وكسر الهاء وليست بهذا الضبط في المعجمات وصحتها بُهم بضم الباء وفتح الهاء جمع بُهمة والبهمة من الليالى هى تلك التى لا يطلع فيها القمر .

١٦ — ص ٥٠ : فقطعناها عَنقاً وذَميلاً . لم يشرح المحققان العنق واللفظان من أنواع السير التى فصّلها الثعالبي في فقه اللغة .

١٧ — ص ٥٠ : «ثم ارتحلنا صبيحة اليوم الثالث بعد ملء أدوات الماء » . أخطأ المحققان في إغفالهما تصويب الخطأ في كلمة أدوات الذى تورط فيه بيرون وصحتها أَدَاوَى على وزن فتاوَى وهى جمع إداوة بالكسر وهى إناء صغير يُحمل فيه الماء ، أما الأداة فهى الآلة والجمع أدوات ولا معنى هنا لملء أدوات الماء أى آلات الماء والمقصود هو ملء الأداوى أى الأواني الصغيرة التى يُحمل فيها الماء .

١٨ — ص ٥٢ : « وكانوا أتوا لهذا البئر ليأخذوا منه ملحاً » . وفي نسخة بيرون : ليأخذون مما يدل على جهله باللغة العربية .

١٩ — ص ٥٣ و٥٤ : « نأخذ من أول الليل قطعة ومن آخره دلجة » . هكذا ضبط المحققان كلمة دلجة وأوردا في الحاشية ما جاء في القاموس من أن « الدلجة السير في أول الليل » . وعقبا بقولهما إن المؤلف جعلها السير في آخره ، أى أن المحققين وصما التونسى بأنه يجهل التفرقة بين ما يطلق على السرى في أول الليل وفي آخره . وعبارة صاحب القاموس في هذا الصدد نراها غير وافية إذ اقتصر على القول بأن الدلج محركة والدلجة والدلجة بالضم والفتح السير من أول الليل وقد أدلجوُا أى ساروا من أول الليل فإن ساروا من آخره فادلجوا بالتشديد وقد استدرك الزبيدى في تاج العروس ما فات الفيروز أبادى يذكره وأورد تعليقاً مطولا يستغرق نحو صحيفتين يعد بحثاً في فقه اللغة العربية

إذ ذكر إنكار بعض اللغويين لهذه التفرقة محتجاً بحديث النبي صلى الله عليه وسلم : عليكم بالدُلجة فإن الأرض تُطوىَ بالليل ، حيث لم يفرق فيه بين أول الليل وآخره . (وقد ذكر ذلك ابن الأثير في النهاية حيث قال ومنهم من يجعل الادّلاج بتشديد الدال لليل كله ولم يفرق بين أوله وآخره وأنشدوا لعلى رضى الله عنه : اصبر على السير والإدْلاج في السحر وفي الرواح على الحاجات والبُكُرِ فجعل الإدْلاج بتسكين الدال في السحر) . ثم ذكر الزبيدى أن ابن درستوَيه أنكر التفرقة بين الإدلاج بالتسكين والإدلاج بالتشديد من أصلها فمعناهما معاً سيرُ الليل مطلقاً دون تخصيص بأوله أو آخره . فالأمثلة عند جميعهم موضوعة لاختلاف معاني الأفعال في أنفسها لا لاختلاف أوقاتها ، فأما وسط الليل وآخره وأوله فمما لا تدل عليه الأفعال ولا مصادرها . ثم قال ابن درستويه : « ومما يوضح فساد تأويلهم أن العرب تسمى القنفذ مدلجاً لأنه يدرج بالليل لا لأنه لا يدرج إلا في أول الليل أو في وسطه أو في آخره ، ولكنه يظهر في أى أوقاته احتاج إلى الدروج لطلب عاف أو ماء أو غير ذلك » ويتضح مما سبق أن المحققين اقتصرا على ما ذكره صاحب القاموس من أن الدلجة تصدق فحسب على السير فى أول الليل مع أنها تصدق على السير في أى وقت من أوقاته ، كما اقتصرا على ضبطها بالفتح على وزن ضربة ، مع أن الفيروز أبادى ذكرها بالضم أيضاً على وزن جُرْعة .

٢٠ — ص ٥٤ : أشار المحققان في الحاشية رقم ٥ إلى ما ورد عن الزغاوة في مؤلفات المسعودى وابن سعيد والإدريسى وابن خلدون ولم يثبتا مواضع ذكرها في كتبهم . وقد أشار إليهم ياقوت في معجم البلدان (ج ٤ ص ٣٩١ و ٣٩٢) بقوله : إن الزغاوة قبيلة من السودان جنوبي المغرب . ثم ذكر بيتاً لأبي العلاء :

بسبع إماء من زغاوة زوجت   من الروم في نعماك سبعة أعبد

وجدناه في القصيدة الثامنة في سقط الزند وشرحه التبريزى والبطليوسى بقولهما إن الزغاوة قبيلة أو جيل من السودان ويهمنا من هذا البيت معرفة أبي العلاء للزغاوة .

٢١ — ص ٥٨ و ٥٩ : « وشوا بي إلى السلطان بأني أبيع الأحرار » . وذكر المحققان في الحاشية أن كلمة الأحرار هي تصويبهما لكلمة الأحرارى في الأصل ، ونرى أن الخطأ مزدوج من كل من بيرون والمحققين ، فالتهمة التي وجهت إلى السيد أحمد بدوى صديق والد التونسى هى بيع النساء الحرائر على اعتبار أنهن إماء وليس المقصود هو بيع الأحرار من الرجال . ومن الطريف أن بيرون فهمها من المؤلف طبقاً لهذا المعنى ، ولكنه لم يستطع إثبات اللفظ العربي الصحيح لضعفه في اللغة العربية والدليل على ذلك أنه أثبت المعنى الصحيح في الترجمة الفرنسية بقوله :

On m'avait accusé de vendre des femmes libres

٢٢ — ص ٥٩ و ٦٠ : « فمكثنا بعد ذلك ثلاثة أيام » . وفي نسخة بيرون : « ثلاثاً أيام » . ليس أدل من هذا على جهل بيرون باللغة العربية .

٢٣ — ص ٦١ : « في عَرْض جبل مَرَّه » . ضبط المحققان كلمة عَرض بفتح العين . والمقصود هنا عُرْض بضم العين فعُرْض الجبل سفحه وعُرْض الشيء بوزن قُفْل ناحيته من أى وجه جئته . ويقال اضرب به عُرْض الحائط أى ارم به أىَّ ناحية كانت .

٢٤ — ص ٧٥ : « وكانت الرعية ترفع شكايتهم لأبيهم فكان لايشكوهم وكتب المحققان : كذا فيما يتعلق بكلمة يشكوهم ، وكان الأولى التصحيح لأن الخطأ من بيرون والصواب هو : فكان لايُشكيهم أو لايُشَكِّيهم من أشكى فلاناً إشكاءً قَبِل شكواه وشَكَّى الشاكى تشكيةً قَبِل شكواه .

٢٥ — ص ٨٧ حاشية رقم ٤ : كتب المحققان : السفِن بكسر الفاء المَلاَّح ، ولم نعثر عليها بهذا المعنى في معجمات اللغة .

٢٦ — ص ٩٠ : أورد التونسى شعراً لعلى الغراب الذى لم يتيسر للمحتمقين أن يُعَرِّفا القارىء به . وقد ترجم له صاحب شجرة النور الزكية(١) بقوله : هو أبو الحسن الصفاقسى الفقيه العالم الماهر الأديب الشاعر ،

---

(١) القاهرة سنة ١٣٤٩ ص ٣٤٨ رقم ١٣٨٢

له ديوان شعر كبير من وقف عليه اعترف له بالنبل والنباهة لما اشتمل عليه من التوريات والتشبيهات والكنايات وللناس به اعتناء ، توفي سنه ١١٨٣هـ .
وقال عنه محمود أصلان[1] :

Le grand poéte lyrique 'Ali El-Ghorab naquit à Sfax. Venu à Tunis à l'occasion d'une affaire au Divan, il adressa des poémes à de nombreux notables, aux ministres et au souverain 'Ali Pacha. Celui-ci se l'attacha comme secrétaire, et bientôt la notoriété d' 'Ali El-Ghorab s'étendit à toute l'Afrique du Nord, puis à l'Orient.

٢٧ — ص ٩٤ :

« ولا تحتقر كيد الضعيف فربما تموت الأفاعي من سموم العقارب»

هذا البيت الذى تمثل به التونسى هو من مقطوعة نظمها الشاعر عمارة اليمنى المتوفي سنة ٥٦٩ هـ وتقع في سبعة أبيات مثبتة في ديوانه المذيل به كتابه النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية[2] .

٢٨ — ص ١٠٣ : حاشية رقم ٢ : يحسن تشكيل الحُمْر بضم الحاء المهملة وتسكين الميم حتى لاتختلط باسم قبيلة الحَمَر بفتح كل من الحاء والميم .

٢٩ — ص ١١٦ : من أخطاء بيرون عشرة نياق وقد صححها المحققان،أما « مطلوق السيف » فتركاه دون تصحيح وصوابها : مُطْلَق السيف .

٣٠ — ص ١١٧ : كان يحسن كتابة حاشية لتعريف القارىء بكتاب الآجرومية الذى صنف فيه عمر التونسى والد صاحب الرحلة شرحاً كبيراً وهى من مختصرات النحو الشهيرة ومؤلفها محمد بن داود الصنهاجى المتوفي

---

(١) « نظـرة عامة فى الأدب التـونسى » فى المجلد الخاص بتـونس فى الموسوعة الاستعمارية البحرية (باريس سنة ١٩٤٨ م ص ٤٨٥) .
(٢) نشرهما المستشرق هارتويج ديرنبور فى مدينة شالون بفرنسا سنة ١٨٩٧م (جـ ١ ص ١٣٠ و ١٣١) .

سنة ٧٢٣ ﻫ ترجم له السيوطى في بغية الوعاة وابن العماد في شذرات الذهب كما كان يحسن التعريف بكتاب السلم المرونق الذى قام بشرحه أيضاً والد التونسى وهو عبارة عن أرجوزة في علم المنطق في ٩٤ بيتاً نظمها الصدر بن عبد الرحمن الأخضرى المتوفي سنة ٩٤١ ﻫ .

٣١ — ص ١١٧ : «وألّف (عمر التونسى) رسالة في علم الكتف» . هكذا وردت هذه العبارة في نسخة بيرون ، غير أن المحققين توهما أن المقصود هو علم الكف المعروف بالفرنسية باسم **Chiromancie** وبالانجليزية باسم **Palmistry** وذلك على الرغم من أن التونسى أدلى بشرح شفوى لهذا العلم لبيرون وأثبت الأخير هذا الشرح في باب « المذكرات والإيضاحات » التى ذيل بها ترجمته للرحلة وختمه بعبارة **Note du Cheykh** ونص الجملة الأولى في هذا الشرح هو كما يلى :

Il composa un petit livre sur la science des omoplates ou divination par inspection des omoplates. ويلاحظ أن كلمة **omoplates** الفرنسية مشتقة من كلمة **ômes** الإغريقية أى كتف وبالفرنسية **épaule** وكلمة **platus** أى عريض وبالفرنسية **large** . وفيما يلى ترجمة حاشية التونسى :

وألّف رسالة في علم الكتف أى التنبؤ عن طريق فحص عظام الأكتاف : « وذلك بأن يوضع أثناء الليل فوق سطح أحد المنازل كتف شاة . ويزعم العرب أن عظم الكتف تظهر عليه بتأثير نجوم السماء علامات وبقع معينة يمكن الاستعانة بها على التنبؤ بالمستقبل . ففى الصباح يزال ما على الكتف من اللحم فتظهر آنذاك بقع هى علامات يزعم العرافون أنهم يعرفون من قراءتها ما سوف يقع من أحداث عامة وخاصة » (مذكرة من الشيخ) وهذا لايدع مجالاً للتصحيف واعتباره علم الكف .

٣٢ — ص ١٢٦ : سطر ناقص لم يثبته المحققان ويقع في نسخة بيرون في نهاية ص ١١٩ وأوائل ص ١٢٠ ونوضحه فيما يلى بين قوسين :

« وصار يذب عنهم وحررهم عند (السلطان كلما وقع منهم أمر مع أعدائهم من القبائل الأخرى[1] وحررهم عند) الدولة » .

٣٣ — ص ١٢٨ : « لايعصاني » . علّق عليها المحققان بقولهما » : « كذا وهى صيغة عامية » . مع أنها في الأصل لايعصى في » وهو الصواب .

٣٤ — ص ١٤١ : « فهذه أربعة وثلاثون يوماً » . وهذا خطأ من التونسى لأن عدّة الأيام التى سردها هى ستة وثلاثون يوماً [2] .

٣٥ — ص ١٤٩ : « لكن متى جئت دار أباديما تجد الرجال والنساء حسان » . أثبت المحققان كلمة حسان دون تصويب فقد نسى بيرون أن أن المفعول يجب أن يكون منصوباً ، ويلاحظ أن كلمة حسَان جمع حَسَن وحسناء للمذكر والمؤنث .

٣٦ — ص ١٥٦ شرح المحققان كلمة البُخْسة بأنها كلمة عامية سودانية معناها إناء من الفخار يحفظ فيه الماء أو السمن أو العسل والواقع أنها ليست من الفخار فهى من لحاء القرعة الجافة كما شرحها بيرون في ترجمته الفرنسية بقوله : البخسة قرعة كبيرة جافة فارغة ، فهى وعاء كالزمزمية المستديرة .

٣٧ — ص ١٦٤ : « حتى يدخلون » لم يصححها المحققان واكتفيا بكتابة حاشية كذا ، مع أن الخطأ صدر عن بيرون .

٣٨ — ص ١٨٥ : « وهب لكل إنسان عقلاً يميز به الخير ليتبعه من المكروه ليحذره » صوابه : « يميز به الخير ليتبعه والمكروه ليحذره » .

٣٩ — ص ٢٠٠ : « خصوصاً وأن من كانت له دعوى » . وفي الأصل دعوة ، وعسير على بيرون أن يفرِّق بين دعوة ودعوى .

---

(١) فى الأصل : الأُخَر . وقد شرح پيرون العبارة الأخيرة فى ترجمته الفرنسية بقوله : أى جعلهم غير خاضعين لسلطة الحكومة .

(٢) هذا وقد كتب پيرون الرقم مصححا فى ص ١٣١ من الترجمة الفرنسية .

٤٠ — ص ٢٠٠ : ترجم المحققان في الحاشية ٤ شرحاً أورده بيرون في الترجمة الفرنسية ونسيا أن يترجما عبارة في السطر السابق للأخير تعريبها : « ويجلس السلطان متنقباً ساتراً وجهه كله تقريباً » . كما تصرفا في العبارة الأخيرة وصوابها : « حتى تتعذر رؤيته » .

٤١ — ص ٢١٨ : « نوافج المسك » صَحّف بيرون كلمة نوافج إذ جعلها بالخاء المعجمة ، وكتب المحققان حاشية نقلاها عن شرح القاموس بأن « كلمة نافجة أى وعاء المسك معربة » . وأكد ذلك الجواليقى والكلداني غير أن صاحب المصباح ذهب إلى أنها عربية . وقال الشيخ أحمد شاكر محقق كتاب المُعرّب للجواليقى[1] : « وكل هذا دعوى لادليل عليها فإن مادة ن ف ج عربية ، وكل ماارتفع فقد نفج ، ثم استعمل في معان كثيرة ترجع إلى هذا الأصل ، ونافجة المسك لاتخرج عنه » .

٤٢ — ص ٢٢٠ : « فإذا حَس بهم زجرهم » : علق المحققان على كلمة حس بقولهما : « كذا بالأصل حَس بغير همزة وسنرى فيما بعد أن المؤلف يستعمل المضارع « أحَسّ » بفتح الهمزة وكلتا الصيغتين عامية » . وما أبعد هذا عن الحقيقة فهنا يمكن تصويب بيرون وتخطئة المحققين لأن حَسّ هنا عربية ، فحَسّ الشيء وحَسّ بالشيء حسيساً أدركه بإحدى حواسه .

٤٣ — ص ٢٣٣ : « وكلهم منحنيون » صوابها منحنون ، « ولأجل يسمع » صوابها لأجل أن يسمع . وهذه الأخطاء صادرة عن بيرون .

٤٤ — ص ٢٣٧ : « حتى يأتون » الأفضل تصويبها « حتى يأتوا » وحذف الحاشية التى كتبها المحققان : « كذا في الأصل بالنون » فمن البديهى أن هذه السقطات لم تكن في نسخة التونسى وماهى إلا نتيجة لضعف مستوى بيرون في اللغة العربية .

---

(١) طبعة دار الكتب بالقاهرة سنة ١٣٦١هـ ص ٣٤١

٤٥ــ ص ٢٦٠ : « وإن الكِبْر يمنعها أن تقول هَيْتَ لك » . كان يحسن بالمحققين شرح هَيْتَ لك . وقد وردت في سورة يوسف آية ٢٣ ولها قراءات وتفسيرات عدة منها هيت لك أى هَلُمَّ وأقْبِل وتعالَ وروى أنها من هاء يهئ مثل جاء يجئ فيكون المعنى في هِئْتَ أى حَسُنْت هيئته ويكون لك من كلام آخر كما تقول : لك أعنى ، وقرئت هِئْتُ لك أى تهيأت لك وتحسنت وتزينت ، راجع القرطبي والكشاف[1] .

٤٦ ــ ص ٢٦٧ : « ولو استقل من البياض بمثلها لاعتاض من ثوب الملاحة عاراً ، أخطأ المحققان هنا خطأ جسيماً في عبارة لاعتاض ، بإثبات لا النافية بدلاً من لام التوكيد مما يخل بالمعنى ويكسر وزن البيت ، والصواب لاعتاض .

٤٧ ــ ص ٢٧٩ : « فإذا تم للمولود أسبوع عملوا له عقيقة » . يحسن شرح العقيقة هنا . وقد أوضحها مجد الدين بن الأثير في النهاية[2] .

٤٨ ــ ص ٢٨٢ : « هذا مع ما ابتليوا به من الفتن » . صوابها : مع ما ابتلوا به من الفتن . والخطأ من بيرون .

٤٩ ــ ص ٢٩١ و٢٩٢ : « وتركه في مكتله » شرح المحققان المكتل بأنه الزنبيل وأورد عنه بيرون حاشية في ترجمته الفرنسية جاء فيها . أنه سلة ذات نسيج متقاطع منسوج من ورق الدوم .

٥٠ ــ ص ٣٠٠ : « وفي سنة ١٢٣٢ هـ رأيت قصيدة لبعض البكريين في حل شرب الدخان وأظن كتابتها في وسط القرن التاسع للهجرة » لاشك أن هذا الظن خطأ من التونسي . وكان يحسن بالمحققين أن يعلقا عليه . فوسط القرن التاسع الهجرى أى سنة ٨٥٠ هـ يوافق سنة ١٤٤٧ م ومن المعلوم أن استعمال التبغ لم يكن معروفاً في الدنيا القديمة قبل كشف كولومب لأمريكا

---

(١) القرطبى جـ ٩ ص ١٦٣ : ١٦٥ دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٣٩ والكشاف للزمخشرى طبعة بولاق سنة ١٢٨١هـ جـ ١ ص ٣٧٧

(٢) جـ ٣ ص ١١٦

في سنة ١٤٩٢ م كما أن عادة التدخين لم تنتشر فور كشف أمريكا في مختلف بلاد الدنيا القديمة بل استغرق ذلك وقتاً يمكن تحديده بالنسبة لبلاد الشرق العربي بنحو قرن من الزمان ، بدليل أننا لانجد ذكراً لمسألة حل الدخان أو تحريمه إلا في معاجم التراجم الخاصة بأعلام القرن الحادى عشر الهجرى . جاء في كتاب طبقات وَد ضيف الله[1] أنه « في أول القرن الحادى عشر ارتبك الناس في التنباك والقهوة فاتفق العلماء على إباحتهما ، واختلفوا في التنباك منهم المحلّل ومنهم المحرم ، وممن حكم بإباحته الشيخ على الأجهورى والشيخ ابراهيم اللقاني قالا بحرمته ونهى الناس عن شربه ، والشريف عبد الوهاب قال بإباحته وتناظر مع الشيخ إدريس في وجه الشيخ عجيب ، ثم بعد الألف وأول القرن الحادى عشر استعملت الناس شرقاً وغرباً شرب التنباك والبن .

وعلى ذلك فالأشعار التى ذكرها التونسى عن حل الدخان لايمكن أن نرجع تاريخها إلى ما قبل بداية القرن الحادى عشر الهجرى .

٥١ — ص ٢٨١ : « لسلامة أرضه من العفونات والوَخِم » . صوابها الوَخَم بفتح الواو والخاء المعجمة والوَخَم هو تعفن الهواء المورث للأمراض.

٥٢ — ص ٣١٢ : ويُلحُّون لحاءه » هكذا ضبطها المحققان وشرحاها : يقشرون ، والصواب : يَلْحون مضارع الفعل الثلاثي لَحا يَلحو لحواً ، لحا الشجرة أى قشرها ، أما ألحَّ فلان على الشيء أى واظب عليه وألَحَّ السحابُ دام مَطرُه إلخ فلا معنى لها هنا .

٥٣ — ص ٣١ : « زكى الرائحة « غيّر المحققان ما جاء في الأصل وهو « ذكى الرائحة » بالذال المعجمة ظناً منهما أنه خطأ مع أنه صواب ، يقال : ذكا المِسْك يذكو ذكواً وذكاً فاحت رائحته فهو ذاك وذكيّ .

٥٤ — ص ٣٣٤ : أخطأ المحققان في إيراد شكل النكيس من أشكال الرمل وهو الشكل الرابع إذ جعلا الفرجة بين صَفَى النقط من أسفل ، وصوابها من أعلى كما وردت في نسخة بيرون .

---

(١) طبعة مندیل بالخرطوم سنة ١٩٣٠ ص ٧ ، ٨

٥٥ — في ص ٢٠٦ من التحقيق وأواخر ص ١٨٢ من نسخة بيرون فقرة ساقطة من الأصل العربي للرحلة ولكنها مُثْبَتَة في ترجمتها الفرنسية وقد أحسن المحققان بترجمتها إلى العربية متوخين أساوب المؤلف في تعريبها حتى لاتبدو قلقة مضطربة في موضعها وينتظم بها سياق الرحلة . غير أن المحققين فاتهما مع ذلك أن يترجما الفقرة الصغيرة التالية وها هى ترجمتها : « ويقع على بُعد منها محل الياكورى وإلى اليمين مسكن الساطان أما محل الياكورى فيشتمل صريفُه على سبع أو ثماني سكتايات تقطنها الياكورى نفسها ومن يتبعنها من الجوارى » .

٥٦ — ص ٣٣٣ : « وإذا انجر الكلام إلى علم الرمل فلنذكر منه نبذة » . هذه النبذة المختصرة في علم الرمل التى أوردها التونسى في النص العربي لرحلته أضاف إليها بياناً مفصلاً أدلى به شفاهاً إلى بيرون وترجمه الأخير إلى الفرنسية وذيل به ترجمته الفرنسية للرحلة ويقع في ثلاث صفحات[١] استهلها بيرون بقوله :

Cette explication, beaucoup trop abrégée, a été completée de vive voix, par le cheykh, de la manière suivante.

وكان يحسن بالمحققين تلخيص هذه التوضيحات الإضافية لأنها جزء لايتجزأ من الرحلة وكذلك كتابة حواش عن علم الرمل وغيره من الغيبيات مثل علم الأوفاق وعلم الحروف مذيلة ببعض المراجع العربية والأجنبية عنها .

هذا وقد فات المحققين أن يكتبا في تصديرهما للرحلة عن قيمتها كمرجع للمشتغلين بعلم البشريات الثقافية أومايُطْلَق عليه إسم **Anthropologie Culturelle** فالفصل الذى عقده التونسى في رحلته إلى دارفور عن السحر والتعزيم والدمازيق وما إليها يزودهم بمادة هامة عن هذه الموضوعات . وقد كانت رحلتا التونسى إلى دارفور ووداى من مراجع بومان **H. Baumann** ووسترمان **D. Westermann** في كتابهما عن شعوب إفريقية[٢] وحضارتها » . كما كانتا

---

(١) ص ٣٦٦ : ٣٦٩

(٢) الترجمة الفرنسية عن الألمانية باريس سنة ١٩٥٧م ص ٥٤٠

من مراجع سير جيمس جورج فريزر J. G. Frazer في موسوعته عن السحر التى أسماها « الغصن الذهبي » . وفي النسخة المختصرة لهذه الموسوعة نقل فريزر بالحرف الواحد ما ترجمه بيرون إلى الفرنسية[١] فيما يلى

Il (le Sultan) s'enveloppe la face avec une mousseline, blanche qui fait plusieurs fois le tour de la tête, puis est ramenée sur la bouche et sur le nez, et ensuite sur le front, en telle sorte qu'on n'aperçoit absolument que les yeux.

ونشير إلى ما نقله فريزر مكتوباً بنمط آخر من الحروف :

The same motive of warding off evil spirits probably explains the eustom observed by some African sultans of veiling their faces. *The Sultan of Darfur wraps up his face with a piece of white muslin, which goes round his head several times, covering his mouth and nose first, and then his forehead, so that only his eyes are visible.* [٢]

٥٧ — ص ٣٣٩ : ختم[٣] بيرون الرحلة بسطور أربعةهى دون شك من إنشائه ولانظن أنه أخذ رأى التونسى في تنميقها . ومن الطريف فيما كتبه بيرون أن عدوى التزام السجع قد انتقلت إليه ، وقد وفق في إيراد فواصل صحيحة للسجعات غير أنه أخطأه التوفيق في سجعة واحدة وهى : « وذلك برسم وخط السيد بيرون ، بنعمة الله وعون » . وكان ينبغى أن تكون « بنعمة الله وعونه » . . وكان يمكن أن ينتظم له السجع لو أضاف إلى ما كتب بضع كلمات كأن يقول : « بنعمة الله الذى نستمد منه كل عون » .

٧ — الترجمة العربية للذيل الذى ألحقه بيرون بترجمته لرحلة دارفور :

لقد أحسن المحققان في نقل هذا الذيل الخاص بأبي مدين إلى اللغة العربية كما أحسنا في نقل صورة هذا الأمير الفوراوى ولكنهما لم يعرفا القارئ

---

(١) يقع هذا فى ص ٢٠٣ من الترجمة الفرنسية للرحلة والنص العربى فى ص ٢١٠ من التحقيق .

(٢) يقع هذا النص الذى نقله فريزر عن ترجمة بيرون لرحلة التونسى الى دارفور ص ص ٢٠٠ من النسخة المختصرة لموسوعة الغصن الذهبى ، لندن سنة ١٩٥٩م .

(٣) لم يتيسر لنا فى هذه المقتطفات ايراد جميع الاستدراكات التى تبلغ عدتها نحو مائتين . كما تعذر علينا ايراد الترجمة العربية لحواشى بيرون .

بسيرته وما انتهى إليه أمره[١] . كما أن المحققين قد أخطآ عدة أخطاء في الترجمة ونسيا تعريب بعض الأسطر والعبارات ونجمل ملاحظاتنا فيما يلي :

١ — ص ٣٥١ في ترجمة الذيل : وللفقيه المحسى هذا وجه صغير ، وفي الأصل كلمة Physionomie التى ظن المترجمان أن معناها وجه صغير مع أن معناها السحنة أو السيماء أو التعبير الناشئ عن السمات والملامح كما عرّب المترجمان عبارة intelligence rapide أنها .« ذكاء سريع » . وهذا تعبير غير مألوف في اللغة العربية . وكان أولى أن يقال ذكاء متقد أو بديهة حاضرة أو خاطر لماح . كما لم يعرب المترجمان الجملة الأخيرة في الفقرة الفرنسية السابقة وترجمتها : « ولاغرو فإني لم أر بين السودانيين من يماثله في قوة ملامحه المعبرة ».

٢ — عرب المترجمان عبارة gagne le large في ص ٣٤٨ وعبارة prirent le large في ص ٣٥٠ بأنه أسرع الخُطُى نحو البحر (النيل) في الأولى وبأنهم هرعوا إلى ناحية البحر (نهر النيل) في الثانية . ويلاحظ أولاً أن البحر والنيل ونهر النيل لم يرد في الأصل ، ثانياً يفيد هذان التعبيران معنى s'enfuir أى فروا ، أو هربوا أو لاذوا بالفرار أو ولوا الأدبار الخ.

٣ — عرب المترجمان كلمة hameaux في موضعين في ص ٣٤٧ و ص ٣٤٩ على أنها الربي جمع ربوة مع أن معناها : مجموعة من المنازل الريفية البعيدة عن المركز الإدارى للناحية أى قرية صغيرة أقل من الدسكرة ويطلق عليها في لغتنا كفر وجمعها كفور .

٤ — ص ٣٤٨ : « وألقى الأمير أبو مدين بنفسه على تور فيجه » . وفي الأصل أن الذى ألقى بنفسه لم يكن أبا مدين وإنما هو أخوه .

٥ — وردت في نهاية ص ٣٤٥ عبارة « تونج باسى » التى لم يشرحها المترجمان كما لم يدرجاها في معجم المفردات الفوراوية وقد شرحها بيرون

---

(١) أورد ريتشرد هيل ترجمة له فى كتابه معجم لتراجم أعلام السودان (اكسفورد سنة ١٩٥١م ص ٢٦٤) .

في الترجمة الفرنسية بقوله : إن كلمة تونج الفوراوية يراد بها مسكن أو دار وكلمة باسى يقصد بها أخ كما أنها من ألفاظ التشريف وعلى ذلك فإن تونج باسى تفيد : دار الأمراء الإخوة أو دار الأمراء الصغار .

٦ — في ص ٣٧٤ من الأصل الفرنسى جملة لم يعربها المترجمان وترجمتها : إن السلطان لاشتغاله بأمر هذا الزواج والحفل الذى ينوى إعداده له أعطى أخويه الإذن الذى طلباه » . وتقع هذه العبارة في السطر ١٣ ص ٣٤٦ من الترجمة العربية .

٧ — ص ٣٥٢ : « واستقبل الأمير أبو مدين استقبالاً رسمياً . ولا نجد أثراً لكلمة رسمياً » في الأصل الفرنسى في ص ٣٨١ كما لم تكن للأمير أبي مدين عند زيارته لكردفان هارباً من أخيه سلطان دارفور أية صفة رسمية . والأصوب استقبل استقبالا يقتضيه مقامه .

٨ — ص ٣٥٦ من الترجمة : هناك جملة ناقصة لم يعربها المترجمان وهى في رسالة أحمد باشا إلى محمد على وتقع في سطر ٣ و ٤ في ص ٣٨٦ من الأصل الفرنسى وترجمتها : « وأنه يعتقد أنه لا يلزم لنجاح الحملة إرسال قوة كبيرة كهذه » .

٩ — الفقرة الأخيرة في ص ٣٦٤ من الترجمة وص ٣٩٦ في الأصل الفرنسى ، نرى فيها كلمة « أو » بدلاً من واو العطف في الأصل مما يخل بالمعنى ، كما أن الترجمة العربية غير دقيقة ولعل الأفضل أن تكون كما يلى : « وسوف يظل أبو مدين الحاكم المطلق يثبت ملكه ويوطد دعائم نفوذه دون أن يسعى أحد إلى التدخل في شئونه . وأخيراً لا تلبث الجنود المصرية أن تجلو وتعود إلى كردفال إذا ما أبدى رغبته في جلائها » . وقد علق ديهيران[1] H. Dehérain على هذه الفقرة بقوله : « ليس ذاك هو العالم الذى يتكلم

(١) السودان فى عهد محمد على ، باريس سنة ١٨٩٨م ص ١٠٢

هنا » معززاً قوله بما كتبه رينان(١) عن بيرون بأنه « كان ذا طبيعة خيرة وأن اتصالاته بمذهب السان سيمونيين أوجدت لديه استعداداً للإستغراق في أوهام تعلقه بالشرق » . ونحن مع اعترافنا بخطأ بيرون في تفكيره السياسي فإنه لم يذهب في تعلقه بالشرق إلى الحد الذى يصوره لنا رينان .

٨ ـ مستوى پيرون فى الدراسات العربية :

كتب جاك تاجر(٢) عن بيرون أنه امتاز على سائر الأساتذة الأجانب بإجادة اللغة العربية . وذكر جرجى زيدان(٣) أن التونسى كان يثنى على عربية بيرون . ومع إعجابنا بهمة بيرون ،في الدراسات العربية وترجمته لبعض نصوصها — وننوه بصفة خاصة بما أسداه من خدمات في تزويد كل من أدب الرحلات العربي والإفرنجي برحلتى التونسى ، إذ لولاه لما أقدم التونسى على تدوينهما — فإن علينا أن نقف وقفة قصيرة لتحديد مدى تحصيله في ميدان الدراسات العربية لأنه يتوقف على دراسة هذه النقطة الطريقة المثلى في تقويم النص العربي لرحلة التونسي إلى دارفور . لقد ذكر في مقدمتها أنه جمع ما كتبه الشيخ عن هذه الرحلة ونسخه بخط يده وأعاد قراءته عليه . ونحن نشك في صحة دعواه هذه ، نظراً لما تزخر به هذه الرحلة من أغلاط لا يعقل أن يكون التونسي قد سمعه يقرأها ثم وافق عليها وتركها دون تصويب . ولا بد أنه أساء النقل كما أساء القراءة إذ بين هذه الأغلاط كما ذكرنا مالا يصدر إلا عن مبتدىء في دراسة علوم اللغة العربية لم يتسن له الإلمام بأيسر قواعدها . وهو على ما بذل من جهد في دراستها لم يصب منها حظاً كبيراً . ويضاف إلى ذلك أنه في ترجمته الفرنسية للرحلة يخطىء أحياناً في فهم النص العربي بما يؤدى إلى مسخه وتشويهه . نذكر على سبيل المثال : ما جاء في ص ٧٨ من التحقيق :

---

(١) المجلة السياسية والأدبية سنة ١٨٧٨م ص ٢٠٠ نقلا عن ديهيران فى الموضع السابق .

(٢) ص ٤٧ من كتابه : حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر ، القاهرة سنة ١٩٤٥م .

(٣) لم يذكر لنا زيدان المصدر الذى استقى منه ثناء التونسى على عربية پيرون ونرى أنه لو صح هذا الخبر فان التونسى انما قصد به التشجيع والمجاملة .

« فتأملها فوجدها كالشمس في رابعة النهار » ترجمها في ص ٦١ من الترجمة الفرنسية بما معناه أنها بدت له كالشمس في الساعة الرابعة من النهار . ولنتصور مبلغ ما يشعر به القارئ الفرنسي لترجمته من حيرة بسبب تحديد هذا الوقت بالذات ولماذا لا يكون قبله أو بعده ؟ وكان بوسعه أن يتصرف قليلاً كأن يقول مثـــلاً : **avoir l'éclat du soleil dans toute sa splendeur.**

بدلا من قوله : **(à la quatriéme heure du jour)**

وعبارة « لله دَرّ الطغرائي حيث يقول » في ص ٤٢ من التحقيق ترجمها بيرون في ص ٤١٩ من الترجمة الفرنسية كما يلي :

Lait de Dieu pour Togray qui a tracé cls vers :

أى « لبن الله للطغرائي الذى قال هذه الأبيات » . ولنتخيل مرة أخرى مدى غرابة هذا التعبير في نظر القارىء الفرنسي لترجمته مع أن المقصود به أن يقال لكل متعجب منه . وكان بوسعه أن يستفسر من الشيخ التونسي عن هذا التعبير « لله دره » الذى يرد كثيراً في كتب الأدب أو أن يرجع في استيضاحه إلى القاموس المحيط الذى طال ما أشار إليه في رسائله إلى صديقه موهل . وقد جاء فيه : لله دره أى عمله ولا درّ َدرُّه أى لازكا عمله . ولسنا هنا بصدد معارضة الترجمة الفرنسية للرحلة على أصلها العربي ولكنا نستدل من هذه الأغلاط والسقطات سواء في النص العربي أو الترجمة على أن بيرون فاتته أشياء كثيرة كان بوسعه أن يتداركها لوأنه كان قد توخى مزيداً من الدقة في عمله .

ونرى أنه كان من الطبيعي أن تصدر هذه الأغلاط من الطبقات الأولى من المستشرقين الذين ظهروا منذ أوائل القرن الماضى ، إذ كانوا لا يزالون حديثي العهد بالدراسات العربية . غير أن جهودهم مهدت السبيل لمن جاءوا بعدهم ويسرت للخلف من الحذق والدراية ما فاقوا به على السلف ، نلمس هذا في أية موازنة نعقدها بين أعمال متقدميهم وأعمال متأخريهم .

هذا وقد تصدى لموضوع مستوى المستشرقين في الدراسات العربية في أواسط القرن الماضى الكاتب اللغوى اللبناني الشهير فارس الشدياق (١٨٠٩ — ١٨٨٧ م) أحد أعلام النهضة العربية في القرن الماضى وذلك في

كتابه : الساق على الساق فيما هو الفارياق الذى طبعه في باريس في سنة ١٨٥٥م عند الناشر بنامين دوبرا B. Duprat الذى كان قد نشر الترجمة الفرنسية لرحلة التونسى إلى دارفور في سنة ١٨٤٥ م . ففي نهاية الطبعة الباريسية لكتاب الساق على الساق في ص ٧١٢ ألحق مؤلفه ذيلاً لكتابه بترقيم جديد يقع في ٢٤ صحيفة سماه : : ذنب الكتاب : وينتظم به لآلىء أغلاط الرءوس العظام الأساتيذ الكرام مدرسى اللغة العربية في مدارس باريس » . وقد عرض فيه لأخطاء المستشرقين في نشرياتهم وقال بان هؤلاء الأساتذة لم يأخذوا العلم عن شيوخه من أبناء البلاد الشرقية وإنما تطفلوا عليه تطفلاً وإن من تخرج فيه بشىء توهم أنه يعرف شيئاً وهو يجهله وأن من درس في إحدى لغات الشرق أو ترجم شيئاً منها تراه يخبط فيها خبط عشواء » . ثم تناول الشدياق عدداً من نشرياتهم نذكرمنها الطبعة العربية الثانية لمقامات الحريرى التى أشرف على تحقيقها المستشرقان رينو وديرنبور والتى نشراها في باريس في سنة ١٨٤٧ م . وقد أورد الشدياق جدولا ضخماً بأخطائهما في هذه الطبعة استهله بقوله : « واعلم أيها القارىء أني لم أجد من بين جميع ما طبعوا بلغتنا ما هو جدير بالانتقاد سوى مقامات الحريرى ، وإني لضيق وقتي حالة كوني على جناح السفر لم يمكن لى النظر إلا في أبيات الشرح فقط . وقد وكلت غيرى في نقد الباقي كما وكلني العلماء في نقد الأبيات » .

وعرض الشدياق في ص ٨ من الذيل على كتاب الساق لأخطاء الطبعة الحجرية للنص العربي لرحلة التونسى إلى دارفور التى نشرها بيرون في باريس في سنة ١٨٥٠ م إذ كتب يقول : « ثم عثرت بعد ذلك برحلة العالم الأديب الشيخ محمد بن السيد عمر التونسى مطبوعة على الحجر من خط مسيو بيرون وقد شحنها كلها بالتحريف والغلط مما لاتصح نسبته إلى أدني تلامذة الشيخ المذكور . أيمكن لأحد من الطلبة فضلاً عن العالم أن يقول : جُوده ناسخٌ لكل الوجود ، أى لكل الجود ؟ وأن يكتب العصا بالياء غير مرة ؟ وأعلى أفعل التفضيل بالألف نحو عشرين مرة ؟ ونجا بالياء ؟ وأتعمى المعالمون عن الضياء(١) ؟ وآمنين مطمئنين حالة كونهما مرفوعين ؟ وفلاحين مصر؟

(١) صوابها : أيعمى العالمون عن الضياء .

ومحمودين السيرة ؟ واستوزر الفقيه مالك[1]؟ ولايعصى بالألف؟ ولا أرى سوء رأيك أى لا أرى سوى رأيك ؟ ويتعدى رأيه بالألف ؟ واثنى عشر ملك ؟ ومن حيث أن أباديما والتكيناوى متعادلين أى متعادلان ؟ وتجد الرجال والنساء حسان ؟ ودعا لنا بالياء ؟ وعجوبة ؟ وصواحبتها وصواحباتها ؟ ولغة فيها حماس ؟ وأنهما متقاربتى المعنى ؟ وحتى تأتي أرباب الماشية فيقبضون؟ فهل إحدى منكم ؟ ويرفعون أصواتهم بذلك حتى يدخلون ؟ وماشيين؟ والمسميين؟ وحتى يشقون ؟ ومنحنيون ؟ وأنهم يكونوا ؟ ولا اعتاض أى لاعتاض ؟

« أو أنه يجهل بحور الشعر فيجعل الكامل هزَجاً والطويل مديداً وما أشبه ذلك . . . فانظر إلى هذا التخليط وتعجب » .

ويتضح مما ذكره الشدياق عن أخطاء بيرون في تحريره لرحلة التونسى إلى دارفور أنه لم يذكر سوى عدد يسير منها إذ لم يعمد إلى استقصائها كما حاولنا في ثبتنا المطول لتقويم النص . بيد أنها تعزز ما أكدناه من ضعف مستوى بيرون في علوم اللغة العربية كما تحملنا على إطراح زعمه بأنه قرأ الرحلة على مؤلفها قراءة صحيحة ، وعلى ذلك فلا مناص من اعتبار النسخة التى طبعها بيرون مغايرة لنظيرتها التى كتبها التونسى . وعلينا تبعاً لهذا ألا نتقيد بالأخطاء والسقطات التى وردت بها باعتبارها جزءاً من الأصل فنبادر إلى تصحيحها عند العمل على تحقيق نص الرحلة كما صنع على مبارك في القطعة التى نشرها من مقدمة الرحلة .

ولنا أن نتساءل بعد ذلك هل اطلع التونسى على الطبعة التى أخرجها بيرون لرحلة دارفور ، فهذه الطبعة نشرت في باريس في سنة ١٨٥٠ م وكان بيرون لايزال مقيماً في مصر لأنه بعد إعفائه من منصبه كناظر لمدرسة الطب في سنة ١٨٤٨ م اشتغل طبيباً بصحة الإسكندرية وآخر رسالة بعث بها إلى صديقه موهل إبان شغله لهذا المنصب أرسلها من الإسكندرية في الثاني من

(١) صوابها : استوزر الفقيه مالكا .

أكتوبر سنة ١٨٥٤ م أى أنه ظل مقيماً بمصر بعد نشره لرحلة دارفور نحو أربع سنوات ، فماذا كانت علاقته بالتونسى إبان عمله بالاسكندرية ؟ هل تراسلا أم انقطعت الصلة بينهما ؟ وهل احتفظ التونسى بالنسختين الأصليتين اللتين كتبهما عن رحلتيه إلى دارفور ووداى أم أعطاهما لبيرون ؟ من المعلوم أن التونسى لم يودع شيئاً من مؤلفاته في مكتبة رواق المغاربة التى ضمت فيما بعد إلى مكتبة الأزهر مع مكتبات الأروقة الأخرى . كما أن بيرون لم يودع شيئاً منها في المكتبة الأهلية في باريس كما صنع الدكتور كلوت في مخطوطة الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية . وإذا كان بيرون قد قصر في نشر النص العربي لرحلة التونسى إلى وداى أولم تتهيأ له العوامل المساعدة على نشرها ، فقد كان واجبه العلمى يحتم عليه أن يودع نسختها الخطية في مكتبة عامة كالمكتبة الأهلية بباريس حتى يتيسر لغيره من الباحثين الاطلاع عليها في أصلها العربي أو التفكير في نشرها . ويبدو أنه شغل فور فراغه من ترجمة رحلتى التونسى بترجمة مختصر خليل التى لم يتيسر لنا الاطلاع عليها ولكن أشار إليها المستشرق هنرى لامنس[1] H. Lammens (١٨٦٣ – ١٩٣٧ م) المعروف باطلاعه الواسع على المصادر العربية بما يفهم منه أنها ترجمة غير جيدة وأنه تفوقها كثيراً من حيث الدقة الترجمة الإيطالية للمختصر التى قام بها سانتيلانة وجويدى والتى نشراها في ميلانو في مجلدين في سنة ١٩١٩ م .

٩ ــ سيرة التونسى :

إن علينا في سبيل الإجابة على الأسئلة التى تتعلق بالتونسى أن نستقصى ما يتعلق بسيرته . ولقد زودنا هو في مقدمة رحلته إلى دارفور بترجمة ذاتية أوجز فيها كما أنه وقف فيها هى ورحلته الأخرى إلى وداى إلى وقت عودته إلى مصر بعد أن كان يعمل واعظاً في الجيش المصرى في المورة . أى أنه

---

(١) الاسلام عقائده ونظمه (بالفرنسية) الطبعة الأولى نشرت فى بيروت سنة ١٩٢٦ والثانية بعد وفاة المؤلف فى سنة ١٩٤١م ونص عبارة المؤلف عن ترجمة پيرون لمختصر خليل تقع فى ص ٣٠٥ من الطبعة الثانية .

تنقصنا تفصيلات عن سيرته ابتداءً من سنة ١٨٣٢ م إلى وفاته في سنة ١٨٥٧ م وقد زودنا المستشرق فون كريمر ببعض البيانات عن هذه الفترة وذلك في كتابه[1] **Aegypten** حيث ذكر أنه عند قدومه إلى مصر لأول مرة في سنة ١٨٥٠ م كان التونسي واحداً ممن قاموا بتعليمه اللغة العربية ، ولابد أن بيرون هو الذى قدم التونسى إلى كريمر ولعل كتاب كريمر السالف الذكر هو مرجع من كتبوا عن السنوات الأخيرة من حياة التونسى حيث قيل بأن التونسى أخذ في إلقاء دروس دينية في الحديث كل جمعة في السنوات الأخيرة من حياته في مسجد السيدة زينب وأنه توفي بالقاهرة في سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧ م.

ومما يؤسف له أن تقليداً صالحاً في الترجمة لأعلام كل قرن هجرى قد اندثر منذ القرن الثاني عشر الهجرى إذ لم يظهر بعد المرادى والجبرتي من يترجم لأعلام القرن الثالث عشر والرابع عشر وما بُذل من محاولات في هذا الصدد لم يبلغ شأو المؤلفين القدامى الذين خلفوا لنا موسوعات كبيرة في تراجم أعلام عصورهم ولو كان لدينا ما يماثلها لظفرنا بترجمة وافية لمحمد بن عمر التونسى .

ويقتضى الحديث في سيرة التونسى أن نشير إلى مواطن آخر له يدعى زين العابدين التونسى الذى لم يتيسر للمستشرق شتريك[2] **Streck** أن يعرف عن سيرته شيئاً سوى أنه كان معاصراً لمحمد بن عمر التونسى وأن سيرته تشبه سيرة الأخير شبهاً قوياً فقد كان عالماً واسع الاطلاع ، درس في الأزهر وكان على اتصال وثيق بالأوروبيين في سنة ١٨١٨ م أو سنة ١٨١٩ م وأنه سافر إلى السودان في مقتبل حياته . ويبدو أنه قضى مثل التونسى في البلاد السودانية نحو عشر سنوات . فقد ذهب أولاً إلى سنار ثم إلى كردفان وأقام لفترة طويلة في دارفور ووداى . وكان يتكسب في البلاد التى جال فيها بالعمل واعظاً ومدرساً . وبعد أن قضى ثلاث سنوات في وداى عاد إلى تونس عن طريق فزان . وقد سجل مشاهداته في البلاد السودانية في كتاب طبع

---

(١) جـ ٢ ص ٣٢٤ ليبزج سنة ١٨٦٣م نقلا عن شتريك .

(٢) محرر المادة الخاصة بمحمد بن عمر التونسى فى الموسوعة الاسلامية القديمة المجلد الرابع من النسخة الانجليزية (لندن سنة ١٩٣٤م) .

ونشر ولم يهتد شتريك إلى تاريخ أو مكان طبعه . وقد ترجم الكتاب من العربية إلى التركية وطبعت الترجمة في استانبول في سنة ١٢٦٢ هـ - ١٨٤٦[1]م ثم قام المستشرق فون روزن **von Rosen** بترجمة النسخة التركية إلى الألمانية ونشرها في ليبزج في سنة ١٨٤٧ م . وتنحصر أهمية كتاب زين العابدين التونسى في وصفه لحضارة دارفور ووداى ونظامهما الاجتماعي حيث أورد بيانات عن حياة البلاط والقبائل والأرقاء والتجارة والعقائد الشعبية وتقاليد الأفراح وغيرها ، مما يعد تكملة هامة لما أورده محمد بن عمر التونسى عنها في صورة أكثر تفصيلاً . ومما استرعى نظر شتريك في كتاب زين العابدين التونسى وصفه لما قام به من الحفائر الأثرية التى أجراها في الأطلال القريبة من العاصمة وذلك بتصريح من سلطان وداى ثم مغادرة زين العابدين لوداى عندما تولى عرش السلطنة سلطان جديد .

١٠ ـ خاتمــــة :

بعد أن أشرنا إلى عدم التقيد بالأخطاء والسقطات التى وردت في نص الرحلة التى نشرها بيرون ووجوب المبادرة إلى تصويبها لتنقية النص من هذه الشوائب ثم التعريف بما ورد به من أعلام الأشخاص والأماكن وغيرها ونسبة الأشعار إلى قائليها وشرح غريب اللغة ، كان يحسن بالمحققين أن يترجما مختارات من مقدمة كل من جومار وبيرون يراعى في اختيارها إثبات ما يتعلق منها بدارفور والرحلة ومؤلفها والبلاد التى زارها . ففى إثبات جانب من هاتين المقدمتين رعاية لحقهما حيث أنه يرجع إليهما الفضل في تدوين المؤلف للرحلة ثم في نشرها وترجمتها ، فضلاً عن القيمة التاريخية لما كتباه .

وإذا اتسع المجال بعد ذلك لتذييل رحلة التونسى بكتابات أخرى عن دارفور فإنه يحسن أن يراعى في اختيارها أن تكون مما كتبه رحالة آخرون

---

(١) حصل الأستاذ الشاطر بصيلى على نسخة من الترجمة التركية لكتاب زين العابدين التونسي ونرجو أن يوفق لترجمتها الى العربية ونشرها خدمة للدراسات السودانية .

قريبو العهد من رحلة التونسي حتى تتهيأ للقارئ فرصة الموازنة بين روايات شهود العيان لبلد واحد . ويحسن أن تكون على جانب من الإيجاز والاختصار فلا تطغى على ما يجب أن يوليه القارئ من اهتمام برحلة التونسي ، ومن الجائز أن يضاف إليها ملاحظات رحالة آخرين قريبي العهد برحلة التونسي وترامت إليهم معلومات عن دارفور في خلال رحلاتهم في البلاد السودانية . وعلى ذلك فإنا لانرى وجهاً لتذييل رحلة التونسي بما كتبه نعوم شقير عن دارفور فالتونسي كتب عن مشاهداته في تلك البلاد في العقد الأول من القرن الماضي وشقير كتب عن روايات شفوية سمعها عن تاريخ دارفور ودونها قبيل ظهور كتابه في سنة ١٩٠٣ م فالشقة الزمنية بين كتابة كل منهما تزيد على ثلاثة أرباع القرن . كما أن كتابة شقير ليست وصفاً لرحلة قام بها مؤلفها إلى دارفور سجل فيها مشاهداته مما يجعلها بعيدة الصلة بكتاب التونسي وإذا كان للأخير قيمة تاريخية فلأنه يصف لنا معالم وأحوالاً في دارفور طرأت عليها عدة تغييرات وتطورات فيما بعد ، ومع ذلك فإن كتاب التونسي يُعَد من كتب الرحلات وليس من كتب التاريخ إذ لايتضمن سوى نبذة في سيرة السلطان عبد الرحمن الرشيد .

ليس لدينا إذاً سوى رحلة وليم جورج برون **W. G. Broune** إلىدارفور التي سبقت رحلة التونسي بعشر سنوات فحسب . ومع أنه أنه لم يُتَح له التجوال في دارفور بسبب اعتقاله أو تقييد حركاته ومرضه ، فقد تيسر له أن يجمع طائفة من البيانات الهامة عن هذه البلاد في أواخر القرن الثامن عشر نعتقد أنه يشوق القارئ لرحلة التونسي أن يقف عليها ليعقد موازنة بين روايتي رحالتين قريبي العهد بزيارة دارفور . ولكنا لانقصد ترجمة كل ماكتبه برون عن هذه البلاد إذ أن هذا يستغرق كتاباً بأكمله . وإنما يقع الاختيار فيما عقده برون من فصول عن دارفور(١)على الفقرات الخاصة بنظام الحكم

---

(١) عقد برون ستة فصول عن دارفور من الفصل ١٥ الى الفصل ٢١ من ص ١٨٠ الى ص ٣٥٠ والمختار من هذه الصفحات لكي تكون ذيلا على رحلة التونسي لا يتجاوز حيز الصفحات السبع والأربعين المنقولة عن كتاب شقير .

والمهاداة بين سلطان دارفور والباب العالى والتعليم والعادات مما يتصل سواءً بالموضوعات التى تناولها التونسى في رحلته أو أغفل تدوينها ولكنها تكمل الصورة التى رسمها لنا التونسى ونظراً لأن كتابة بيرون عن دارفور تشتمل على قدر من الغث مما يمكن إهماله فإن الفقرات المختارة منها لاتزيد في جملتها عن الصفحات التى نقلت من كتاب شقير ، وذيلت بها رحلة التونسى. وإذا صح ما قاله المحققان تبريراً لإضافة هذا الذيل من أن كتاب شقير الذى طبع في القاهرة في سنة ١٩٠٣م غدا من الكتب النادرة التى يصعب الحصول عليها فما قولهما في رحلات برون التى طبعت في لندن في سنة ١٧٩٩ م

وإذا كنا لانقصد من هذه التذييلات عمل مجموعة أو **Corpus** من كتابات الرحالة الذين زاروا دارفور فإن رحلة ناختيجال تلى في الأهمية رحلة برون من حيث قربها الزمنى من رحلة التونسى . أما كتابات الرحالة الذين جالوا في البلاد السودانية ولم يزوروا دارفور ولكن ترامت إليهم معلومات عنها دونوها في كتبهم أو ذيلوها بها ففى مقدمتها رحلات بوركهارت في بلاد النوبة[١] ورحلات يالم **Ign. Pallme** في كردفان[٢] ورحلات بارث **H. Barth** في البلاد السودانية[٣] .

وأخيراً كان يحسن بالمحققين أن يشيرا إلى البيانات التى وردت عن دارفور في رحلة التونسى نفسه إلى وداى . وهذا يصل بنا إلى ما يعتزمه المحققان وهو الإعداد لنشر رحلة التونسى إلى وداى التى نعتبرها جزءاً مكملاً لرحلة

---

(١) أفرد بوركهارت الذيل الأول لكتابه : رحلات فى بلاد النوبة (لندن سنة ١٨١٩م) لما سمعه فى أسفاره عن دارفور والبلاد المجاورة لها ، ويستغرق هذا الذيل خمسة عشرة صحيفة من ص ٤٧٧ الى ص ٤٩٢ ومما يؤسف له أن الترجمة العربية لرحلات بوركهارت (القاهرة سنة ١٩٥٩م) جاءت خلوا من ترجمته .

(٢) رحلات يالم فى كردفان نشرت فى لندن سنة ١٨٤٤م وقد وردت بها عدة بيانات عن دارفور .

(٣) نشرت رحلات بارث فى لندن سنة ١٨٥٧م فى خمسة مجلدات بعنوان : رحلات وكشوف فى شمالى افريقية ووسطها فيما بين سنتى ١٨٤٩ و ١٨٥٥ م وتعد موسوعة ثمينة عن أحوال البلاد السودانية فى أواسط القرن الماضى .

دارفور يجمعهما العنوان الذى اختاره المؤلف لهما وهو : « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » . وقد استدللنا فيما سبق من رسائل بيرون إلى موهل على أن الرحلتين إنما هما كتاب واحد وأن تقسيمهما إلى كتابين إنما هو من صنع بيرون ومما يزيد ذلك تأكيداً ماكتبه بيرون على صحيفة الغلاف لترجمته لرحلة وداى إذ يضيف إلى اسم الرحلة بأنها تؤلف تكملة لرحلة دارفور ونص كلمته هو :

Et Faisant Suite au Voyage au Darfour.

وعنوان التونسى لكتابه يتفق مع ماجاء في رحلتيه عن كل من العرب والسودانيين أياً كانت البلاد التى يقيمون بها والتى اتصل المؤلف بأهلها . هذا ويعد نشر الجزء الثاني من تشحيذ الأذهان عملاً عظيماً إذا وفق المحققان في العثور على نصه العربي في مَظَانِّه سواءً في المكتبات العامة والخاصة في فرنسا أو لدى ورثة بيرون إذا كانوا يحتفظون بالنسخة العربية . ونقترح لتشجيع البحث عن هذه النسخة رصد مكافأة مالية سخية تتقدم بها الهيئات المعنية بالمخطوطات العربية ومصادر التاريخ السوداني والإفريقى تعطى لمن يوفق في العثور عليها . أما إذا لم تجْد هذه المحاولات وثبت قطعاً أن النسخة العربية قد فُقدت فإنه لامناص من تعريب الترجمة الفرنسية لرحلة وداى وإعادتها للأصل الذى كانت عليه .

ولكن كيف يتسنى صوغ الترجمة العربية بما يقارب النص الذى دونه التونسى؟ هذه هى المشكلة الكبرى التى إذا استهين بها وتعجل القائمون بالترجمة في نشر الرحلة فسيلحق بها من المسخ والتشويه[1] ما يذهب بقيمتها وروعتها يجب أن يسبق تعريب رحلة التونسى إلى وداى ما يمكن أن يسمى بالتمهيد إلى تعريبها . ولاداعى لأن نذكر قبل إيضاح هذا التمهيد ما يجب أن يتوافر

(١) فى ص ١١ من الترجمة العربية لكتاب العرب والروم بقلم ڤاسيليت A. Vasiliev : « وقد جاء فى شعر منسوب الى أحد الولاة أيام خلافة مروان الثانى آخر الأمويين : اهجر مكانك وقل سلام الله على العرب » . وليس هذا شعرا بطبيعة الحال . ولو كان المترجم قد كلف نفسه عناء الرجوع الى كتب التاريخ الاسلامى لعرف أن اسم هذا الوالى هو نصر بن سيار الذى كان واليا على خراسان من قبل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين وأنه شهد من =

في مترجمى الرحلة من إجادة اللغة المنقول منها واللغة المنقول إليها . ونلخص هذه الخطوات التمهيدية فيما يلي :

١ — تشبع المترجمين بأسلوب كتابات الجغرافيين والرحالة العرب فضلاً عن رحلة المؤلف نفسه إلى دارفور .

٢ — إعادة الأجزاء التى حذفها بيرون من صلب الرحلة[1] على اعتبار أنها من الاستطرادات البعيدة عن موضوعها والتى رمز إليها بحرف S وذلك إلى مواضعها السابقة في متن الرحلة . وكان قد أحالها بيرون على باب المذكرات والإيضاحات التى ذيل بها الترجمة وهذه الأجزاء المنقولة من مكانها تستغرق نحو مائة صحيفة وتشتمل على نوادر تاريخية تتعلق بالنعمان بن المنذر وجذيمة الأبرش وأخبار الخلفاء والخوارج وبعض الشعراء مثل أبي نواس ومقتبسات من مؤلفات الشعراني وأخبار تاريخية عن طرابلس وتونس وما يتخلل كل ذلك من أشعار لم ينسبها المؤلف إلى قائليها فضلاً عن الأحاديث النبوية التى لم تحدد مواضعها في كتب الحديث كما تشتمل على عدد قليل من الآيات القرآنية التى لم تحدد مواضعها كذلك .

٣ — وفيما يتعلق بالأحاديث النبوية يُعرف موضوعها الذى تتناوله ثم يبحث عن نصوصها عن طريق الاستعانة بفهارس الحديث مثل مفتاح كنوز السنة وذخائر المواريث ثم يرجع إلى بعض المختارات المصنفة مثل مصابيح السنة للبغوى وتيسير الوصول للشيباني والترغيب والترهيب للمنذرى وكنوز الحقائق للمناوى أو للمطولات مثل كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لحسام الدين الهندى .

= اظهار الدعوة العباسية فى خراسان ما حمله على تنبيه الخليفة الى الخطر المحدق بالدولة فى كتاب بعث به اليه وشفعه بأبيات مشهورة فى كتب الأدب والتاريخ مطلعها :

أرى خلل الرماد وميض جَمْر ويوشــك أن يكــون له ضرام

وآخرها هو البيت الذى استشهد به ڤاسيليف وهو :

فَفِرِّى عن رحالك ثم قــولى على الاســلام والعرب السلام

فأين هذا من الترجمة التى أوردها المترجم ؟ اننا نرجو ألا يلحق رحلة التونسى الى وداى عند ترجمتها من المسخ والتشويه ما يماثل هذا .

(١) اتبع پيرون هذه الطريقة فى ترجمته لرحلة التونسى الى دارفور .

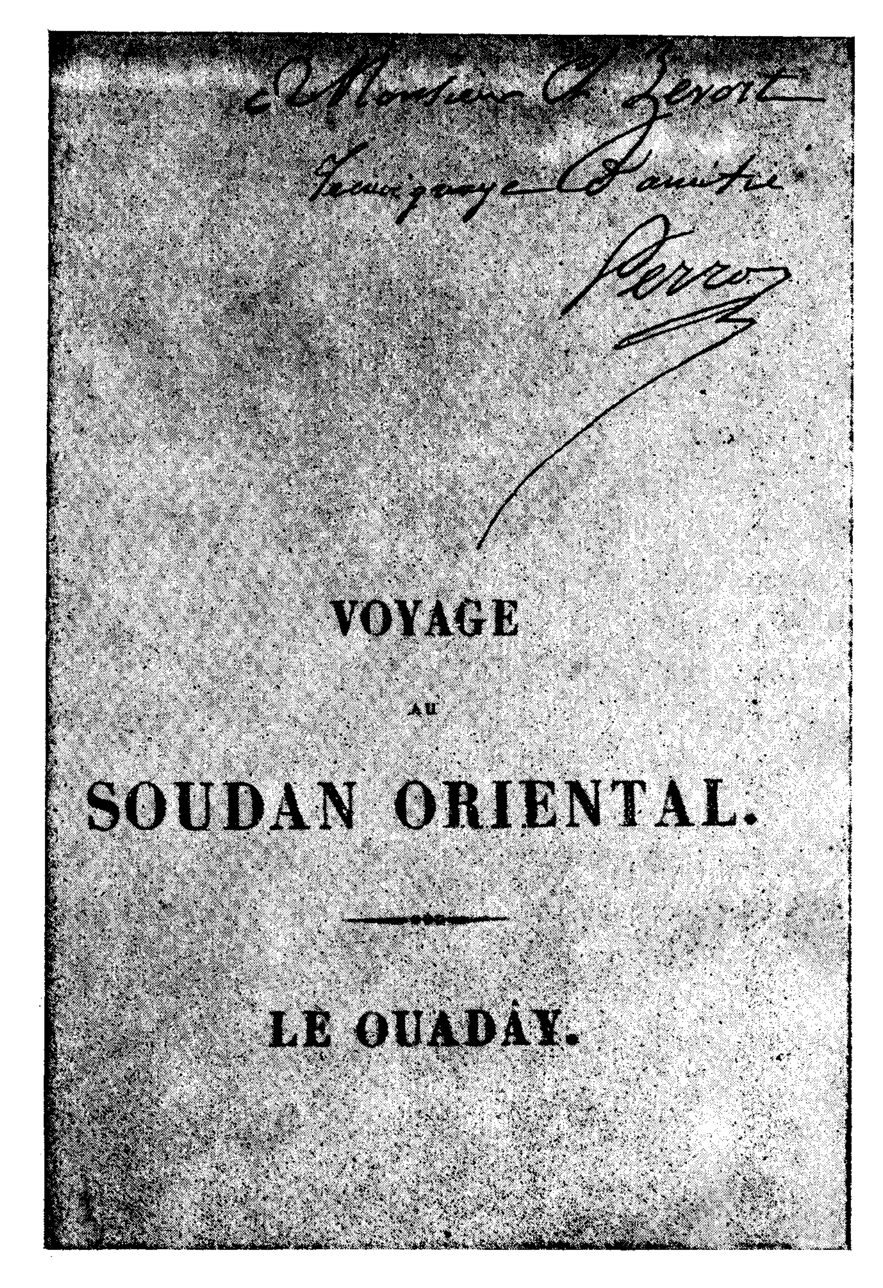
٤ — وفيما يتعلق بالأشعار يحسن البدء بترجمة معانيها والبحث عن نصوصها في كتب الأدب والمجاميع الأدبية مثل الأغاني وعيون الأخبار والكامل والعقد ويتيمة الثعالبي ومحاضرات الأصبهاني والمستطرف وبعض الدواوين والمختارات وغيرها .

٥ — محاولة الإطلاع على الكتب العربية التي يعتقد أن التونسى قد اطلع عليها وكان لها أثر في أسلوبه وتفكيره ونضيف إلى ماذكرنا منها فيما يتعلق بالشعر كتب المقامات للبديع والحريرى وشرح الصفدى على لامية العجم وثمرات الأوراق لابن حجة وغرر الخصائص الواضحة للوطواط وحَلْبة الكُمَيت للنواجى والكشكول والمخلاة كلاهما للعاملى وقد سبقت لنا الاستعانة بهذه المؤلفات في معرفة أسماء الشعراء الذين تمثل التونسى بشعرهم في رحلته إلى دارفور .

٦ — وأخيراً يجب أن يضع المترجمون في اعتبارهم ما قد يقع من بيرون من خطأ في ترجمة النص العربي

وهذه الخطوات التمهيدية مع ما تستغرقه من وقت وجهد لايقصد بها تجسيم مصاعب الترجمة ولكن يراد بها صوغ الرحلة إلى وداى بما يقارب الأسلوب الذى سار عليه التونسى في تدوينها ، وذلك حتى نعالج تقصير بيرون في نشر نصها العربي .

هذا ولم يدفعنى لتقييد هذه الاستدراكات التى لم تتسع صفحات المجلة التاريخية إلا لنشر مقتطفات يسيرة منها سوى ماذكره المحققان في ختام مقدمتهما لتشحيذ الأذهان من أنهما يناشدان كل قارئ كريم أن يمدهما بما عساه يتراءى له من ملاحظات تساعدهما على استيفاء ما هنالك من مواضع تستأهل إعادة النظر في إخراج الكتاب » . كما يأملان « أن يمدهما القارئ بما ينير لهما الطريق في إخراج رحلة وداى. » وإني إذ أنوه بما بذلا من جهد وأدعو لهما بالتوفيق فيما يعتزمان القيام به ، لم أقصد من هذه الاستدراكات إلا أن أكون واحداً من أولئك القراء ؟


à Monsieur Ch. Zevort
Témoignage d'amitié
Perron

VOYAGE

AU

SOUDAN ORIENTAL.

LE OUADAY.

مثال من خط بيرون وتوقيعه ، كتبه على نسخة من ترجمته الفرنسية لرحلة التونسي إلى وداى كان قد أهداها إلى أحد أصدقائه ، ومكتوب عليها :

à Monsieur, Ch. Zevort

Témoignage d'amitié

Perron

ثم انتقلت ملكيتها إلى الدكتور هوجيه **Dr. Huguet** وانتهى بها المطاف إلى أن صارت في مكتبة كاتب هذه الاستدراكات .



الإسـلام في دراسة توينبي للتاريخ(*)

للأستاذ فؤاد محمد شبل

عرض المؤرخ العظيم أرنولد توينبي لموضوع الإسلام والحضارة الإسلامية في جميع أجزاء موسوعته التاريخية وبخاصة في الأجزاء السابع والثامن والتاسع والثاني عشر . كما أفرد للإسلام – كعقيدة دينية – مكاناً بارزاً في كتابه An Historian Approach to Religion . ويشهد للإسلام في هذا الكتاب بأنه أكثر العقائد الدينية في العالم اتفاقاً مع المنطق وأشدها صرامة في الإيمان بمبدأ الوحدانية الجليل وأعظمها وضوحاً في إدراك الإستشراف الإلهى وتسامى الذات الإلهية .

وسأعرض في دراستي هذه لطائفة من الجوانب الرئيسية التي عرض لها العلامة توينبي للإسلام كعقيدة دينية وحضارة ومجتمع مع بيان رأيه في موقف العالم الإسلامى في عالم القرن العشرين .

١ – انبعاث الاسلام

يسترعى توينبي الأذهان إلى ما صحب إنبعاث الإسلام من مظهر درامى يفوق كثيراً ما صاحب ظهور الديانتين العالميتين الأخريين : المسيحية والبوذية .

فإن حياة السيد المسيح ووفاته – كما يقول – قد مرتا دون أن يلتفت إليهما أحد ، عدا جماعة صغيرة غامضة تألفت من مريديه من يهود الجليل . ويستمد الباحث معلوماته عن رسالته من أسفار الكنيسة المسيحية إطلاقاً . إذ تكاد أن تخلو المؤلفات التي كتبت في إبان القرن المسيحى الأول (سواء باللاتينية أو اليونانية أو الآرامية) من أية إشارة أو تلميح إلى هذا الحدث العظيم .

(*) محاضرة ألقيت بدار الجمعية مساء الاثنين ٥ من فبراير سنة ١٩٦٨

والحق – كما يقرر توينبي – لم يصبح للمسيحية تأثير سياسي وديني على العالم إلا بعد رسالة السيد المسيح بثلاثمئة سنة وبفضل اعتناق الأمبراطور قسطنطين المسيحية ولم يغدُ للبوذية دور بارز في السياسة الدولية إلا بعد وفاة البوذا بمائتى سنة وبفضل اعتناق الأمبراطور آشوكا لها .

أما الإسلام ؛ فلقد أخذ تأثيره على مجريات الأمور العالمية يعظم في غضون حياة الرسول نفسه . بل لقد تولى هو شخصياً صياغة تلك المبادىء التى أثرت في السياسة العالمية ولا تزال تؤثر فيها حتى اليوم . فبعد ما استقر المقام بالنبي في يثرب : دلل على أنه عبقرية سياسية إلى جانب كونه صاحب صاحب رسالة دينية عظمى .

ولقد استطاع الرسول قبل وفاته أن يرغم طبقة مكة الأوليجاركية (متمثلة في قريش) على الإذعان لتعاليمه . وتبدّى حذقه السياسي ونبل أخلاقه وسماحة نفسه في الشروط المعتدلة غاية الاعتدال التى صالح على أساسها أعداءه . وأمكنه بعد فتح مكة أن يمد سلطانه على جزء كبير من شبه الجزيرة العربية ، وأخذت قواته تغير على مشارف الإمبراطورية الرومانية المجاورة لشبه الجزيرة . فكان ذلك إرهاصاً باستيلاء أتباعه بعد وفاته بعشرين سنة على جميع أملاك الإمبراطورية الساسانية وعلى أفضل أجزاء الإمبراطورية الرومانية : أى سوريا بمعناها الشامل ومصر .

ويعزو بعض المؤرخين ظاهرة انبعاث الإسلام على هذه الصورة الثورية وتوفيقه الساحق في الميدانين العسكرى والسياسى خلال فترة تجاوز ثلاثين سنة منذ هجرة الرسول ، إلى المدينة إلى عدم ارتباطه بقيود دينية وفاسفية تقيده بغيره من العقائد الدينية والتقاليد . فالمسيحية ارتبطت بالديانة والتقاليد اليهودية ارتباطاً وثيقاً ، كذلك ارتبطت البوذية بالتقاليد والفاسفة الهندوكية .

ولا يرضى توينبي – إطلاقاً – عن هذا التفسير . فإنه يسلِّم بإعجاز الإسلام في انبعاثه وفي استيلائه بضربة واحدة على أملاك الإمبراطورية الساسانية وعلى سوريا ومصر ؛ إلا أنه يبدى أن الإسلام لم يوفّق في التأثير

على سكان المناطق التى غزتها جيوشه بتغيير أنماطها الدينية والفنية والثقافية إلا ببطء يماثل تأثير المسيحية والبوذية في المناطق التى استقرت فيها هاتان الديانتان العالميتان . فمن رأيه أن في الوسع إخضاع الناس سياسياً وحطمَ مقاومتهم العسكرية ، لكى تكمُن الصعوبةُ البالغةُ في تعديل منحاهم التفكيرى . ولقد استمرت عملية الصياغة الفكرية ستة قرون ، ولما تُستكمل حتى الآن بدليل وجود أقليات مسيحية ومجوسية ويهودية في العالم الإسلامى في الوقت الحاضر بفضل تسامح المسلمين مع أهل الكتاب تطبيقاً لأحكام القرآن الكريم . كما يرُدُّ توينبى توفيق الإسلام في الفوز بولاء الملايين من أتباعه إلى تسامحه مع تقاليد تلك الشعوب التى تحوّلت إلى الإسلام واستيعابه الكثير من تراثها القومى بما لايضير وجوده ومبادئه الأساسية .

وبالإضافة إلى الجانب السياسى من ظاهرة الإسلام : ثمة جانب آخر يأخذ بألباب الباحثين الأوربيين ويتجلى في المكانة الرفيعة التى تشغلها اللغة العربية منذ أن قرر الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان اتخاذها لغة الإدارة في جميع أنحاء البلاد الخاضعة لسلطان الإسلام . على أن توينبي يعتبر المصنفات الأدبية أعظم المجالات التى انتصرت فيها اللغة العربية . ويدلل على رأيه بأن مصادر التاريخ الإسلامى منذ حياة الرسول حتى الآن تتسم بالغزارة الفائقة وأن لكثير منها أهمية فائقة للمؤرخين . وبالأحرى ؛ يتيسر بفضل المصنفات الأدبية العربية تتبع سيرة الرسول بالتفصيل ، وهذا ما لايتوافر للباحث في حياة السيد المسيح. ويحتم هذا على الباحثين الغربيين – كما يقول توينبى– الإلمام باللغة العربية ليتيسر لهم الإحاطة بتاريخ العالم الإسلامى منذ انبعاث الإسلام ، وبخاصة إن رغبوا في دراسة تاريخ الشرق الأوسط بالذات دراسة نزيهة صادقة ، ولا سيما أن معظم المراجع العربية لم يترجم إلى لغة من اللغات الأوربية .

ولقد تراءى للعالم الغير العربي وقت انبعاث الإسلام أن اندفاع العرب يماثل اندفاعات البدو المتحدثين باللهجات السامية على كرّ العصور والأحقاب. إذ يسجل التاريخ قبل البعثة المحمدية اندفاعين للعرب :

الأول – في إبان القرن الثاني قبل الميلاد وقتما أخذت قبضة الإمبراطورية السلوقية تتراخى عن الهلال الخصيب .

الثاني– خلال القرن السابع قبل الميلاد عندما بدأت الإمبراطورية الآشورية تتداعى تحت ثقل الأعباء المالية التى ألقتها هى بنفسها على عاتقها.

وسبق هذين الاندفاعين العربيين اندفاع أقوام الآراميين والعبرانيين والكلدانيين خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد وقتما شرعت الدولة الحديثة في مصر الفرعونية تنهار .

ولم يكن اندفاع العرب وغيرهم من الأقوام السامية يقل قوة في هذه المرات عن اندفاعهم إبان القرن السابع الميلادى . بيد أن الامبراطورية الإسلامية قد اتسعت في غضون حياة جيل واحد وانبعثت من نواة صغيرة للغاية : مدينة دولة متفردة تسيطر على واحة مفردة . ويرد الفضل في هذا التوفيق المذهل للعقيدة الإسلامية وحدها .

وفي ظل حكم النظام الأموى الذى تمركز في سوريا واتخذ دمشق عاصمة كانت الدولة الإسلامية – أولاً وقبل كل شيء – دولة وارثة للإمبراطورية الرومانية . ويرى توينبي أن إمارة الغساسنة وبعدها إمارة الزباء قد أرهصتا بغلبة العرب في نهاية المطاف على الدولة الرومانية . ويستدل على قوة التأثير الهلينى بتزيين هشام بن عبد الملك قصره بزخارف هلينية ، بل وإيثاره الثقافة الهلينية على الثقافة الإسلامية .

وأصبحت للدولة الإسلامية بعد غزو العراق وفارس وسوريا ومصر وارثة للإمبراطورية الساسانية مثلما ورثت مُلك الدولة الرومانية . وبفضل موارد العراق الاقتصادية بالذات– وفي ظل حكم العباسيين – تحوّلت الدولة الإسلامية إلى إمبراطورية كبرى في عداد الإمبراطوريات العالمية :

البارثية ، السلوقية ، الأخيمينية ، البابلية الجديدة . . . حتى الامبراطورية الأكّادية : تلك الامبراطوريات التى هيأت الوحدة السياسية للهلال الخصيب خلال القرن الثالث قبل الميلاد .

وفي معرض الكلام عن انبعاث الإسلام ، يقارن توينبى بين حالة المجتمع وقت انبعاث كل من الإسلام والمسيحية :

فأولاً : تبلورت مهمة المسيح في أذهان اليهود في خلع نير الإمبراطورية الرومانية من على كواهلهم ، وأن يقيم مسيحهم لهم مكانها إمبراطورية دنيوية يكونون فيها الجنس السيد . ولن يوفّق مسيح اليهود في إنجاز غاية اليهود المرتجاة إلا بفضل تأييد « ياهوى» ربهم وحاميهم . فإن افتقر إلى هذا السند الإلهى ، كان الفشل حليفه والإخفاقُ رائدَه . وهذا مصير جابهه في الواقع كل زعيم يهودى انتحل لنفسه لقب المسيح وانتضى السيف ضد القوة الرومانية . فلقد جلب بفعلته الكوارث على نفسه وعلى الجماعة اليهودية. إذ كان السلطان الروماني يحظى بالسيطرة المطلقة وفي مركز منيع لاينال ، وكان مجرد توجيه تهمة انتحال لقب المسيح إلى أى يهودى سببا يدعو لبطش السلطات الرومانية به . وهذا ما فعله خصوم عيسى عليه السلام من اليهود الذين رأوا في رسالته الروحانية تهديداً لنزعتهم المادية . فلاصحة للتهمة التى ألصقها أعداؤه به ، لأنه لم يُدِع قط بأنه المسيح المنتظر ، وصدف عن استخدام العنف في شتى صوره لتأييد رسالته مثلما فعل من انتحلوا هذا اللقب من اليهود من قبل ، فأُعدموا لتحديهم السلطان الروماني .

ثانياً : ظاهر أن توينبي يميل للقول بأن البيئة قد فرضت على المسيحية في إبان نشأتها اللجوء إلى أسلوب الوداعة والمهادنة . أما بالنسبة للمجتمع الإسلامى الناشئ فلم يكن اصطناع أسلوب المسالمة واجتناب العنف ليحفظ حياة نبي يبشّر بدين يناهض الأوليجاركية المحلية الحاكمة . وكان محمدُ مواطنَ دولة مدينة تجيش بالفتن ، ولم يكن سلطانها السياسى يتعدى مساحة محدودة للغاية من الجزيرة العربية ، فكان من السهل على مناهضى طبقتها الحاكمة الانسحاب بعيداً عن متناول قبضتها . وهذا ما فعله النبي بهجرته إلى

المدينة حيث وجد فيها الملاذ من أذى قريش وتزعّم مجتمعها سياسياً ، وفي المدينة – كما يقول توينبي – تبدّت عبقرية محمد السياسية . أما السيد المسيح فما كان في وسعه الإفلات من سلطات الإمبراطورية الرومانية السائد في كل مكان .

ويؤكد توينبي أن المسيحية والإسلام أنموذجان واضحان لنوع واحد بعينه :

(أولاً) انبعث كلاهما بفضل التوفيق بين الآراء والمذاهب المتناقضة التى تخلّفت عن أنقاض حضارتين مندرستين .

(ثانياً) اتجهت الديانتان – كلاهما – للتبشير بمبادئهما للعالم بأسره. وهدف كل منهما لاجتذاب البشرية إلى مبادئه .

(ثالثاً) أرست الديانتان دعائمهما في بداية الأمر داخل نطاق دولة عالمية ، ثم وفّقت تدريجياً في الفوز بالولاء الروحى لسكان هذه الدولة . وأمكنت لهما الحياة بعد سقوطها ، بل وانتشرتا في أماكن أبعد من حدودهما .

(رابعاً) تأثرت العقيدتان والحضارات التى انبعثت عنهما بالعناصر السورية والهلينية على السواء .

٢ – تطور الاسلام السياسى

يعتبر توينبي إندفاع الإسلام آخر الانتفاضات التى استكملت طرد الهلينية من بلاد جنوب شرق جبال طوروس . وبه توّجت ردود الفعل ضد السيادة الهلينية التى ظلت في هذه المنطقة أمداً طويلاً . ويمتاز رد الفعل الإسلامى عن ردود الفعل السابقة بتبديه على الصعيدين العسكرى والسياسى ، كما تجلى على الصعيد الدينى كذلك ؛ في حين اقتصرت ردود الفعل السابقة على الصعيد الثقافي وتمثل في إنبعاث المذهبين : المينوفيستى (مذهب القائلين بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية) والنسطورى (مذهب القائلين بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة هى الطبيعة البشرية ويؤلهون الكلمة لأن بها تم خلق المسيح) ؛ انبعاثهما ضد الكنيسة البيزنطية والكنيسة الكاثوليكية ،

وضد اللغة اليونانية والنظام الروماني . واستفحلت مقاومة هذين المذهبين إلى درجة اندفعت كنيسة روما الكاثوليكية للتنكيل بالنسطوريين فالجأوا إلى حمى الدولة الساسانية . واضطهدت كنيسة بيزنطية المصريين أتباع المذهب المينوفيستى ، فلما نجح الفتح العربي لمصر وجدوا في حماه الأمن من بطش أعداء مذهبهم الدينى .

ومن نظريات توينبى التى أبداها في كتابه « دراسة للتاريخ» وأعاد ترديدها في كتابه An Histaripn Approach to Religion نظرية تطويع العقيدة الدينية لخدمة الأهداف السياسية للسلطات الدنيوية . ومن رأى توينبي أن العقيدة الإسلامية لم تسلم من هذا المصير مثلها في ذلك مثل الأديان : المسيحية والبوذية والزرادشتيه والهندوكية . وهو لايرضى — إجمالاً — عن إخضاع العقيدة الدينية لأهواء الساسة ونزواتهم . ويدلل على رأيه بأن العقيدة المسيحية قد انتهت إلى مصالحة بينها وبين السلطة الزمنية تنازلت بمقتضاها عن رسالتها الروحية بتولى أتباعها تنفيذ غايات السلطان وأهدافه الدنيوية مقابل إسباغ السلطة الدنيوية حمايتها على أتباع العقيدة الدينية . وشبّه ذلك بالاتفاق الذى تم بين فاوست والشيطان في رواية جوته المشهورة . فلقد انبنى على اتفاق رجال الدين والساسة أن تردى المبشرون بالعقيدة الدينية في أمور الدنيا فاندفعوا لاستخدام القوة العارمة في تنفيذ غايات تجافي روح المسيحية خاصة والنزعة الدينية عامة . ويعتبر توينبي تردّى المسيحية في معضلات السياسةأبشع الكوارث التى حلت بالمجتمع الغربي : ذلك لأن السيد المسيح قد أبى إلا أن تظل رسالته روحانية بحتة ، تقوده لمكابدة أهوال الصلب .

وبالأحرى ؛ يقرر توينبي أن العقيدة الدينية تبدأ أيديولوجية الطابع ثم يستخدمها السلطان الدنيوى لكفالة الغايات القومية وتحقيق أهدافه الخاصة . ويسوق مثلاً — بالنسبة للإسلام — استخدام الصفويين مذهب الشيعة الإمامية ، واستخدام الأتراك المذهب السنى . ولايقتصر استخدام العقيدة الدينية — لغايات سياسية — على السلطات الزمنية ، بل تستخدمها الجماعات القومية

التى غلبتها القوة الاستعمارية الغاشمة على أمرها وسلبتها استقلالها السياسى وهدّت ذاتيتها الثقافية . وخص توينبي بالذكر اعتناق المصريين — بإيحاء من الطبقة المثقفة — لوناً من المسيحية (أى المذهب المينوفيستى) يخالف المذهب المسيحى الذى اعتنقته جمهرة سكان الامبراطورية البيزنطية واتخذته السلطة الحاكمة مذهباً رسمياً والذى يستند على القول بأن للسيد المسيح طبيعتين : إلهية وبشرية ، وذلك عكس المذهب المصرى القائل بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح أى الطبيعة الإلهية . وبفضل تفارق المصريين عن مستعمريهم دينياً (أى أيديولوجياً) أمكنهم الحفاظ على جذوة القومية المصرية مشتعلة والحيلولة دون ذوبانهم المجتمع البيزنطى ، إلى أن وفد العرب .

ويدلل توينبي على صدق نظريته — بالنسبة للإسلام — في استخدام الأمويين العقيدة الإسلامية في إعادة تشييد الدولة الساسانية في صورة خلافة عربية ، مقتدين بالرسول نفسه الذى تحوّل الإسلام على يديه إلى دولة بفضل هجرته من مكة إلى المدينة ، وما يعنى ذلك من استخدام القوة عند الاقتضاء للحفاظ على كيان الدولة الإسلامية الناشئة وحطم العراقيل التى تحول دون انتشار الدعوة . ويعتبر توينبي تحوّل الإسلام من عقيدة إلى دولة ، نتيجة لامناص عنها لعناد أهل مكه ورعونتهم في مقاومة الدين الجديد مما قاد إلى قيام النبي بدور رئيس دولة في نفس الوقت .

وإذا كانت العقيدة الدينية تخسر الكثير من رسالتها الروحية وحيويتها أن استظلت برعاية السلطة الزمنية — وفقاً لرأى توينبي — لكنه يستثنى الإسلام من هذه القاعدة :

فالإسلام قد وفّق فعلاً في أن يصبح العقيدة الدينية لمجتمع أصابه الانحلال ، ونجح الإسلام على الرغم من إقحامه في الشئون السياسية منذ البداية ومضيه في ذلك السبيل بطريقة قاطعة لم تُعهد في الأديان التى عرضت لها دراسة التاريخ . بل إن جنوح الإسلام إلى هذا التورط السياسى — وفق تعبير توينبي — بدأ أثناء حياة الرسول بل وعلى يد الرسول نفسه ، لا على يد آخر أقل منه شأناً .

وها هنا يُفرد توينبي بالجزء الثالث من موسوعته ملخصاً خاصاً لدراسة سيرة سيدنا محمد رسول الله السياسية ، إذ اعتبرها المؤرخ العظيم عاملاً من أهم العوامل وأبرزها في تاريخ الحضارات . ويقرر توينبي أن الرسول قد شيّد بعد عودته من المدينة إلى مكة أسس امبراطورية تمكن مقارنتها بالامبراطورية التى شيدها قيصر بعد عودته من بلاد الغال إلى روما . إذ لم يمض على وفاة الرسول سنوات قليلة حتى أمكنت جيوش المسلمين في عهد الخليفة عمر أن تغزو أملاك الدولة الرومانية في سوريا ومصر فتستعيد إلى الوجود الدولة العالمية السورية التى قضت عليها الهلينية بفعل الغزو المقدوني ثم الروماني، وأن تستولى في نفس الوقت على مجال الإمبراطورية الساسانية بأسره . وظلت هذه الإمبراطورية الكبرى قائمة قرابة الثلاثة قرون . وما هذا العمل السياسى الفذ، إلا حاصل توفيق محمد السياسى في غضون مرحلة حياته السياسية الدينية .

وهذا التوفيق السياسى الشامل — كتعبير توينبي — قد أثّر تأثيراً عميقاً على مصير الإسلام حتى وقتنا الحاضر . وفي هذا التأثير يتبدى بجلاء تفارق الإسلام عن المسيحية :

فلقد اتجهت تلك العقيدتين — من الناحية السياسية — لسلوك السبيل الذى أشار به مؤسسها ، سواء بالسنة أو القدوة .

بيد أن الكنائس المسيحية — بصفة عامة — ما برحت تهتدى بوصية السيد المسيح « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . وعلى الرغم من أن الكنيستين الأرثوذكسية والبروتستانتية استثناءان هامان لهذه القاعدة ، فإن دمج هاتين الكنيستين في الكيان السياسى للدولة العلمانية التى كانت تستعبدانها قد ظل غير تام وما برح هذا الاندماج القاصر غير طبيعي .

ونجد العكس في حالة الإسلام : إذ ليست العلاقة بين الجانبين الدينى والسياسى من نظام الدولة الإسلامية علاقة مصطنعة تعوّق سير الدولة وتقدمها إذ يلتئم الجانبان في وحدة أصيلة وأساسية بحيث ينتفى في علم الاجتماع الإسلامى مبرر السعى للتوفيق بين التشعّب القائم بين « الدينية والدنيوية » و « الكهنوتية والعلمانية ». فإن اللاهوت والدولة متماثلان متطابقان في

المجتمع الإسلامى . وفي هذه الذاتية الاجتماعية — حيث ينتفي التفاضل بين عناصرها — — نجد المصلحة والمضمون الدنيويين يهيمنان على المعنى الديني بحيث تبدو علاقة الكنيستين الأرثوذكسية والبروتستانتية بالسلطة السياسية — إن قورنتا بالإسلام — وكأنهما بعيدتان عن السياسة والشئون الدنيوية .

على أن التحام الدين بالدولة في الإسلام قد ظل دواماً المثال الأعلى لبعض بابوات المسيحية الغربية الذين تاقوا لتخليص المجتمع المسيحى من انقسامه إلى كنيسة ودولة عن طريق إدماج الدول المتفككة والإقليمية لمسيحية القرون الوسطى الغربية في كيان اجتماعى تضمه كنيسة روما بين طياتها وتطلق عليه إسم « الجمهورية المسيحية . لكن عجزت الكنيسة تماماً عن تحقيق أملها المرتجى في اندماج الدين والدولة مثلما حققه الإسلام .

وعلى أساس النظرية التى تُقَدِّر الانهيار للدين الذى يستخدم القوة ؛ يزعم بعض المؤرخين بأن الهجرة توقيت انهيار الإسلام روحانياً ، لاتوقيت قيامه . لكن يعترض على هذا الزعم بالسؤال التالى : كيف تفسِّر حقيقة ثابتة مدارها أن ديناً فاجأ العالم عقيدة دينية لجماعة حربية بدوية يقيِّض له التوفيق في التحوّل إلى عقيدة دينية عالمية على الرغم من بدايته — كما يزعم البعض — بقيد روحاني كان يتوقع أن يصبح حائلاً دون انتشاره ؟

يرد توينبى على السؤال بالقول بضرورة أن يُسقط الباحث من حسابه الفكرة التى ما برحت شائعة عند المسيحيين التى تغالى في تقدير أهمية القوة المادية في انتشار الإسلام . ذلك لأن الأسس التى تطلبها خلفاء النبى للإيمان بالدين الجديد اقتصرت على تأدية عدد من الفرائض لم يكن تأديتها بالأمر الشاق كثيراً ، بل لم تتعد المطالبة بها الجماعات الوثنية البدائية التى كانت تقطن المناطق العربية التى ظهر الإسلام في ربوعها والتى لم تخضع لسلطان أى من الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية . أما بالنسبة لولايات هاتين الامبراطوريتين المغزوة فلم يكن الاختيار بين الإسلام أو القتل ولكن بين الإسلام أو الجزية . وتلك سياسة مستنيرة أجمعت الآراء على امتداحها .

كذلك لم يطبّق هذا الاختيار تطبيقاً منفراً على الرعايا غير المسلمين للخلافة الإسلامية في العهد الأموى .

ولقد أصبح على الإسلام في ظل هذه الظروف أن يسلك طريقه بين رعايا الخلافة من غير العرب مستنداً على مزاياه وفضائله الذاتية . وكان انتشاره بطيئاً ، لكنه مؤكّد . وكيّف معتنقو الإسلام الجدد — من غير العرب — المبادئ الإسلامية وفق منحاهم التفكيرى . واستطاع الإسلام وهو في هذا الثوب أن يغدو الدين الموحد لعالم كان قد سبق توحيده سياسياً في صورة سطحية بفضل الغزو العربي الجارف . ويقرر توينبى أن انتشار الإسلام الذريع في غضون الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والثالث عشر الميلاديين كان حصيلة حركة شعبية تلقائية ولم تنجم قط عن ضغط سياسى .

ذلك أن ما يقابل في الإسلام من أباطرة مسيحيين مثل ثيوديسيوس ويوستنيان — اللذان أساءا استخدام السلطة السياسية في سبيل مصالح دينهما المزعومة — قليل العدد في الإسلام ومتباعداً في ثنايا قائمة من الخلفاء العباسيين اتسع نطاقها طوال فترة خمسة قرون .

وإذا كان الإسلام قد اندفع من شبه الجزيرة العربية إبان القرن السابع الميلادى : عقيدة اقتصرت في بداية الأمر على العرب وحدهم ، إلا أنه لم يأت القرن الثالث عشر الميلادى حتى غدا الإسلام ديناً عالمياً تفيء إلى ظله الأقوام التى هجرتها دعاتها بعد انهيار الخلافة العباسية . ولا جرم أن عقيدة دينية توفق التوفيق كله تحت تأثير فضائلها الذاتية في الفوز بولاء الناس لها : عقيدة لايستند بقاؤها أو زوالها — كما يقول توينبى — على أهواء تلك النظم السياسية التى تنشد استغلال العقيدة لتحقيق غايات تجافي مبادئها ؛ ليعتبر انتصارها الروحاني أعجب مثال يبين أنه وإن حلّت الكوارث بالأديان العالمية الأخرى التى رنت لتحقيق غايات سياسية ، فإن الإسلام — عكسها — لم يؤثر فيه هذا الاتجاه الذى دمر الأديان الأخرى روحانياً . وهذا ما يبديه استقراء اتجاه الإسلام السياسى منذ عهد الرسول نفسه ثم في عهد خلفائه

من بعده . فإن هجرة النبي من مكة إلى المدينة قد جعلت منه سياسياً فذاً عوضاً عن بقائه بمكة نبياً قليل الحظ من الأتباع والأنصار وموضع اضطهاد الأوليجاركية الحاكمة .

وإذا كان استخدام العقيدة الدينية الإسلامية قد عرّض الإسلام للمخاطر التى تعرّضت لها العقائد الدينية الأخرى التى استخدمت الدين أداة لإدراك أهداف سياسية ؛ لكن الإسلام سلم وحده من هذه المخاطر .

وهكذا تبين بمرور الأجيال – كما يقول توينبى – عِظم الرسالة الروحية التى بلغها محمد إلى البشرية . وإذا كانت الأديان العليا الأربعة التى ماتزال قائمة في القرن العشرين (الإسلام والمسيحية والهندوكية والبوذية في تعبير توينبى) مجرد ألوان أربعة لمنهج واحد ، فإن الإسلام – في رأيه – قد أعاد توكيد وحدانية الله في مقابل الضعف البادى في تمسك الأديان الثلاثة الأخرى بهذه العقيدة الجوهرية .

٣ – وحدة العرب السياسية بفضل الاسلام

لايجد توينبى في الانتصارات الخاطفة والكاسحة للدولة الإسلامية في بداية عهدها سراً يستعصى على التفسير مثلما يراه غيره من المؤرخين . إذ يعزوها للحروب الضارية التى نشبت بين الإمبراطوريتين الساسانية والرومانية فأوهنت قواهما . وكان العراق أساس الإمبراطورية الأولى وتمركزت الثانية على البحر المتوسط . فلقد انقلبت مناوشات الحدود والحروب المحدودة بين الدولتين لاقتطاع إقليم على حدود هذه أو تلك : انقلبت إلى صراع مميت استنزف قوى الدولتين مما هيأ للعرب القضاء عليهما معاً . وكان العرب قد استفادوا من حروب الدولتين . فإنهم قد استحوزوا على أموال وأسلحة وفيرة بفضل التحاقهم بجيوش الدولتين جنوداً مرتزقة كما حصلوا على خبرة طيبة باستخدام هذه الأسلحة ، وكان الجواد أثمن ما وفقوا للحصول عليه.

وبالتالى ؛ أصبح العرب وقت هجرة الرسول مهيئين من الناحية المادية تماماً لأن يصبحوا غزاة العالم ، لكنهم افتقروا إلى شيء حيوى تمثل في الوحدة

السياسية . فلما منحهم الإسلام إياها ، ماكانت لتقف أمام اكتساحهم أراضى الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية أية عقبة . وها هنا يقرر توينبى أن فئة قليلة من العرب قد آمنت بالإسلام لذاته ؛ فلقد ناهضت جمهرة العرب — في البداية — السلطان السياسى الذى فرضته عليهم الدولة الإسلامية الناشئة ، إذ لم يستمرئوا الخضوع لسلطان يثرب متحالفة مع عدد من المهاجرين المكيين . ويستدل توينبي على رأيه هذا باندلاع حروب الردة مما ألجأ تلك القلة التى ثبتت على ولائها للإسلام ، لرد جمهرة العرب إلى حظيرته باستخدام القوة العارمة . لكن ماكانت هذه القوة لتجدى في إلزام العرب ببذل الولاء المطلق للإسلام لولا ما أسبغه عليهم إسلامهم من وحدة سياسية كانت سلاحهم المعنوى البتار الذى مكّنهم من اجتياح أملاك الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية واستثمار الأراضى الغنية مما رفع مستوى العرب المادى إلى درجة لم يتصوروا تحققها لهم إلا في عالم الجنة الموعودة لأولى الفضل .

ويقارن توينبي ما فعله محمد للعرب بما فعله فيليب المقدوني من توحيد الهلينيين سياسياً ما مكّنهم من اجتياح الإمبراطورية الفارسية . ومهما يكن من أمر ما حققته الوحدة السياسية التى فرضتها الدولة الإسلامية على العرب فمن رأى توينبى أن القدَرَ قد ادخر للإسلام أن يغدو عقيدة عالمية سواء تحققت وحدة العرب السياسية — وما تلا هذه الوحدة من غزوات — أم لم تتحقق . ذلك لأن محمداً قد أهاب بمواطنيه أهالى مكة أن ينبذوا عبادة الأصنام المحلية التى أودعوها جوف الكعبة وأن يكرّسوا أنفسهم لعبادة الإله الحق الفرد الصمد رب الكون بأسره . وقد جرّ هذا على النبي عداء أوليجاركية مكة الحاكمة . لكن تاق العرب لأن يصبحوا أهل كتاب مثل الشعوب التى كانت تحيط بهم من كل جانب لما أضفته هذه الصفة على تلك الشعوب من تقدم مادى وحضارى كانا موضع حسد العرب الوثنيين ، وكانوا يشعرون بضعة المنزلة وانحطاط المكانة تجاه تلك الشعوب . على أن نزعة العرب الاستقلالية كانت تحول — في رأى توينبي — دون اعتناقهم المسيحية أواليهودية : وهما ديانتان غريبتان على البيئة والعقلية العربيتين . إذ نظر العرب إلى المسيحية على أنها العقيدة الدينية القومية للرومان وإلى اليهودية على أنها عقيدة اليهود

القومية . ويخلص توينبى من ذلك للقول بأن من ضمن أسباب إقبال العرب على اعتناق الإسلام الاعتقاد بأنه عقيدة قومية للعرب ترفع من مستواهم الفكرى إلى الدرجة التى بلغها اليهود والرومان بفضل اليهودية والمسيحية على التوالى . لاسيما وقد شاع فى نفوسهم الإيمان بأنهم فى تعبير توينبى شعب الله المختار الذى انحدر من صلب ابراهيم عن طريق ولده البكر اسماعيل من هاجر المصرية عوضاً عن اسحاق أبى اليهود . وأسبغ الإسلام على العرب قوة عسكرية بفضل توحيده قبائلهم المتنابذة داخل نطاق كومنولث إسلامى. وانحدر السيل الإسلامى على الممتلكات الرومانية والساسانية باعتباره الدين القومى للفاتحين العرب .

ولكن ما أن استقر الفتح الإسلامى حتى انتزع الرعايا المسيحيون والمجوس — من أسلموا — من العرب مكانتهم السياسية المرموقة فى الدولة الإسلامية. فجعلوا من الإسلام تنظيماً أزالوا عنه صفته الإقليمية . وهكذا : انتصر الاتجاه العالمى وأصبح الإسلام عقيدة دينية سامية لجميع الشعوب والأجناس وبفضل ذلك انتشر فى جميع أنحاء العالم . واستكمل الإسلام استطالته الروحية والثقافية بفضل جهود سكان جنوب غربى آسيا وهم ورثة الثقافتين السورية والهلينية .

٤ — الحضارة الاسلامية

يلاحظ توينبى بحق أن الإسلام قد ازدهر فى ذات المنطقة التى نشأت بها جميع الحضارات الكبرى : أى الشرق الأدنى الذى شاهد ثورة العصر العصر الحجرى الحديث وعاين قيام أول زراعة فى تاريخ البشرية وتأسيس المدن وحُكْم أول الملوك وتصنيف الأدبيات . وإذا كان الاتصال الحضارى قد انقطع ؛ لكن لم تفقد المنطقة طاقتها الإبداعية التى تبدّت بأجلى مظاهرها فى انبعاث الحضارة الإسلامية : ذلك الانبعاث الذى يعدّه توينبى — هو والمسيحية — أطيب ثمرتين تحظى بهما النفوس البشرية . ويعتبر توينبى الإسلام نداً للمسيحية وقريناً لها ، وينعى على بعض المؤرخين الغربيين — وبخاصة كروبر Kroeber فى كتابه طبيعة الثقافة The Nature of Culturre — التردى

في خطأ بالغ إذ يتهمون الإسلام بمناهضة المسيحية ومعاداة الفلسفة الهلينية وكراهية المدنية عامة ، وادعائه — أى كروبر — بأن الإسلام يكره الفن ويتسم بثقافة ضحلة ، محتجاً بظهور الإسلام في منطقة أصبحت بورا ومواتاً من الناحية الثقافية . وهذه مفتريات يدحضها توينبى بالقول بأن العراق وقت ظهور الإسلام كان دعامة للإمبراطورية الساسانية سياسياً وثقافياً . وأن سوريا ومصر كانتا بالمثل العمود الفقرى للإمبراطورية البيزنطية . وتجلّت طاقات البلاد الثلاثة الحضارية وقتما أعاد الفتح العربي توحيدها سياسياً لأول مرة منذ أن تفككت الامبراطورية الفارسية قبل ذلك بألف سنة تقريباً . ففى ظل الخلافتين الأموية والعباسية استعادت منطقة جنوب غربي آسيا ومصر مركزيهما باعتبارهما قلب العالم النابض ، مثلما كانتا طوال ثلاثة آلاف سنة قبل العهد الإسلامى الزاهر .

ويسلّم توينبى بأن أهمية هذه المنطقة التاريخية قد تداعت بعد ذلك ؛ لكنه ينكر تماماً أن الإسلام سبب خسوفها الحضارى ، ويرى أن تداعيها لم يحدث إلا بعد بلوغ الإسلام مرحلة النضوج السياسى والثقافي . ثم يقرر بأن المنطقة آخذة في استعادة أمجادها . وتستمد المنطقة أهميتها الحيوية — مثلما كانت تستمدها في الماضى — من مصدرين أساسيين :

(الأول) موقعها الجغرافي في مركز شبة المواصلات العالمية . وقد استعادت أهميتها في هذا المجال بعد افتتاح قناة السويس . وكانت قد فقدته منذ كشف طريق رأس الرجاء الصالح .

(الثاني) سيطرتها على أكبر نسبة من احتياطيات العالم من النفط . وكانت في الماضى أكبر منتج للحبوب في العالم . وتوشك أن تغدو أكبر منتج للنفط

ويتساءل توينبى عن علاقة الإسلام — كعقيدة دينية — بالحضارة الإسلامية . ويجيب عن ذلك بأن الحضارة الإسلامية قد وفدت مع العقيدة الدينية الإسلامية ؛ وتتفق في هذا المجال مع المسيحية . ففى الحالتين انبعثت العقيدة الدينية واستكملت نموها في إطار ثقافي واجتماعى أقدم عهداً من العقيدة الدينية نفسها . وجانب من هذا الإطار أجنبى عن العقيدة : بعض

الشيء . ولما أن ذوت الحضارة الأجنبية القديمة استولدت العقيدة الدينية حضارة جديدة أطلقت عليها إسمها بحق ، لأنها تحمل – بلاجدال – طابع تلك العقيدة المميز .

فالديانة المسيحية قد ظهرت واستكملت نموها في إطار الحضارة الهلينية ، ولم تتبدل معالم الحضارتين المسيحيتين (أى الغربية والشرقية وفقاً لتقسيم توينبى) قبل الفترة الواقعة بين النصف الثاني من القرن الرابع والنصف الثاني من القرن السابع الميلاديين ، وقتما كانت الحضارة الهلينية تتحلل وكانت المسيحية في إبان حقبة تشكيلها ديانة أقلية يعيش أفرادها أغراباً في عالم أجنبي عنهم تماماً .

واستكمل الإسلام نموه في بيئات حضارية غريبة عنه : المسيحية النسطورية ، المسيحية المينوفيستية ، الزرادشتيه الإيرانية . وعاش أفراد الأقلية الإسلامية في بيئة لايملكون من أمرها شيئاً ، وإن لم يُقيموا في السراديب مثلما آوت إليها الأقلية المسيحية .

ولم تستطع الديانتان (المسيحية والإسلام) استيلاد حضارات جديدة إلا بعد انتشارهما على نطاق واسع وصيرورة الديانة عقيدة الأغلبية . وتم ذلك بالنسبة للمسيحية في عالم البحر المتوسط في غضون فترة ثلاثة قرون تنتهى في القرن السابع الميلادى ، وبالنسبة للإسلام في غضون فترة تنتهى في القرن الثالث عشر ؛ وكان المسلمون قبل ذلك أقلية في بلاد العالم الإسلامى. ويلاحظ توينبى إنتشار الإسلام بين أتباع الزرادشتيه (في إيران وحوض نهرى سيحون وجيحون) بأسرع كثيراً من انتشاره بين رعايا الإسلام من المسيحيين. بيد أن التحوّل إلى الإسلام لم يتخذ سبيله في أى بلد خاضع لسلطانه إلابعد أن هددت الغزوات البربرية الكيان الإسلامى . ومصداقاً لهذا الرأى ؛ يعزو توينبى إقبال المصريين وسكان جنوب غربي آسيا على اعتناق الإسلام إلى حملات الصليبين والمغول . فلقد دفعت المجتمع الإسلامى للتماسك الروحى تجاه الجائحة التى كانت تهدد باقتلاعه من أساسه ، ويقرر بأن المسيحية الغربية لو كانت قد سيطرت على آسيا عوضاً عن العرب والأتراك ، لما بقى أثر

للكنيسة اليونانية ، وما تسامحت مع الإسلام مثلما تسامح المسلمون مع المسيحية في الأراضى التى خضعت لهم ، وذلك على الرغم مما ينص عليه الإسلام من جهاد المشركين وما توجبه المسيحية من المحبة والتسامح .

فالحضارة الإسلامية قد انبعثت — وفقاً لرأى توينبي — بعد القرن الثالث عشر (أى بعد صيرورة الديانة الإسلامية العقيدة الروحية لغالبية الخاضعين لسلطان الإسلام الدنيوى ، أى بعد استئصال هولاكو الخلافة العباسية في بغداد .

٥ — المجتمع الاسلامى

عند بحث توينبي أساس المجتمع الإسلامى ، يميز فيه :
دولة عالمية ، نظام دينى عالمى ، هجرة شعوب .

فالدولة الإسلامية العالمية هى الخلافة العباسية في بغداد . ومن رأيه أن قيامها في القاهرة بمثابة استحضار طيف خلافة بغداد : أى أنه ظاهرة من نفس نوع الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

والنظام الدينى العالمى هو الإسلام نفسه بالطبع .

وحدثت فترة هجرات الشعوب عندما خرّبت أملاك الخلافة بفعل بدو من أتراك ومغول سهب أوراسيا وبدو البربر في شمال أفريقيا ، وبدو شبه الجزيرة العربية .

وتشمل فترة الفراغ التى استغرقتها هذه الهجرات : القرون الثلاثة تقريباً بين عامى ٩٧٥ و١٢٧٥ ميلادية . وتعتبر السنة الأخيرة بدء المجتمع الإسلامى كما نجده في عالم اليوم .

ومن رأى توينبي أن للمجتمع الإسلامى توأمين هما : المجتمع الإيراني والمجتمع العربي . ويتشابه المجتمع الإسلامى في هذا الشأن مع المجتمع الهلينى الذى استولد توأمين هما : الغربي (الكاثوليكى البروتستانتى)

والشرقي والأرثوذكسي . ولكن بينما عاش المجتمعان المسيحيان جنباً إلى جنب قرابة الألف عام بعد انتهاء المجتمع الهليني ، فأن أحد التوأمين في المجتمع الإسلامي قد ابتلع التوأم الآخر وضمه إليه ، ويتمثل هذا فى رأى توينبي في استيلاء الخلافة العثمانية على البلاد العربية

وليس الإنشقاق الديني مبعث التباين بين المجتمعين الإسلاميين ، كما كان الحال بالنسبة للمجتمعين الأوربيين. فإنه وإن تشعّب الإسلام إلى طائفتي أهل السنة والشيعة — كما تفرعت المسيحية إلى الكاثوليكية والأرثوذكسية — إلا أن هذا الانشقاق الديني في الإسلام لم يتطابق أبداً في أية مرحلة مع الانقسام بين المجتمع العربي الإسلامي والمجتمع الإيراني الإسلامي . وذلك على الرغم من أن الانشقاق قد مزّق مع الزمن المجتمع الإيراني الإسلامي عندما ساد المذهب الشيعي في فارس خلال الربع الأول للقرن السادس عشر الميلادى واستطاع المذهب الشيعي بذلك أن يستقر في مركز المحور الأساسي للمجتمع الإيراني الإسلامي (ويمتد شرقاً وغرباً من أفغانستان إلى الأناضول) تاركاً المذهب السني يسود جانبي هذا المحور : أى في طرفي العالم الإيراني وفي البلاد العربية إلى الجنوب والغرب .

ويعقد توينبي مقارنة بين توأمي مجتمع الإسلام وتوأمي مجتمع المسيحية

فالمجتمع الإسلامي الذى ولد فيما يمكن تسميته المنطقة الفارسية التركية — أو الإيرانية — يشابه المجتمع الغربي بعض الشئ .

بينما المجتمع الآخر الذى ظهر فيما يمكننا تسميته المنطقة الغربية يشابه بعض الشئ المجتمع المسيحي الأرثوذكسي. فمثلاً ؛ يذكّرنا طيف الخلافة العباسية الذى استحضره المماليك في القاهرة إبان القرن الثالث عشر الميلادى بطيف الإمبراطورية الرومانية الذى استحضره الإمبراطور لاوون السورى في القسطنطينية في القرن الثامن . ولقد كان نظام المماليك السياسي متواضعاً

نسبياً كنظام لاوون ، إلا أن نظام لاوون أعظم تأثيراً وأطول عمراً من امبراطورية تيمور في المنطقة الإيرانية المجاورة ، وكانت هذه متسعة الأرجاء قصيرة الأجل وتشبه في ظهورها واختفائها امبراطورية شارلمان .

وثمة شبه آخر : كانت اللغة العربية لغة الثقافة في المنطقة العربية وفي الخلافة العباسية ببغداد . في حين وجدت المنطقة الإيرانية في اللغة الفارسية أداة التعبير والثقافة ، وهي لغة هذبها تطعيمها بالعربية على غرار تهذيب اللغة اللاتينية بتطعيمها باليونانية .

وأخيراً كان قيام المنطقة الإيرانية من المجتمع الإسلامى بغزو المنطقة العربية منه وامتصاصها الذى حدث في القرن السادس عشر ، له ما يماثله في عدوان في المسيحية الغربية على المسيحية الأرثوذكسية خلال الحروب الصليبية . وعندما بلغ هذا الاعتداء الأخير ذروته عام ١٢٠٤ ١٢٠٤ ميلادية — وقتما تحولت الحروب الصليبية إلى حرب ضد القسطنطينية — بدا حينذاك كما لو أن المسيحية الأرثوذكسية ستغزوها شقيقتها الأخرى الأخرى وتمتصها نهائياً . وكان هو المصير الذى أصاب المجتمع العربي العربي بعد ذلك بثلاثة قرون تقريباً ، عندماأطاح الباديشاه العثماني سليم الأول بالمماليك وأزال الخلافة العباسية في القاهرة عام ١٥١٧ ميلادية .

٦ — الغرب الحديث والاسلام

عند بداية الفصل الحديث من التاريخ الغربي ، كان هناك مجتمعان إسلاميان شقيقان وقد انتصبا ظهراً لظهر يسدان جميع مسالك الإتصال بين ممتلكات المجتمعين الغربي والروسى وبين سائر بقاع العالم القديم .

١ — إذا كانت الحضارة العربية الإسلامية ما تزال عند نهاية القرن الخامس عشر تهيمن على الشاطئ الإفريقى المطل على المحيط الأطلسى والممتد من بوغاز جبل طارق حتى السنغال . فكان العالم المسيحى — والحالة هذه — مقطوع الصلة براً بأفريقيا الإستوائية . بينما كانت موجات التأثير العربي تتدافع إلى القارة السوداء ، لا على طول حدها الشمالى في السودان

خارج الصحراء الكبرى فحسب ؛ ولكن كذلك على طول ساحلها الشرقي المعروف بـ « السواحلي » على شاطىء المحيط الهندى . والحق ؛ غداً هذا المحيط بحيرة عربية لم يكن للبنادقة — شركاء الوسطاء المصريين في التجارة — سبيل إليه . وكانت السفن العربية لا تقنع بارتياد الشاطىء الأفريقى في كل مكان من السويس حتى سوفالا ، وإنما كانت تشق طريقها كذلك إلى أندونيسيا فانتزعت مجموعة الجزائر الأندونيسية من الديانة الهندوسية وضمتها إلى حظيرة الإسلام . ثم اندفعت شرقاً لتقيم مركزاً في غربي المحيط الهادى ، إذ هدت إلى الإسلام سكان جنوبي الفلبين من عنصر الملايو .

٢ — وكانت الحضارة الإيرانية الإسلامية تشغل في الوقت نفسه مركزاً استراتيجياً ، بدا أقوى من ذلك الذى تمتعت به الحضارة العربية . فاقد احتل بناة الإمبراطورية « العثمانيون » القسطنطينية والمورة وقزمان وطرابيزون ، وحولوا البحر الأسود إلى بحيرة عثمانية باستيلائهم على مستعمرات جنوا في شبه جزيرة القرم . ومدت الشعوب الإسلامية الأخرى التى تتحدث التركية سلطان الإسلام من البحر الأسود إلى المجرى الأوسط لنهر الفولجا . ومن خلف هذه الجبهة الغربية ، اتسع العالم الإيراني صوب الجنوب الشرقي حتى وصل إلى المقاطعتين الصينيتين « كانصو » و « شنسى » الواقعتين في شمال غرب الصين . كما امتد الإسلام عبر إيران والهند إلى البنغال والدكن .

كانت هذه الكتلة الإسلامية — الحاجزة — تحدياً استثار رد فعل قوى بين الجماعات الرائدة في المجتمعين المسيحيين المتعاصرين :

ففى العالم المسيحى الغربي ؛ ابتكرت الشعوب الساكنة على شواطىء الأطلسي — في القرن الخامس عشر — طرازاً جديداً من السفن العابرة للمحيطات ، يتكون من ثلاث صوارى وموثق حبال مربع للأشرعة ، ثم اشتمل فيما بعد على أشرعة السفينة من مقدمها حتى مؤخرها . ومكن هذا الإختراع السفينة من البقاء في عرض البحر شهوراً بدون انقطاع دون أن تضطر السفينة إلى أن ترسو على ميناء . وباستخدام هذا الطراز من السفن ، استطاع الملاحون البرتغاليون — بفضل تجاربهم في الملاحة في أعالى البحار —

كشف طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى جزائر ماديرا حوالى عام ١٤٢٠ م وجزائر الآزور عام ١٤٣٢ م . ثم نجحوا في تطويق الجبهة العربية البحرية على الأطلسى بدورانهم عام ١٤٤٥ م حول الرأس الأخضر وبلوغهم خط الإستواء عام ١٤٧١ إلى كاليكوت على الساحل الغربي للهند ، وسيطرتهم عام ١٥١١ على بوغاز ملقا ، واندفاعهم في غربي المحيط الهادى ليرفعوا علمهم في كانتون عام ١٥١٦ وعلى شاطىء اليابان عام ١٥٤٢ — ١٥٤٣

وهكذا في لمحة البصر ؛ اختطف البرتغاليون من أيدى العرب السيادة البحرية على المحيط الهندى . وبينما كان الرواد البرتغاليون المتجهون شرقاً يحدقون — بحركة خاطفة من التوسع البحرى للغرب — بالعالم العربى الإسلامى من الجنوب ؛ كان ملاحو الأنهار من القوزاق يتجهون شرقاً ويوسعون حدود العالم الروسى بنفس السرعة والإكتساح ، وتم ذلك بإحداقهم بالعالم الإيراني الإسلامى من الشمال . ولقد فتح الطريق أمام القوزاق القيصر المسكوفي إيفان الرابع حين استولى على قازان عام ١٥٥٣ . إذ كانت قازان قلعة العالم الإيرانى الإسلامى عند حدوده الشمالية الشرقية . وبعد سقوطها ؛ لم يعد ثمة عقبة — عدا الغابات والصقيع وهما حليفان تقليديان عرفهما البدو من محاربى القوزاق — تحول بين طلائع المسيحية الأرثوذكسية الروسية وبين عبور الأورال وشق طريقهم شرقاً على طول الممرات المائية في سيبريا . حتى انتهى بهم المطاف للتوقف لعثورهم مصادفة في عام ١٦٣٨ على المحيط الهادى ، وفي ٢٤ من مارس سنة ١٦٥٢ على المستنقعات الشمالية الشرقية لإمبراطورية المانشو . وهكذا ؛ استطاع العالم الروسى المنتشر — بوصوله إلى تلك الحدود الجديدة — الاحداق ، لا بالعالم الإيراني وحده ، ولكن بالسهوب الأوراسية كذلك .

ففى غضون فترة تقل عن القرن ؛ لم يقتصر الأمر على الإحداق بالعالم الإسلامى — الذى كان شركة بين المجتمعين العربي والإيراني — ولكن أمكن تطويقه تماماً . ففى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر — كما يقول توينبي — وضع الطوق حول رقبة الفريسة .

على أن المفاجأة التى تم بها إيقاع العالم الإسلامى في تلك الحبائل ؛ لم تكن شيئاً خارقاً للعادة . كما انقضى وقت طويل قبل أن يتنبه المسلمون إلى ما يجب عليهم عمله لمجابهة الموقف . وتبلورت خطة الجانبين الغربي والروسى في الإنقضاض على فريسة اتضح لهما أنها عاجزة عجزاً واضحاً .

وسعى العالم الإسلامى من جانبه للإفلات من تلك الضائقة العصيبة .

وما لبثت الأحوال أن تطورت في صالح الإسلام . فلا تزال دار الإسلام في عصرنا الراهن سليمة الجوهر ، فلم ينتقص منها سوى بضع مقاطعات من أطرافها أما اللب الأساسى (الممتد من مصر إلى المحيط الأطلسى ومنها إلى خليج البنغال والملايو وأندونيسيا ، ومن تركيا إلى اليمن) فأصبح حراً من أى حكم سياسى أجنبي أو حتى سيطرة أجنبية . فلقد استطاعت مصر والأردن ولبنان وسوريا والعراق ودول المغرب انتشال نفسها من طوفان الإمبريالية البريطانية والفرنسية التى غمرتها واحدة بعد أخرى . وتعزز موقف العالم الإسلامى باستقلال معظم البلاد الإفريقية وببعضها أكثرية مسلمة مثل الصومال والسنغال وغينيا ومالى ونيجيريا وموريتانيا أو أقليات إسلامية ضخمة في البعض الآخر .

ومن رأى توينبي أن رواسب التهديد لقلب العالم العربي لم تعد تفد من الدول الغربية في الملابسات الثلاث الآتية :

الأولى — في الوقت الذى أصبح فيه ضغط الثقافة الغربية الحديثة الشغل الشاغل للشعوب الإسلامية — كما كان الروس وعلى عكس ما كان عليه المسيحيون الأرثوذكس في الإمبراطورية العثمانية إبان نفس الأزمة من تواريخهم — فإن تلك الشعوب الإسلامية لا تزال صاحبة مصيرها من الناحية السياسية . كما كان المسلمون ورثة تقليد حربي مجيد كان هو البينة على قيمة الحضارة الإسلامية في أعين أبنائها . ومن ثم ؛ كان انكشاف تضعضعها العسكرى في العهد الأخير — بفعل منطق أخفق في تبرير الهزيمة في المعركة — كان هذا أمراً مفاجئاً ، بقدر ما كان مهيناً لهم .

ذلك لأن رضاء المسلمين عن إقدامهم العسكرى التاريخى ، قد بلغ من عمق تأصله في نفوسهم أن الدرس الذى تضمنه تحول المد الحربي ضدهم عقب إخفاقهم أمام فيينا عام ١٦٨٣ م لم يؤثر في نفوسهم تأثيراً ذا بال إلا حين بلغ ذلك الدرس مداه – بعد ذلك بنحو قرن – فوصل الأمر إلى حد تهديد المسلمين بطردهم من عقر ديارهم . وحدث ذلك عقب نشوب الحرب بين الإمبراطورية العثمانية وروسيا عام ١٧٦٨ . إذ قيل للأتراك أن الروس قد عزموا على جلب أسطول بحر البلطيق ينزلونه إلى المعركة ، فكان أن رفض الأتراك بعناد أن يصدقوا أن ثمة طريقاً بحرياً يصل ما بين البلطيق والبحر المتوسط حتى وصل الأسطول الروسى فعلاً . وشبيه بذلك أن مراد بك القائد العسكرى المملوكى حين حذره تاجر بندقي من أن استيلاء نابليون على مالطة قد يكون مقدمة لنزول مصر ، انفجر ضاحكاً من سخف هذه الفكرة .

الثانية – أعقبت هزيمة العالم العثماني في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر – بفعل أداة الحرب الغربية الحديثة – على نحو ما حدث في العالم الروسى قبل ذلك بقرن – حركة اقتباس غربية اندفعت من أعلى المجتمع إلى أدناه : حركة بدأت بإعادة تشكيل القوات المسلحة على النظم الغربية .

لكن كان ثمة على الأقل نقطة خلاف واحدة ذات أهمية رئيسية اختلفت فيها السياسة العثمانية عن السياسة البطرسية . فإن بطرس الأكبر قد أدرك – بفراسة العبقرى – أن سياسة الاقتباس من الغرب ، يجب أن تشمل على كل شيء البتة . إذ أدرك أنه لكفالة النجاح لتلك السياسة ؛ عليه تطبيقها لا على الجانب العسكرى وحده ، ولكن على سائر مرافق الحياة. ولم ينجح النظام البطرسى قط في تحويل أكثر من ظواهر الحياة في المدن على الأساليب الغربية ، ثم انتهى به الأمر إلى تأديته جزاء إخفاقه في التأثير في جموع أهل الريف ، وهذا الجزاء هو سيطرة الشيوعية على روسيا . وعلى الرغم من سياسة بطرس الأكبر في حركة الاقتباس من الغرب ، فإن ماحدث إذ ذاك من وقف المد الثقافي لنظام بطرس الأكبر قبل أن يبلغ أهدافه كاملة ؛

لايرجع إلى قصر نظر القيصر نفسه ، بقدر ما يرجع إلى افتقار الجهاز الإدارى الروسى إلى قوة دافعة كافية .

وأما في تركيا ؛ فإن المؤمنين – على كره منهم – بسياسة تنظيم القوات المسلحة العثمانية على النسق الغربي ، قد لبثوا طوالى قرن ونصف قرن منذ اندلاع الحرب الروسية التركية عام ١٧٦٨ حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ ؛ يتشبثون بوهم إمكان الانتقاء والاختيار من العناصر الثقافية الأجنبية التى يعتنقونها . هذا رغما عن المظاهر المتتابعة المؤلمة لهذا الضلال الذى أوغلوا فيه . ولبثت الحال على هذا المنوال حتى جاء مصطفى كمال ورفاقه عام ١٩١٩ فاندفعوا دون تحفظ – على غرار المنهاج البطرسى – نحو سياسة شاملة للاقتباس من الغرب .

الثالثة – تبدو الدولة القومية التركية أقامها مصطفى كمال عملا ناجحاً لم يتحقق مثله كثيراً في البلاد الإسلامية الأخرى . فإن عملية صبغ مصر بالصبغة الغربية التى بدأها المغامر الألباني محمد على خلال الربع الثاني من القرن التاسع عشر وإن كانت أكثر شمولا من أية محاولة سعى لتحقيقها وأنجزها السلاطين الأتراك في الحقبة نفسها ؛ هذه العملية تحولت إلى فساد في إبان خلفائه . وأظهرت في مجملها أنها « هجين » غربي إسلامى يضم على السواء طائفة من أسوأ مظاهر الحضارة الأصيلة والحضارة المقلدة . وحاول أمان الله خان في أفغانستان أن يحاكى – كالقرد – ما أنجزه مصطفى كمال في تركيا في ميدان أشد وعورة ؛ فكانت تجربة نظر إليها – وفقاً لوجهات النظر المختلفة – كمأساة أو ملهاة ، لكنها على أى الحالتين لاتنجو من الحكم عليها بالفشل .

ومن رأى توينبى أن نجاح أو إخفاق تجارب من نوع تجربة أمان الله خان ، لن يقرر مستقبل العالم الإسلامى في عالم النصف الثاني من القرن العشرين . ذلك لأن طالع العالم الإسلامى في المستقبل القريب متوقف – على أى حال – على نتيجة اختبار القوة بين العالمين الغربى والروسى اللذين يطوقان العالم الإسلامى فيما بينهما . ولقد تعاظمت أهمية العالم الإسلامى في نظر هذين المتحاربين منذ اختراع محرك الاحتراق الداخلى .

فللعالم الإسلام أهميته القصوى كمصدر للسلع الأساسية وكمعبر للمواصلات ويضم العالم الإسلامى ثلاثة مواطن من مواطن الحضارات الأربع الرئيسية في العالم القديم ، أى الحضارات : المصرية ، السومرية ، السندية ، والحضارة الرابعة هى الحضارة الصينية . والثروة الزراعية التى انتزعتها فيما مضى هذه المجتمعات — التى بادت اليوم — من وديان : النيل الأدنى ، دجلة والفرات ، والسند: تلك الوديان التى استعصت في ماضى أيامها على الاستغلال ، هذه الثروة قد زادت في مصر والبنجاب ، واستعيدت جزئياً في العراق. وتم ذلك بفضل تطبيق الطرائق الغربية الحديثة في ضبط المياه . على أن أهم إضافة لموارد العالم الإسلامى الاقتصادية ؛ جاءت نتيجة اكتشاف النفط والانتفاع بمستودعاته الكامنة في باطن الأرض لم تكن لها في يوم من الأيام قيمة زراعية ذات شأن . أن التفجرات الطبيعية التى أحالها التدين الزرادشتى في العصر السابق للإسلام إلى قيمة دينية — إذ استعان بها ليبقى ضياء الشعلة الخالدة تمجيداً للنار المقدسة — قد حذرته في عام ١٧٢٣ عين بطرس الأكبر المتطلعة كرصيد اقتصادى كامن . وإذا كان الأمر قد استلزم انقضاء مائة وخمسين سنة أخرى قبل أن يؤكّد الاستغلال الاقتصادى لحقول الزيت في باكو صدق فراسة هذه العبقرية ؛ فلقد أظهرت بعد ذلك الكشوف الجديدة المتعاقبة باستمرار ، أن باكو ليست إلا حلقة في سلسلة ذهبية تمتد صوب الجنوب الشرقي عبر كردستان وبختيارستان الإيرانية حتى مناطق من شبه الجزيرة العربية اشتهرت بجدبها .

وأسفرت النتائج التى تلت التدافع نحو الزيت عن وضع سياسى متوتر. ذلك لأن نصيب روسيا من تلك الغنيمة في القوقاز وأنصبة الدول الغربية الكبرى في إيران والبلاد العربية تقع في نطاق سلسلة متصلة الحلقات .

ولقد زاد من حدة هذا التوتر ؛ تجدد أهمية العالم الإسلامى كنقطة إلتقاء للمواصلات العالمية . فإن أقصر الطرق بين روسيا والعالم الغربي — على طرفي المحيط الأطلسى — من ناحية ، والهند وجنوب شرق آسيا واليابان من الناحية الأخرى ؛ إن أقصر هذه الطرق يخترق أرضاً ومياهاً وأجواء إسلامية . وما

برح الاتحاد السوفيتى والغرب على خارطة المواصلات وعلى خارطة الزيت يقفان موقف الخطر متجاورين وجهاً لوجه .

وصفوة القول ؛ استطاع توينبي تعيين موضع الإسلام بفضل دراسة :

(أولاً) العقيدة الإسلامية كما انبعثت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وتطورت على أيدى المسلمين تحت تأثير البيئة والزمن .

(ثانياً) الدولة والمجتمع الإسلاميين . وقد وضع عليه الصلاة والسلام قواعدهما ثم استطالا في سرعة مذهلة .

(ثالثاً) — الحضارة الإسلامية — وهى نتاج فرعى للعقيدة الإسلامية .

(رابعاً) موقف البلاد الإسلامية من صراع القوى السياسية الدولية

سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى (*)

للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

تمخضت الحركة الصليبية في أواخر القرن الثاني عشر عن مولد مملكتين مسيحيتين صغيرتين في الركن الشمالى الشرقي من البحر المتوسط، هما مملكة قبرس ومملكة أرمينية الصغرى . وقد أثارت هاتان المملكتان اهتمام الباحثين نظراً لقدرتهما الغريبة على البقاء والصمود والاستمرار ، رغم كل الظروف المعاكسة التى أحاطت بهما ، حتى أنهما بذتا في طول العمر كافة البقايا الصليبية الأخرى في شرق حوض البحر المتوسط[1]. وإذا كانت كل من هاتين المملكتين قد اختلفت عن الأخرى في الأصل والنشأة وكثير من الظروف المحيطة بها ، فإن تاريخهما ظل مرتبطاً بعضه ببعض ارتباطاً قوياً واضحاً . وربما كان بعض السر في ذلك إحساس هاتين المملكتين بوحدة المصير ووحدة الأخطار التى هددت كيانهما ، وبخاصة في الدور الأخير من أدوار الحركة الصليبية .

وإذا كان مقر إحدى هاتين المملكتين — وهى مملكة لوزجنان — قد قد ارتبط بجزيرة قبرس ، بوضعها الجغرافي الثابت المعروف ؛ فإن المملكة الأخرى — وهى مملكة أرمينية الصغرى — قامت في المنطقة التى عرفت قديماً باسم قيليقية ، أعنى الإقليم الواقع في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى بين

(*) محاضرة ألقيت بدار الجمعية مساء ٢٦ فبراير ١٩٦٨

(1) Stubbs : Seventeen Lectures on Mediaeval and Modern History ; p. 181.

جبال طوروس والبحر . وقد أطلق العرب على هذا الإقليم إسم الدرب ، أى الطريق ، الذى يسلك ما بين طرسوس وبلاد الروم[١] .

وكان من الطبيعى أن يهتم المسلمون منذ وصولهم إلى أطراف الشام في القرن السابع للميلاد بذلك الإقليم ، نظراً لموقعه الاستراتيجى على أبواب دولة الروم ، وهو الموقع الذى جعل منه ثغراً من أهم الثغور الإسلامية وأكثرها خطراً . والمعروف أن العرب أطلقوا على كل مركز قريب من أرض العدو إسم ثغر ، الأمر الذى ترتب عليه وجود عدة ثغور على أطراف الدولة الإسلامية ، في مختلف الاتجاهات . وهذه الثغور صارت موضع عناية حكام المسلمين ، فحشدوها بالغزاة ، وجعلوا منها مراكز حصينة للدفاع عن أراضى دولتهم حيناً والوثوب على أراضى أعدائهم المجاورة أحياناً . ولاشك في أن الروم بالذات ظلوا يشكلون خطراً على الدولة الإسلامية منذ نشأتها واتساعها ، وهو خطر يختلف عن الخطر الذى ينجم عن بقية القوى الأخرى المجاورة لدولة المسلمين ، وذلك بحكم ما للروم من إمبراطورية ذات نظام سياسى مستقر وحضارة عريقة .وأدرك هذه الحقيقة جمهرة كتاب المسلمين ، فقال قدامة بن جعفر في كتاب الخراج ما نصه : «ينبغى أن لايكون المسلمون أشد حذراً منهم للروم[٢]» . لهذا اهتم المسلمون بإقليم قيليقية ، وأطلقوا على ذلك الإقليم — بما فيه من مراكز ومدن — إسم « ثغور الشام » ؛ وأسهب كتابهم في وصف سككها وطرقها ومسالكها[٣] .

وهكذا ظلت ثغور الشام ، ومدنها الرئيسية « طرسوس وأذنه والمصيصة وما ينضاف إليها ، بأيدى المسلمين ، والخلفاء مهتمون بأمرها ، ولا يولونها

---

(١) من الثابت أن هناك أكثر من مكان عرف باسم الدرب ، ذكر بعضها ياقوت فى معجم البلدان ، ولكنه قال انه اذا ذكر الدرب وحده دون أن يضاف اليه اسم موضع يحدده ، يكون المقصود به ما بين طرسوس وبلاد الروم ، لانه مضيق كالدرب . واياه عنى امرؤ القيس بقوله :

بكى صاحبى لما راى الدرب دونه ... وايقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

(٢) قدامة بن جعفر : كتاب الخراج وصفة الكتابة — الباب السابع .

(٣) ابن خرداذبة : المسالك والممالك — طبعة بريل ، ص ٩٩ — ١٠٠

إلا شجعان القواد والراغبين منهم في الجهاد ، والحروب بين أهلها والروم مستمرة » . ويفهم من هذا أن المسلمين سيطروا فعلاً على قيليقية قروناً عديدة وأنهم جعلوا من مدنها مراكز زاهرة لحضارتهم وثقافتهم ، بدليل ما يرويه ياقوت من أن جماعة كثيرة من الرواة والزهاد والعباد نسبوا إلى ذلك الثغر وعلى رأسهم أبو أمية محمد بن ابراهيم بن مسلم بن سالم الطرسوسى الثغرى، وهو من الثقة[١] .

غير أن أوضاع قيليقية أخذت تتعرض للتغيير منذ القرن العاشر للميلاد . ذلك أن الإمبراطورية البيزنطية — أو دولة الروم — كانت لايمكن أن تغفر للمسلمين ما فعلوه في القرن السابع الميلادى من اقتطاع أثمن أجزاء الدولة الرومانية في الشرق ، وهى الشام وشمال العراق ومصر ، وكلها بلاد ارتبطت بها أصول المسيحية ونشأة الكنيسة ، فضلاً عما لهذه البلاد من أهمية اقتصادية بالنسبة للعالم الرومانى . وإذا كانت القسطنطينية ، قد عجزت منذ القرن السابع للميلاد عن أن تثأر لنفسها من المسلمين، وتسترد أراضيها التى سيطروا عليها وحولوها في سرعة غريبة إلى اللغة العربية والديانة الإسلامية ، فإنه ليس معنى ذلك أن الروم — حكومة وشعباً — نسوا ما حل بهم على أيدى المسلمين . وأخيراً حانت ساعة الانتقام عندما اتضح ضعف الدولة الإسلامية في القرن العاشر الميلادى ، وهو الضعف الذى ظهر في صورة الانحلال السياسى وقيام دويلات إسلامية مستقلة في المشرق والمغرب على حساب الخلافة العباسية ، التى أخذت تمر بدور واضح من الركود الشديد . وجاء ضعف الدولة الإسلامية ، في المشرق مقروناً من الناحية الزمنية بنهضة كبيرة في الدولة البيزنطية ، وهى النهضة التى عبرت عن بعض جوانبها في صورة حربية فقام الامبراطور نقفور فوقاس (٩٦٣ — ٩٦٩) بشن حرب على المسلمين، بدأها باسترداد المصيصة وطرسوس وغيرها من مدن قيليقية ، ومنها تقدم

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان — مادة ثغر .

إلى شمال الشام ليسترد أنطاكية من المسلمين، ويضع حلب تحت الحماية البيزنطية(١)، كل ذلك والمسلمون عندئذ على حالة من الفتور لايقوون معها على المقاومة ، حتى عبر المؤرخ ابن الأثير عن هذه الأحداث تعبيراً موجزاً واضحاً عندما قال عن الروم «وعظمت شوكتهم وخافهم المسلمون في أقطار البلاد ، وصارت كلها سائبة لاتمتنع عليهم، يقصدون أيها شاءوا.. »(٢) ثم جاء بعد نقفور فوقاس الإمبراطور يوحناتمزيمسكس (٩٦٩ — ٩٧٦) الذى لقبه العرب بالشمشقيق ، فاستأنف سياسة سلفه في مهاجمة المسلمين في شمال العراق حيناً وفي الشام حتى دمشق أحياناً . وفي جميع هذه الأعمال كانت قيليقية قاعدة هامة لأعمال الروم الحربية ضد المسلمين(٣) .

ويهمنا من أمر هذا التطور أن قيليقية خرجت من أيدى المسلمين في القرن العاشر للميلاد ، فعادت تحت الحكم البيزنطى ، وهجرها معظم من كان فيها من المسلمين ليحل محلهم مسيحيون من الروم وغير الروم . وهكذا حتى كان القرن الحادى عشر للميلاد، فشهدت منطقة الشرق الأدني أحداثاً خطيرة بدأت بازدياد نفوذ السلاجقة وتوسعهم الكبير في تلك المنطقة من ناحية ، وانتهت بوصول أولى الحملات الصليبية إلى الشرق في أواخر ذلك القرن من ناحية أخرى .

أما عن السلاجقة الأتراك فقد ترتب على توسعهم الكبير في الأقاليم الواقعة شرقي آسيا الصغرى هجرة كثير من الأرمن من بلادهم الأصلية في أرمينية الكبرى إلى الأقاليم الواقعة غربي الفرات وشماليه ليستقروا في جهات كان بعض إخوانهم الأرمن قد سبقوا إليها وأسسوا فيها جاليات في عصور سابقة(٤) . واشتدت هجرة الأرمن من بلادهم عقب موقعة مانزكرت بوجه خاص (سنة ١٠٧١) ، وعندئذ اختار كثيرون منهم لإلتجاء إلى جبال

---

(١) Vasiliev : Hist. of the Byzantine Empire, p.p. 308 - 309 (Madison, 1961).

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ص ٢١٧ (حوادث سنة ٣٥٩ هـ) .

(٣) Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State, p. 257 (Oxford, 1956).

(٤) Iogra : L'Armenie Cilicienne, p.p. 87 - 88.

طوروس وإقليم قيليقية في جنوب شرق آسيا الصغرى ، فضلاً عن شمال بلاد الشام ، وجميع هذه الجهات كان فيها زعماء من الأرمن سبقوا إليها واستقروا فيها[١] . وعندما اتضح أن هذه المنطقة في الركن الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى بعيدة نسبياً عن الطرق الرئيسية لتوسع السلاجقة ، هاجرت في نهاية القرن الحادى عشر جموع جديدة من الأرمن كانوا قد سبق أن تركوا بلادهم ونزحوا إلى إقليم كابا دوكيا في آسيا الصغرى ، وهم الذين كانوا أكثر تعرضاً لهجمات السلاجقة بعد أن أخذوا — عقب موقعة مانزكرت — يمدون نفوذهم بعيداً في جوف آسيا الصغرى . وفي قيليقية بالذات غدا الأرمن قوة كبيرة ، حتى أطلق المؤرخ جروسيه على قيليقية في ذلك العصر إسم « أرمينية الجديدة »[٢]. على أنه يبدو أن أعداداً من أولئك الأرمن ظلوا منتشرين في آسيا الصغرى في الجهات الواقعة شمالى جبال طوروس — خارج قيليقية — بدليل ما جاء في بعض حوليات الحروب الصليبية من أن رجال الحملة الصليبية الأولى ما كادوا يقتربون من مدينة قيصرية في إقليم كابادوكيا ، حتى دخلوا « بلاد الأرمن » وأن الأرمن في الجهات المجاورة رحبوا بهم[٣].

ومهما تتعدد الأسباب التى ساعدت على ظهور ثم بقاء إمارات مستقلة أو شبه مستقلة للأرمن في الجهات الواقعة شمالى الجزيرة وشرقي آسيا الصغرى وجنوبها الشرقي ، فإن ثمة حقيقة كبرى ، هى أن الدولة البيزنطية — وبصفة خاصة في الربع الأخير من القرن الحادى عشر — كانت شبه عاجزة عن حماية حدودها الشرقية . ولما استكشف الأباطرة البيزنطيون أن الأرمن يكونون عنصراً قوياً على الأطراف الشرقية لدولتهم ، فكروا — مختارين أو مجبرين — في اتخاذ أولئك الأرمن درعاً حامياً ووسيلة وأداة للدفاع عن حدود الدولة من ناحية الشرق[٤] . ومهما يكن شأن أولئك الأرمن وموقفهم السابق في التاريخ من الدولة البيزنطية ، فإنه يكفى كونهم مسيحيين يؤمنون بالمسيح

(١) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 628.

(٢) Grousset : Hist. de l'Armenie, p. 522 (Paris, 1947).

(٣) Gesta Francorum, p. p. 55 - 61.

(٤) Ostrogorsky : op. cit. p. 343.

ورسالته ، فى الوقت الذى كان الخطر الذى يهدد كيان الدولة البيزنطية من ناحية الشرق نابعاً — بصفة أساسية — من السلاجقة بالذات ، وهم مسلمون . وهكذا لجأ الأباطرة البيزنطيون إلى تعيين بعض الأرمن حكاماً على المدن الهامة في الأطراف الشرقية لدولتهم ، بل لقد عهدوا لأولئك الأرمن بقيادة الحاميات الإمبراطورية في تلك الجهات ، فضلاً عن منحهم ضياعاً ومساحات شاسعة من الأراضى[1] .

وسرعان ما نظم الأرمن أمرهم في قيليقية ، فصار لهم رئيسهم الدينى الذى يدعى Katholicos ليرعى مصالحهم الدينية وفق طقوس الكنيسة الأرمينية وتعاليمها . ومن بين زعماء الأرمن الذين احتلوا مكانة خاصة في تاريخ الأقاليم الواقعة شرقي آسيا الصغرى في أواخر القرن الحادى عشر ، يبرز اسم فيلاريتوس براخاميوس نائب الإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع في ملطية ومرعش . ذلك أن فيلاريتوس هذا استغل فرصة الفوضى التى حلت بالإمبراطورية البيزنطية عقب موقعة مانزكرت والتى أسر فيها الإمبراطور رومانوس الرابع سنة ١٠٧١ ، ورفض الإعتراف بالإمبراطور الجديد ، وأخذ يدعم مركزه حول مرعش ورعبان والابلستين ، حيث أقام إمارة قوية مستقلة عن الحكومة البيزنطية ، ازدادت منعة بعد أن استولى على ملطية ، التى كان السلاجقة قد انتزعوها . وعندما ظهرت قوة فيلاريتوس واتضحت أهميته ، دخل في تبعيته بعض زعماء الأرمن المجاورين ، وخاصة في قيليقية[2] . وهكذا أصبح فيلاريتوس يسيطر على مدن قيليقية الرئيسية ، مثل طرسوس والمصيصة وعين زربة . وفي سنة ١٠٧٧ أرسل فيلاريتوس أحد رجاله للاستيلاء على الرها من البيزنطيين ، فحاصرها ستة أشهر ، حتى استسلمت له المدينة أخيراً بفضل مساعدة من بداخلها من الأرمن . أما أنطاكية ، فقد قتل آخر حاكم بيزنطى عليها سنة ١٠٧٨ ، فخشى أمراء المدينة — ومعظم أهلها من الأرمن — أن يستولى السلاجقة المسلمون عليها ،

---

(١) Setton : A Hist. of the Crusades, vol. 2, p. 631.

(٢) Iogra : L'Armenie Cilicienne, p. 89.

ولذلك سلموها مختارين لفيلاريتوس[١] . ولم يلبث الإمبراطور البيزنطى نقفور الثالث (١٠٧٨ — ١٠٨١) أن اتبع سياسة حكيمة استهدفت تدعيم العلاقات الطيبة مع ذلك الزعيم الأرمنى ، في الوقت الذى أظهر فيلاريتوس من جانبه اعتدالا وحكمة ، فاعترف بسيادة إسمية للامبراطورية ، رغم أنه كان مستقلا عنها من الناحية العملية . ثم إن فيلاريتوس كان حذراً تجاه جيرانه المسلمين ، فاعترف في ممتلكاته القريبة من الموصل بالتبعية لبنى عقيل ، وهم أمراء الموصل العرب . ويذكر المؤرخ ميخائيل السرياني أن فيلاريتوس أراد أن يؤمن ممتلكاته من ناحية سلطان السلاجقة ملكشاه ، فاعترف له أيضاً بنوع من التبعية ؛ بل يذكر أنه كان مستعداً — إذا استلزم الأمر — لاعتناق الإسلام ، خدمة لمصالحه[٢] .

على أن السلاجقة كانوا لايمكن أن يغضوا البصر تماماً عن تلك الإمارة الأرمينية ، فاستولى سليمان بن قتلمش السلجوقي على أنطاكية سنة ١٠٨٥[٣] ولم تلبث إمارة فيلاريتوس الواسعة أن تعرضت للتفتت والضياع نتيجة لهجمات السلاجقة من ناحية وهجمات الصليبيين الذين وصلوا إلى الشرق قبل نهاية القرن الحادى عشر من ناحية أخرى . ومع ذلك فإن ثمة حقيقة هامة هي أن سيطرة السلاجقة على قيليقية لم تكن سيطرة قوية شاملة ، وبالتالى فقد ظل نفوذ الأرمن قوياً فيها[٤] . حقيقة إن بعض الكتاب المسلمين — مثل العمرى والقلقشندى[٥] — يؤكدون أن الأرمن في قيليقية « كانت طاعتهم آخراً لبقية الملوك السلاجقة بالروم ، وعليهم جزية مقررة وطاعة معروفة ، والعمال والشحاني[٦] على البلاد من جهة الملك السلجوقي » . ولكن العبارة

---

(١) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 285.

(٢) Michael the Syrian, Chronique (tr. Chabot), vol. 3, p. 256.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٧

(٤) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 628 (part I).

(٥) شهاب الدين العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٥٥ (القاهرة ، ١٣١٢ هـ) ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٨ ص ٣٠

(٦) الشحنة هو مندوب السلطان أو الملك فى حكم بلد من البلاد أو ضبط أمورها .

السابقة لانؤكد إحكام سيطرة جيوش السلاجقة على جميع أراضى قيليقية، وحكمهم للأرمن حكماً مباشراً . وإذا كانت بعض مدن قيليقية — مثل المصيصة — قد صارت في قبضة السلاجقة عند وصول الحملة الصليبيةالأولى فإن سيطرة السلاجقة على مثل هذه المدن لايعنى انقراض نفوذ الأرمن فيها . ثم إن تقديم « الطاعة » من جانب أمراء الأرمن في قيليقية لسلاطين السلاجقة وحكامهم كان يتم غالباً عن طريق تقديم المال والاعتراف بنوع من التبعية لهم، كما فعل فيلاريتوس ، اتقاء لشر أولئك الجيران الأقوياء . أما التعليل الطبيعى لعدم سيطرة السلاجقة على قيليقية سيطرة تامة شاملة ، فيرجع إلى صعوبة البيئة الجبلية من ناحية ، فضلا لأنها لم تقع على الطريق الرئيسى لغزواتهم إلى قلب آسيا الصغرى . حقيقة إن قيليقية درب أى طريق ، ولكنها درب بين بلاد الشام وآسيا الصغرى ، والسلاجقة لم يسلكوا طريق الشام لغزو آسيا الصغرى ، ولم يعتمدوا اعتماداً كلياً على طريق آسيا الصغرى لغزوالشام .

وهكذا لم ينقرض نفوذ الأرمن في الشرق بوفاة فيلاريتوس ، وإن كان يبدو لأول وهلة أن نفوذ الأرمن في قيليقية كان في أواخر القرن الحادى عشر أقل أهمية من نفوذهمشمالىجبال طوروس ، وبخاصة في إقليم الجزيرة[1]. وثمة عائلتان من الأرمن ظلتا تتنافسان طويلاً وتتناطحان كثيراً حول الاستئثار بالنفوذ والسلطان في قيليقيه ، هما أسرة الهيثوميين وأسرة الروبينيين . أما أسرة الهيثوميين فمؤسسها أوشين الأول الذى نزح إلى قيليقيه حوالى سنة ١٠٧٣ — أى بعد موقعة مانزكرت — فانتزع قلعة لامبرون (النمرون) في غرب قيليقية من المسلمين . هذا وإن كانت بعض المراجع الأرمينية تذكر أن أوشين الأول كان من أتباع أبي غريب حاكم طرسوس الأرمنى — وأن أبا غريب منح أوشين قلعة لامبرون . أما آل روبين فأصلهم لايقل غموضاً عن آل هيثوم ، إذ ينسبون إلى روبين الأول ، وهو أحد أقرباء كاجك ملك أرمينية الكبرى المتوفيسنة ١٠٧١ . وقد استقر روبين هذا في بعض القلاع

(١) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 629.

شرقي المصيصة في قيليقية ، ثم خلفه ابنه قنسطنطين الأول ليدعم نفوذ آل روبين في قيليقيه أواخر القرن الحادى عشر[١] .

ومن هذا يتضح أنه إذا كان آل هيثوم قد وطدوا نفوذهم في غرب قيليقية ، فإن ذلك جعلهم أكثر ارتباطاً بالامبراطورية البيزنطية ، في حين أن آل روبين الذين استقروا في الجزء الشرقي من قيليقية صاروا أكثر ارتباطاً بعديد القوى التي ظهرت فيما بعد بالشام والجزيرة ، مثل الصليبيين والمغول . والواقع إن تاريخ دولة أرمينية الصغرى ظل من بدايته حتى نهايته يرتبط داخلياً بالصراع بين هذين البيتين[٢] وفي هذا الصراع الطويل كان آل روبين هم دائماً البادئون بالتوسع والعدوان ، في حين أن آل هيثوم لم يحاولوا التوسع أو استثارة جيرانهم بضم ممتلكات جديدة تحت سيطرتهم . وربما أدت جغرافية قيليقية وطبيعتها إلى هذا التباين بين سياسة آل هيثوم وآل روبين . ذلك أن الجزء السهلى من قيليقيه ترويه عدة أنهار صغيرة هى شيحان وجيحان (جيهان) وبردان ، وهى أنهار طرسوس والمصيصة وأذنة[٣] . وهذه السهول تنقسم إلى قسمين : السهل الأدني أو الغربي — ويسمى قيليقية السفلى — ويمتد من سفوح جبال طوروس حتى البحر ، وأهم مدنه طرسوس وأذنه ، وميناؤه الرئيسى على البحر المتوسط سلوقية أو سليقية[٤] . أما السهول الشرقية أو العليا فيفصلها عن السهول الغربية مرتفعات تعرف بجبل النور ؛ وأشهر مدن هذا الجزء المصيصة وعين زربه وسيس . وهذه الطبيعة هى التى فرضت على آل روبين سياستهم التوسعية ، لأنهم تحت تأثير العوامل الاقتصادية كان لابد لهم من النزول من معاقلهم الجبلية ليسيطروا على مدن السهل الواقعة على الطرق التجارية والمؤدية إلى المنافذ البحرية . وفي الوقت نفسه كان عليهم

(١) Setton : op. cit., II, p. 623.

(٢) Runciman : A Hist. of the Crusades, I, p. 196 - 197.

(٣) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، ص ٢٢٩

(٤) ذكر ياقوت أن سليقية مدينة وكورة ببلاد الروم ، وربما سموها سلوقية ، وهى من ناحية الشام بعد طرسوس ، ونسبت اليها السيوف والكلاب السلوقية (معجم البلدان) .

أن يؤمنوا أنفسهم وممتلكاتهم من ناحيتى الشرق والغرب ، فمن ناحية الغرب كان لابد لهم من السيطرة على دروب قيليقية ومنافذها ، مما أوقعهم في نزاع مع آل هيثوم . ومن ناحية الشرق كان لابد لهم من السيطرة على دروب الشام الموصلة من بلاد الشام إلى قيليقية ، مما أوقعهم في نزاع مع إمارة أنطاكية الصليبية ، ثم مع سلطنة المماليك عندما سقطت تلك الإمارة[١] .

ومهما يكن من أمر ، فإنه عند وصول رجال الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق في أواخر القرن الحادى عشر ، رحب بهم الأرمن فى قيليقية وقدموا لهم المساعدات الفعالة ، فأرشدوهم إلى الطريق المؤدى إلى الجزيرة والرها من ناحية ، وإلى الشام وأنطاكيه من ناحية أخرى . وظل الأرمن يقدمون إلى الصليبيين إمدادات ضخمة من المؤن أثناء حصارهم أنطاكية . وفي الوقت نفسه فإن الصليبيين فرحوا بلقاء الأرمن في جنوب شرق آسيا الصغرى . وهكذا وجد الصليبيون في الأرمن عوناً قوياً ووجد الأرمن في الصليبيين حليفاً كبيراً . ولاشك في أن هذه الصداقة التى قامت بين الطرفين في أول الأمر إنما كانت تستهدف مواجهة العدو المشترك ممثلاً في الدولة البيزنطية من ناحية والقوى الإسلامية من ناحية أخرى . هذا إلى أن ظهور الصليبيين على مسرح الشرق الأدني مكن ابن روبين — وهو قنسطنطين الأول (١٠٩٥— ١٠٩٩) من تدعيم إمارته وتوسيع رقعتها في قيليقيه على حساب البيزنطيين فضلاً عن المسلمين[٢] .

ولكن ما كاد الصليبيون يستقرون في أنطاكية حتى بدأ الاحتكاك بينهم وبين جيرانهم الأرمن في قيليقية ، وخاصة بسبب السياسة العدوانية التوسعية التى دأب أمراء أنطاكية من النورمان على اتباعها ضد القوى المجاورة من المسلمين والمسيحيين سواء . وهنا نشير إلى أن الصليبيين استطاعوا في فترة قصيرة الاستيلاء على ممتلكات الأرمن شرقي آسيا الصغرى ، أعنى خارج قيليقية . ففى سنة ١٠٩٨ انتقلت ملكية الرها إلى الأمير الصليبى بلدوين

---

(١) **Setton : op. cit., II, 635.**

(٢) **Cam. Med. Hist. vol. 4 ; part I ; p. 629.**

البولونى بعد مقتل أميرها ثوروس الأرمنى[١]. وفي سنة ١١٠٤ اضطر طاطول الأرمنى صاحب مرعش إلى تركها للأمير الصليبي جوسلين الأول كورتناى[٢]. وفيما بين سنتى ١١١٥ ، ١١١٨ استولى بلدوين دى بورج على ممتلكات دغا باسيل وأبي الغريب الأرمنى صاحب بلدة البيرة على الفرات . ثم استولى الأمير الصليبي بلدوين دى بورج على ممتلكات قنسطنطين الأرمنى صاحب كركر بعد أن سجنه في قلعة سميساط حتى مات . كذلك استولى على الراوندان — قرب قورس — وغيرها من الأراضي التابعة لباكارد الأرمنى[٣]. وإذا كان هذا هو مصير الممتلكات الأرمينية خارج قيليقية ، فإنه كان من الطبيعى أن يحرص أمراء قيليقية من الأرمن على ما تحت أيديهم من بلاد ، وأن ينظروا نظرة حرص شديد إلى القوى الصليبية المجاورة .

ولم تلبث أن دخلت العلاقات بين الأرمن في قيليقية من جهة والقوى الصليبية بالشرق — وخاصة إمارة أنطاكية — من جهة أخرى في دور من العداء المتبادل ، زاد من وقعه عداء الدولة البيزنطية لأمراء قيليقيه والصليبيين جميعاً[٤]. حقيقة أننا نلمس أحياناً أمثلة واضحة للتداخل الحضارى بين الأرمن في قيليقية والصليبيين في الشام ، فضلاً عن التزاوج بين الطرفين ، ولكن طموح بعض أمراء الأرمن في قيليقية — مثل ليو الأول (١١٢٩ — ١١٣٦) — ونشاطهم على حدود إمارة أنطاكيه الصليبية ، أثار مخاوف أمراء أنطاكية الصليبيين ، في الوقت الذى كان هؤلاء الأمراء النورمان بدورهم لايقلون طمعاً ورغبة في التوسع ، حتى على حساب القوى المسيحية المجاورة[٥] . ومن ناحية أخرى فإن الدولة البيزنطية كانت لايمكن أن تتنازل عن قيليقية بتلك السهولة ليستقل بها الأرمن ، فقام بعض الأباطرة البيزنطيين — مثل حنا الثاني (١١١٨ — ١١٤٣) بغزو قيليقية ، واستردوا المدن والمعاقل

(١) Albert d'Aix (Rec. Hist. Cr. Occid). Tome IV, p.p. 354 - 355.
(٢) Runciman : op. cit. vol. II ; p. 40.
(٣) Grousset : Hist. des Croisades, Tome I, p. 454.
(٤) Raoul de Caen ; p. 706.
(٥) Runciman : op. cit. vol. II, p. 32 f.

الرئيسية فيها – مثل طرسوس وأذنه والمصيصة وعين زربه وتل حمدون – من الأرمن . ولكن النفوذ البيزنطى كان لايلبث أن ينكمش وينحسر عن قيليقية ، وتعود سيطرة الأرمن مرة أخرى بعد انسحاب الجيوش الإمبراطورية[١] وفي نفس الوقت لم تنقطع هجمات المسلمين – ممثلين في سلاجقة الروم من ناحية وبنى دانشمند من ناحية أخرى – على قيليقيه ، الأمر الذى جعل تلك الإمارة الأرمينية تعيش في القرن الثاني عشر في ظروف بالغة الحرج والصعوبة .

ولم يكد يقترب القرن الثاني عشر من نهايته حتى كان أمراء قيليقية من الأرمن قد أظهروا مهارة في الاحتفاظ بكيانهم وسط العواصف المتضاربة التى أحاطت بهم ، فضلاً عما حفلت به قيليقية تحت حكمهم من تيارات حضارية ذات أهمية بالغة . وقد دفع ذلك ليو الثاني أمير أرمينية الصغرى إلى التطلع إلى التاج ليكون ملكاً متوجاً يتمتع بما للملوك من مكانه وهيبة . وهنا نجد الأمير ليو الثاني يتجه إلى الغرب الأوربي لتحقيق غرضه ، وذلك حتى لايبدو في صورة أقل مكانة من الأمراء الصليبيين بالشرق من ناحية ، وحتى يتجنب أطماع أباطرة القسطنطينية من ناحية أخرى[٢] . وهكذا أخذ ليو الثاني يواصل جهوده عند أقوى رجلين في الغرب ، وهما البابا كالستين الثالث (١١٩١ – ١١٩٨) والإمبراطور فردريك بربروسا (١١٥٢ – ١١٩٠) . ويقال إن فردريك وعد بإعطاء ليو لقب الملكية ، وجاء هذا الوعد في رسالة مدموغة بخاتم الإمبراطورية الذهبي . وما كادت تقترب حملة فردريك بربروسا الصليبية من قيليقية سنة ١١٩٠ حتى أحس ليو الثاني الأرمنى بقرب تحقيق آماله ، فرحب بالإمبراطور ورجاله وبادر بتقديم الهدايا والميرة . ولكن غرق فردريك بربروسا في أحد أنهار قيليقية جاء مخيباً لآماله فضلاً عما كان في ذلك من صدمة عنيفة هزت كيان الحملة الصليبية الثالثة[٣] .

---

(١) Ostrogorsky : op. cit., p. 336.

(٢) Setton : op. cit., vol. II, p. 649.

(٣) Cam. Med. Hist., vol. 4 ; p. 632.

على أن ليو الثاني لم ييأس ، وإنما واصل جهوده في مساعدة الحملة الصليبية الثالثة ، فشاركت قواته في حصار عكا ، وساعد ريتشارد ملك انجلترا في غزو جزيرة قبرس . وكان ذلك النشاط في حد ذاته كفيلاً بإعلاء مكانة الأمير ليو الثاني الأرمنى ، وإظهار إخلاصه وتجاوبه مع أهداف المسيحية ، الأمر الذى مكنه من مواصلة جهوده للحصول على التاج الملكى. ويقال إنه بعث سفارة إلى كل من البابا كالستين الثالث والإمبراطور الغربي هنرى السادس لهذا الغرض ، ونجح السفراء في مهمتهم بالغرب ، فأرسل الإمبراطور هنرى السادس سنة ١١٩٧ كبير أمنائه — واسمه كونراد — إلى الشرق ومعه تاجان ، أحدهما لعمورى لوز جنان صاحب قبرس ، والآخر للأمير ليو الثاني صاحب قيليقية ، مما أدى إلى مولد مملكتين مسيحيتين صغيرتين على مسرح الشرق الأدنى ، هما مملكة قبرس ومملكة أرمينية الصغرى . وقد توج عمورى ملك قبرس في شهر سبتمبر سنة ١١٩٧ ، في حين توج ليو الثاني ملكاً على أرمينية الصغرى في يناير سنة ١١٩٨ في حفل كبير(١) . وتم التتويج في كنيسة طرسوس بحضور بطريرق اليعاقبة ورئيس الأساقفة الأرثوذكسى ، فضلاً عن عدد كبير من القادة العسكريين والأمراء . وقد بارك ذلك الحفل رئيس الكنيسة الأرمينية — جريجورى السادس — في حين أضفى عليه المندوب الامبراطورى شعار الملكية وسط ابتهاج الأرمن الذين رأوا في ذلك التتويج إحياء لملكيتهم القديمة في أرمينية الكبرى وبعثاً لعظمة تاريخهم السالف .

وقد أشار المؤرخون الأرمن المعاصرون إلى أن الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس الثالث أنجيلوس أرسل عندئذ تاجاً إلى ليو الثاني . ولكن يبدو أن هذا الإجراء من جانب الإمبراطور البيزنطى لم يصحبه حفل تتويج مستقل ، وخاصة أنه كان من تقاليد الإمبراطورية البيزنطية أن ترسل تيجان إلى بعض الأمراء من باب التشريف دون أن يترتب على ذلك رفع منزلة أولئك الأمراء إلى درجة الملوك . وإذا كان أولئك المؤرخون الأرمن قد

(١) Stubbs : op. cit. ; p. 183.

(٢) Kirakos ; (Rec. Hist. Cr. Arm.) Tome 1, p. 424.

اختلفوا في تحديد تاريخ ذلك التشريف الذى أضفاه الامبراطور البيزنطى على ليو الثاني الأرمنى ، فإن الغالب أن الإمبراطور ألكسيوس الثالث أرسل تاجه إلى أمير أرمينية الصغرى بعد أن علم فعلاً أن امبراطور الغرب أرسل تاجاً له ، وذلك اعترافاً من الإمبراطور البيزنطى بسياسة الأمر الواقع من ناحية ، وحرصاً على الاحتفاظ بالخيط الواهى الذى ظل يربط أرمينية الصغرى بالدولة البيزنطية من ناحية أخرى . وقد أرسل ليو الثاني سفارة إلى القسطنطينية لشكر الإمبراطور البيزنطى على التاج الذى أرسله إليه . وثمة حقيقة لاتخفى علينا ، هى أن ليو الثاني الأرمنى كان يفضل أن يكون تتويجه ملكاً عن طريق إمبراطور الغرب ، وذلك حتى يقف على قدم المساواة مع الأمراء الصليبيين بالشرق[١] .

ولاشك في أن ظهور قبرس وأرمينية الصغرى على مسرح الشرق الأدنى فى نهاية القرن الثاني عشر في صورة مملكتين مسيحيتين ، أضفى عليهما هيبة كبيرة من جهة ، وألقى عليهما مسئولية ضخمة في متابعة السياسة الصليبية ضد المسلمين من ناحية أخرى . وهنا نلاحظ أنه إذا كانت الدولة البيزنطية من جانبها لم تتنازل في سهولة عن حقها في إقليم قيليقية ، وبالتالى عن تبعية أرمينية الصغرى لها ، فإن المسلمين من جانبهم لم ينسوا أبداً أن هذا الإقليم كان خاضعاً لنفوذهم منذ وقت مبكر ، وأنه حتى بعد استقرار الأرمن فيه ، فإن أمراء أرمينية الصغرى دأبوا على دفع الأموال للسلاجقة رمزاً للخضوع والتبعية[٢] . وهذا هو السر في أن المسلمين رفضوا الاعتراف بالمكانة الجديدة التى حققها أمراء أرمينية الصغرى بتتويجهم ملوكاً ، وظهر عدم اعترافهم هذا في إصرارهم على عدم الإشارة إلى حاكم أرمينية الصغرى عادة بلفظ « ملك » وإنما اختاروا له غالباً لقب « متملك » ، بمعنى أنهم امتلكوا تلك البلاد قهراً من أصحاب السيادة الشرعيةعليها وهم المسلمون[٣] . وقد عبر

---

(١) Setton : op. cit., vol. 2, p. 648.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٨ ص ٣٠

(٣) ملك الشيء ملكا أىحازه وانفرد بالتصرف فيه ، وتملك الشيء أى امتلكه قهرا (القاموس المحيط) .

شهاب الدين بن العمرى عن هذه المعاني بقوله « وكانت طاعتهم آخراً لبقية الملوك السلاجقه بالروم ، وعليهم جزية مقررة وطاعة معروفة ، والعمال والشحاني على البلاد من جهة الملك السلجوقي ، حتى ضعفت تلك الدولة (السلجوقية) وسكنت شقاشق تلك الصولة . . . فطمع هذا اللعين (صاحب أرمينية الصغرى) . . . واستولى على هذه البلاد وتملكها ، وتحيف مواريث بنى سلجوق واستهلكها[١] » أما القلقشندى فقد ذكر ما نصه عن أرمينية الصغرى « وإنما كان يقال له متملك سيس دون ملك سيس لما تقدم من أنها كانت أولاً بيد المسلمين ، ثم وثب عليها رئيس الأرمن المقدم ذكره فملكها من أيدى المسلمين[٢] » أما الألقاب التى اختارها المسلمون لملك أرمينيه الصغرى فعديدة ، منها ابن لاون ، ولاون هنا تحريف للفظ ليون أو ليو أول ملوك أرمينية الصغرى ، فصار كل ملك من ملوكها يعرف بابن لاون . ومن هذه الألقاب أيضاً «متملك سيس » أو « صاحب سيس» وسيس هى العاصمة كذلك أطلق في المراجع العربية على ملك أرمينية الصغرى إسم « التكفور» وهو لقب عام قصد به كل من جلس على عرش تلك المملكة ، مثلما لقب امبراطور الدولة البيزنطية بالأشكرى ، وملك الحبشة بالحطى أو النجاشى[٣] .

وإذا كان ظهور حكام أرمينية الصغرى في صورة ملوك قد جعل منهم قوة مسيحية جديدة واضحة في الشرق الأدني ، فإن ذلك ألقى عليهم مسئوليات كبيرة تجاه المشاركة في السياسة الصليبية منذ أواخر القرن الثاني عشر . ولكن شاءت الظروف أن يتم تتويج ليو الثاني ملكاً على أرمينية الصغرى سنة ١١٩٨ في وقت كان صلاح الدين الأيوبي قد توفي منذ خمس سنوات (١١٩٣) ، وأعقب وفاته تقسيم دولته بين أبنائه وإخوته وبقية أبناء بيته[٤] . وهكذا اقتصر الصدام في النصف الأول من القرن الثالث عشر بين مملكة أرمينية

---

(١) شهاب الدين بن العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٥٥–٥٦
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٨ ص ٣٢
(٣) العمرى : التعريف ، ص ٥٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٨ ص ٣١
(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩١٢ وما بعدها .

الصغرى من ناحية والقوى الإسلامية المجاورة من ناحية أخرى على ما كان هناك من اشتباكات متكررة مع سلاجقة الروم ، بسبب دأب هؤلاء على غزو قيليقية بين حين وآخر . من ذلك أن قوات ركن الدين سليمان شاه الثاني بن قليج أرسلان (١٢٠٠ — ١٢٠٣) غزت أرمينية الصغرى سنة ١٢٠١ ؛ ولكن الملك ليو الثاني استطاع دفعهم . وفي سنة ١٢٣٣ غزا كيقباد الأول سلطان سلاجقة الروم قيليقية ، وفرض جزية على الأرمن[١] وتكرر غزو السلاجقة لقيليقية سنة ١٢٤٥ — سنة ١٢٤٦ . وفي تلك الأثناء لم تحدث اشتباكات بين أرمينية الصغرى من ناحية ، والمسلمين في شمال الشام من ناحية أخرى ، إلا ما كان من أمر اشتباك الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين — وهو الذى أخذ ملك حلب وجميع أعمالها وشمال الشام بعد وفاة أبيه — مع ليو الثاني ملك أرمينية الصغرى بسبب إمارة أنطاكية . ذلك أنه حدث بعد وفاة بوهيموند الثالث أمير أنطاكية سنة ١٢٠١ أن دب الخلاف بين أرمينية الصغرى وأنطاكية بسبب طمع الملك ليو الثاني الأرمنى فى بسط سيادته على إمارة أنطاكية الصليبية عن طريق الوراثة . وكان أن هاجم ليو الثاني إمارة أنطاكية سنة ١٢٠٣ ، ولكن الظاهر غازى الأيوبي صاحب حلب أسرع لنجدة حلفائه في أنطاكية « ففر ابن لاون »[٢] . ولم يلبث أن تجدد الصدام بين ليو الثاني والظاهر غازى صاحب حلب في أواخر سنة ١٢٠٥ عندما قام الأول بهجوم مباغت على دربساك . ومع أنه فشل في الإستيلاء على قلعتها ، إلا أنه أنزل بالمسلمين خسائر كبيرة ، كما خرب الجهات المجاورة لها[٣] . وكان أن خرج الظاهر غازى بنفسه على رأس قوات جديدة سنة ١٢٠٦ للإنتقام من ليو الأرمنى ، وشاركت قوات أنطاكية الجيوش الحلبية في حملتها ، الأمر الذى جعل ليو الثاني يتراجع بسرعة أمام تفوق أعدائه ، ووافق على عقد هدنة لمدة ثمان سنوات[٤] . ولكن حدث سنة ١٢٠٨—١٢٠٩

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٢٤٨
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٤٠ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٦٠ ، ١٦٣
(٣) ابن الأثير: الكامل ، ج ١٢ ص ١٠٠ ، حوادث سنة ٦٠٢ هـ
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٧٠

Setton : op. cit., vol. 2, p. 649 &

أن نقض كيخسرو الأول سلطان سلاجقة الروم الصلح المبرم مع ليو الثاني الأرمني ، واشترك مع الظاهر غازى صاحب حلب في هجوم مفاجىء على أرمينية الصغرى أدى إلى استيلاء المسلمين على حصن غرقوس قرب مرعش ، كما « فتح قلاعاً أخرى وضربها »(١) .

على أنه إذا كانت إمارة حلب قد انفردت – بحكم موقعها في شمال الشام – بمواجهة قوة أرمينية الصغرى في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، فإن الموقف اختلف في النصف الثاني من ذلك القرن . ذلك أن قيام دولة المماليك سنة ١٢٥٠ جاء مصحوباً – بعد سنوات قليلة – بتوحيد مصر والشام تحت قيادة سياسية واحدة ممثلة في سلطنة المماليك بالقاهرة ، ومن ثم كان على مملكة أرمينية الصغرى أن تواجه السياسة القوية التى رسمتها لنفسها سلطنة المماليك ، والتى استهدفت الجهاد ضد المغول والصليبيين جميعاً ، واقتلاع جذور البقايا الصليبية تماماً من منطقة الشرق الأدني(٢) . وإذا كان سلاطين المماليك قد نجحوا في القضاء على آخر البقايا الصليبية بالشام في نهاية القرن الثالث عشر ، فإنه كان من غير المعقول أن يغفل المماليك عن أمر أرمينية الصغرى وقبرس ، وهما المملكتان اللتان تمخضت عنهما الحركة الصليبية ، ولم يظهرا في صورة مملكتين إلا نتيجة للتيار الصليبي في أواخر القرن الثاني عشر ، فضلاً عن جهودهما التى لم ينساها المسلمون في تدعيم مركز القوى الصليبية في بلاد الشام منذ بداية القرن الثالث عشر . وكلما ضعف أمر الصليبيين بالشام وانكمش سلطانهم كلما ازداد العبء الملقى على كاهل هاتين المملكتين للنهوض برسالة الحركة الصليبية ، الأمر الذى جعل الصدام لا مفر منه بين سلطنة المماليك من ناحية ومملكتى أرمينية الصغرى وقبرس من ناحية أخرى ، وهو الصدام الذى لم ينته إلا بسقوط مملكة أرمينية الصغرى في القرن الرابع عشر وخضوع مملكة قبرس لسلطنة المماليك في القرن الخامس عشر(٣) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ص ١٨٧

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى ، ص ٥٢

(٣) Mas Latrie : Des Relations Politique et Commerciales d'l'Asie Mineure avec l'ile de Chypre sous le Regne de la Maison de Lusignan ; p.p. 120 - 122.

والواقع أنه ثمة عوامل معينة جعلت سلاطين المماليك في مصر يعتبرون ملوك أرمينيه الصغرى «أخبث عدو للإسلام» على حد تعبير العمرى[١]. ويأتي على رأس هذه العوامل اثنان ، أولهما موقف ملوك أرمينية الصغرى من تتار فارس ، وثانيهما السياسة الإقتصادية لملوك أرمينية الصغرى .

أما عن موقف أرمينية الصغرى من تتار فارس فهو موقف خطير ، ترك رد فعل عنيف في قلوب المسلمين في الشرق الأدنى جميعاً . ذلك أن ملوك أرمينية الصغرى ما كادوا يحسون باقتراب التتار من منطقة الشرق الأدنى حتى هللوا لهم ورأوا فيهم القوة الضاربة الكبرى التى تستطيع أن تقضى على الإسلام والمسلمين في المنطقة وأن تحمى كيان القوى المسيحية الصغرى فيها. ولايخفى علينا أن مغول فارس كانوا في ذلك الدور الأول من تاريخهم في الشرق الأوسط مازالوا وثنيين ، الأمر الذى جعلهم يبدون في نظر المسيحيين عموماً وفي نظر البابوية بوجه خاص في صورة المادة الخام التى يسهل تشكيلها في القالب المسيحى . وزاد من قوة هذا الأمل ظهور بعض تيارات واتجاهات مسيحية — ولو خفيفة — بين صفوف مغول فارس . من ذلك أن دوقوزخاتون زوجة هولاكو كانت مسيحية نسطورية «فعملت دائماً على مؤازرة المسيحيين وفي عهدها قوى حال تلك الطائفة» هذا إلى أن أم هولاكو نفسها — وهى سيورقوقيتى — كانت نسطورية أيضاً[٢] .

وإذا كان ليو الثاني ملك أرمينيه الصغرى قد توفي سنة ١٢١٩ ، فإن خليفته هيثوم الأول وضع دعائم سياسية خارجية جديدة ، هى إحلال التحالف مع المغول محل التحالف مع الغرب الأوربي بعد أن ثبت انشغال الغرب بمشاكله الخاصة عن المساهمة الجدية في الحروب الصليبية ، مما أدى إلى فتور تيار الحركة الصليبية وانحرافها عن وجهتها الصحيحة منذ أوائل القرن الثالث عشر . وظهرت سياسة هيثوم عندما لجأت إلى بلاطه زوجة كيخسرو سلطان سلاجقة الروم وابنته ، فراراً من بايجو القائد المغولى الذى أرسله

(١) العمرى : التعريف ، ص ٥٦
(٢) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ، ص ٢٢٠

هولاكو لمهاجمة السلاجقة والاستيلاء على قونية . وكانت الشهامة تتطلب من هيثوم ملك أرمينية الصغرى حماية امرأتين لجأتا إلى بلاطه وقت الشدة ولكنه ضرب بقواعد العرف والأخلاق عرض الحائط ، واختار أن يتقرب إلى المغول على حساب المثل والفضيلة ، فسلم زوجة الحاكم المسلم وابنته إلى بايجو(١) .

ولم يكتف هيثوم الأول باسترضاء هولاكو ورجاله ، وإنما لجأ إلى الاتصال مباشرة بخاقان المغول الأعظم كيوك خان في قراقورم في جوف آسيا . ولهذا السبب بادر هيثوم بإرسال أخيه سمباد في مهمة رسمية إلى قراقورم ، فغادر سمباد قيليقية سنة ١٢٤٧ وعاد إليها سنة ١٢٥٠ ومعه شهادة ضمان من المغول ببقاء مملكة أرمينية الصغرى مع إعادة القلاع التى انتزعها السلاجقة منها . ويبدو أن نجاح هذه السفارة شجع هيثوم على الخروج بنفسه سنة **١٢٥٣** لزيارة خاقان المغول الجديد — منكوخان — في قراقورم . وكان ملك أرمينية الصغرى أول حاكم رسمى من منطقة الشرق الأوسط يذهب بنفسه مختاراً إلى بلاط الخاقان الأعظم ، ولذا استقبل في قراقورم بترحاب كبير وحفاوة بالغة . وانتهى الأمر بأن أكد منكوخان الضمانات والوعود التى قدمها سلفة لسمباد ، وزاد على ذلك إعفاء الكنائس والأديرة الأرمينية داخل دولة المغول من الضرائب(٢). على أن هيثوم كان يطمع في أكثر من ذلك . لقد كان يرجو الزج بالمغول في تيار الحروب الصليبية ، واتخاذهم حليفاً للمسيحيين في حركتهم الكبرى لطرد المسلمين من الشام .

ومهما يكن من أمر ، فإن الملك هيثوم ملك أرمينية الصغرى عاد إلى بلاده سنة **١٢٥٦** مزوداً بالوعود الجميلة ، محملاً بالهدايا النفيسة . ولم ينس هيثوم أصله الأرمنى ، فمر في طريق عودته بالوطن الأم — أرمينية الكبرى — حيث استقبله الأساقفة ومقدمو الأديرة والأمراء وعامة الأهالى الأرمن بالحفاوة والترحاب . وكانت هذه أول مرة يزور فيها أحد حكام قيليقية من الأرمن الوطن الأم في الشرق .

---

(١) **Setton : op. cit., vol. 2, p. 652.**

(٢) **Hetum : La Flor des Estoires de la terre d'Orient.**
(Rec. Hist. Cr. Doc. Arm. ; Tome 2 ; p.p. 163 - 168).

ولم يكد الملك هيثوم يعود إلى بلاده حتى شرع في تنفيذ خطته الأساسية الخاصة بتكوين جبهة من المسيحيين والمغول ضد المسلمين، فاتصل بأمراء الصليبيين بالشام داعياً إياهم للمشاركة في مشروعه الكبير ، ولكنه لم يجد استجابة سوى من بوهيموند السادس صاحب أنطاكية[١]. ومن الواضح أن الصليبيين في بلاد الشام كانوا عندئذ قد بلغوا درجة الجمود ، بعد أن ذبلت الحماسة الصليبية في غرب أوربا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وتضاءلت الإمدادات البشرية والمادية التي كانت تصل من الغرب ، وهي الإمدادات التي كانت تستثير حماستهم بين حين وآخر وتجدد نشاطهم ، وتحيي فيهم الروح الصليبية بكل معانيها . ومع ذلك فإن هيثوم ظل على وفائه للمغول ، فقام بأكثر من زيارة لإيلخانية مغول فارس ، وقدم كل مساعدة — حربية وغير حربية — للمغول ، سواء بناء على طلب المغول أنفسهم ، أو تطوعاً منه بدافع الانتقام من جيرانه المسلمين .

وجدير بالملاحظة أنه عندما غزا هولاكو العراق ، واستولى على بغداد حيث قضى على الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ ، كان جيشه يضم نسبة كبيرة من الأرمن ، فضلاً عن بعض المسيحيين الشرقيين من النساطرة وغيرهم ؛ وهؤلاء كانوا لايقلون عنفاً عن المغول في تصرفاتهم تجاه المسلمين[٢]. وبعد أن فرغ هولاكو من أمر العراق ، وأخذ يتطلع إلى الشام ، اشترك الملك هيثوم ملك أرمينية الصغرى في وضع الخطة لغزو الشام . وكان أن طلب هولاكو من حليفه الأرمني أن يلتقي به على رأس جيش عند الرها « حتى يذهب معه إلى بيت المقدس ويخلص الأراضي المقدسة من قبضة المسلمين ويسلمها للمسيحيين»[٣] وفعلاً اشترك هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى بنفسه وشخصه في الغزو المغولي للشام أوائل سنة ١٢٥٩ ، فاستولى المغول على حلب في أوائل العام التالي ، وأسروا من أهلها عدداً كبيراً قدره المقريزي بمائة ألف[٤]،

---

(١) Iorga : L'Armerie Cilicienne, p. 126.

(٢) Grousset : op. cit., Tome 3 ; p.p. 544 - 576.

(٣) Hayton : La Flor des Estoires d'Orient (Doc. Arm.), II, p. 170.

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٢٢

وهؤلاء حمل بعضهم وبيعوا في أسواق الرقيق في أرمينية الصغرى بالذات[١]. ولم يتعرض المغول لكنيسة اليعاقبة في حلب ، في حين حرص هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى على إحراق جامع حلب بيده ! ![٢] . ثم زحف المغول يصحبهم هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى — على دمشق ، واستولوا عليها ؛ وعندئذ طلب الملك هيثوم الأرمنى من كتبغا قائد جيوش هولاكو إغلاق مساجد دمشق وتحويل بعضها إلى كنائس ، ففعل ذلك ضارباً عرض الحائط باستعطافات المسلمين[٣] . . .

هكذا كان موقف هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى من المسلمين في محنة الغزو المغولى للعراق والشام . وكان من الطبيعى أن تستثير سياسة ملوك الأرمن شعور المسلمين جميعاً في الشرق الأدنى ، وهو الشعور الذى عبر عنه العمرى بقوله عن الأرمن في قيليقيه إنهم « أخبث عدو للإسلام » . ثم إن ملوك أرمينية الصغرى بعد هيثوم لم يتخلوا عن سياسة مؤازرة مغول فارس للنيل من المسلمين كلما سنحت لهم الفرصة بذلك . من ذلك أن ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى (١٢٧٠ - ١٢٨٩) شارك مغول فارس عند غزوهم بلاد الشام سنة ١٢٨١ على أيام السلطان المنصور قلاون . كذلك نسمع عن هيثوم الثاني ملك أرمينية الصغرى (١٢٨٩ — ١٢٩٣) أنه ظل متعلقاً بأهداب التحالف مع المغول ، وقام من أجل هذا الغرض برحلة لزيارة بايدوا إيلخان مغول فارس . وبينما كان هيثوم الثاني في مراغة ، استولى غازان على السلطة من بايدوا فأعلن هيثوم ولاءه لغازان الذى أكد له حماية الكنائس المسيحية ، كما وعده بالمعونة العسكرية[٤] . ولعل هذه السياسة التى التزم بها ملوك أرمينية الصغرى تجاه المغول ، هى التى جعلت الكتاب المسلمين المعاصرين يصفون ملوك أرمينية الصغرى بأنهم أذناب لبيت هولاكو ، فيقول عنهم العمرى « وللملوك البيت الهولاكوهى عليهم حكم قاهر ، وفيهم أمر نافذ »[٥] .

---

(١) D'OHsson : Histoire des Mongols, III, p.p. 319 - 320.

(٢) Grousset : op. cit., Tome 3, p. 583.

(٣) D'OHsson : op. cit. III, p. 325.

(٤) Setton : op. cit., II, p. 656.

(٥) العمرى : التعريف ، ص ٥٦ ، القلقشندى ، ج ٨ ص ٣٠

هذا عن العامل الأول الذى استثار سلاطين المماليك في مصر والشام ضد أرمينية الصغرى وملوكها ، وجعلهم يكيلون لها الضربة تلو الأخرى حتى قضوا عليها . أما العامل الثاني ، فكان لايقل خطورة في نظر سلطنة المماليك ، وأعنى به العامل الاقتصادى . ذلك أنه إذا كانت سلطنة المماليك قد بنت قوتها وعظمتها على أساس فكرة احتكار الجزء الأكبر من النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، فإنه كان من الطبيعى أن تحقد تلك السلطنة على أية قوة أخرى تحاول أن تجتذب من سلطنة المماليك ذلك النشاط التجارى الواسع ، الأمر الذى يؤثر في دخل دولة المماليك وبالتالى في قوتها . وهنا نلاحظ أن اندفاعة المغول تجاه الشرق الأوسط في النصف الأول من القرن الثالث عشر قد صحبها من حوادث العنف وعدم الاستقرار ما هدد طرق التجارة البرية عبر آسيا إلى الغرب ، الأمر الذى ساعد على انتعاش طريق البحر الأحمر ومصر، وهو الطريق الوحيد الذى بقى بعيداً عن سيطرة المغول . ولكن باستقرار دولة مغول فارس ، أدرك حكامها مدى ما يمكن أن يعود عليهم من وراء تنشيط التجارة عبر بلادهم ؛ فلجأت الحكومة الإيلخانية — وخاصة في عهد غازان (١٢٩٥ — ١٣٠٤) — إلى تأمين طرق التجارة ، والضرب بشدة على أيدى قطاع الطرق والعابثين بها ، وتخفيض الضرائب لتشجيع التجارة عبر أراضيها بين الشرق والغرب[١] . ونتج عن هذا انتعاش طريق تبريز — أرمينية الصغرى ، حيث غدا ميناء إياس على البحر المتوسط مركزاً لنشاط اقتصادى واسع . ولم يلبث أن أحس سلاطين المماليك في مصر بمنافسة أرمينيه الصغرى وميناءها أياس ، وخاصة بعد أن لجأ ملوك أرمينية الصغرى إلى تخفيض الضريبة المفروضة على البضائع المارة ببلادهم من ٤ في المائة إلى ٢ في المائة فقط ،[٢] الأمر الذى جعل تجار جنوا والبندقية وبيزا وموسيليا ، وغيرهم من تجار الغرب الأوربي ، يهرعون إلى ميناء أياس في أرمينية الصغرى لابتياع

---

(١) Behrnauer : Memoires sur les Institions de Police chez les Arabes. (J. As. 5ém Serie, Tome 15, p.p. 490 - 491 — Paris, 1860).

(٢) Heyd : Hist. du Commerce du Levant au Moyen Age, Tome 2, p. 86.

ما يحتاجون إليه من حاصلات الشرق . وقد زار الرحالة الشهير ماركو بولو ميناء أياس في أواخر القرن الثالث عشر ، فأدهشه ذلك النشاط التجارى الضخم في ذلك الميناء ، ووفرة ما كان فيه من التوابل والمنسوجات والأقمشة الحريرية والصوفية الموشاة بالذهب وغيرها من حاصلات الشرق ، وذكر أنه شاهد كثيراً من التجار الأوربيين من مختلف الجنسيات وقد هرعوا لابتياع ما يحتاجون إليه من بضائع(١) . وزاد من نشاط ميناء أياس في أرمينيه الصغرى ما لجأت إليه البابوية بعد سقوط عكا وطرد آخر البقايا الصليبية من الشام في أواخر القرن الثالث عشر من محاولة فرض حصار اقتصادى على مصر ، واصدار المراسيم البابوية لمنع التجار الأوربيين من التردد على موانى مصر والشام(٢). وبذلك لم يبق أمام التجار الأوربيين الراغبين في تنفيذ تعاليم البابوية سوى ميناء أياس في أرمينية الصغرى ، وهو الميناء المسيحى الرئيسى في الشرق الذى يتصل برياً بطرق التجارة الآسيوية ، والذى يستطيع التاجر الأوربي أن يبتاع منه كل ما يرغب فيه من الحاصلات الشرقية حقيقة إن كثيراً من التجار الإيطاليين ضربوا بالمراسيم البابوية عرض الحائط ، واستمروا يتاجرون مع دولة المماليك ، ولكن التسهيلات التى منحها ملوك أرمينية الصغرى للتجار الأوربيين كانت كفيلة بأن تؤثر تأثيراً محسوساً في أوضاع سلطنة المماليك ، الأمر الذى أثار السلاطين بالقاهرة وجعلهم يقررون ضرورة القضاء على تلك الدولة المنافسة لهم في تجارة الشرق . وكانت أخبار النشاط التجارى لأرمينية الصغرى تصل تباعاً لسلاطين المماليك في القاهرة ، وأشار بعض الكتاب المعاصرين إلى القوافل الضخمة التى كانت تمر بأرمينية الصغرى « موسوقة سكراً وصابوناً وفستقا ورصاصاً وقطناً »(٣) .

وفي الوقت الذى حرصت دولة أرمينية الصغرى على مضاربة سلطنة المماليك في نشاطها التجارى ، لجأت أيضاً إلى تعويق التجارة البرية الواصلة

---

(١) Marco Polo : The Description of the World ; p. 94. (ed. A. C. Moule and Paul Pelliot).

(٢) Kammerer : La Mer Rouge, Tome 1, partie 2, p. 151.

(٣) محيى الدين عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ١

من آسيا إلى مصر عن طريق البر . من ذلك ما يرويه أبو المحاسن من أن جماعة من التجار خرجوا سنة ١٢٦٧ من بلاد العجم قاصدين مصر ، فلما مروا بسيس منعهم صاحبها (هيثوم) من العبور وأرسل بشأنهم إلى أبغا حاكم مغول فارس ، فطلب منه أبغا الحوطة عليهم وإرسالهم إليه . وعندما بلغ الخبر السلطان الظاهر بيبرس ، بادر بإرسال تعليماته إلى نائب حلب ، يطلب منه الاتصال بصاحب سيس ، وإنذاره بأنه إذا تعرض لهؤلاء التجار « بشيء يساوى درهماً واحداً أخذت عوضه مراراً »(١) .

وهكذا ظهر أكثر من عامل ليحرك سلطنة المماليك ضد أرمينية الصغرى. وأخذ ملوك أرمينية يجنون بسرعة ثمار سياستهم ، فاستعانوا بالمغول ليتشفوا في المسلمين بالشام ، وجمعوا المال من وراء منافسة دولة المماليك في النشاط التجارى. ولكن سرعان ما أثبتت الأيام أن ملوك أرمينية الصغرى راهنوا على الحصان الخاسر ، وأنه عليهم أن يدفعوا ثمناً باهظاً مقابل المكاسب السريعة التى حصلوا عليها . ذلك أن الهزيمة التى حلت بالمغول في عين جالوت ١٢٦٠ هزت مكانة المغول وهيبتهم في الشرق الأدنى ، كما ترتب عليها إحياء الوحدة بين مصر والشام في ظل سلطنة المماليك . وأخيراً أدرك هيثوم ملك أرمينية الصغرى أنه على وشك أن يجنى ثمار ما قدمت يداه ، فحاول أن يتراجع بسرعة في سياسته ، وأرسل سفراءه إلى السلطان الظاهر بيبرس يسترضيه ، ولكن مطالب سلطنة المماليك كانت قاسية بالنسبة لملك أرمينية ، فلم يجد مفراً من الرحيل إلى تبريز طالباً النجدة السريعة من سادته المغول .

على أن السلطان الظاهر بيبرس كان أسرع إلى الحركة ، فلم يكتف بتحريض نائبه في حلب — وهو الأمير عز الدين أيدمر الشهابي — بمناوشة « أهل سيس » وأسر بعض الأرمن(٢) ، وإنما قرر بيبرس أن ينتهز فرصة غياب الملك هيثوم عن بلاده يستجدى معونة المغول ، وقرر مهاجمة بلاده .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨١

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٧٦

وفعلاً رحل الظاهر بيبرس إلى دمشق سنة ١٢٦٦ للإشراف من هناك على الحملة التى أزمع توجيهها إلى أرمينية الصغرى . ويبدو أن الأرمن أحسوا بنية السلطان تجاههم ، فبادروا بإرسال رسلهم بهدية إلى الظاهر بيبرس — وهو في صفد في طريقه إلى دمشق — ولكنه « لم يقبلها ولا سمع رسالتهم »[(١)]

واختار السلطان الظاهر بيبرس الملك المنصور الثاني محمد صاحب حماه مقدماً على الحملة ، ورافقه الأمير عز الدين أوغان والأمير قلاون ، فاتجهوا جميعاً على رأس الجيش إلى حصن دربساك ، ومنه دخلوا الدربند إلى قيليقية . وكان الملك هيثوم قد أقام سلسلة من التحصينات لحماية بلاده من أية هجمات تأتي من ناحية الشام ، فأقام « على رءوس الجبال أبراجاً ». ولما كان هيثوم نفسه متغيباً عن بلاده وقت الغزو المماليكى ، فإن الأرمن جمعوا صفوفهم تحت زعامة أخيه سمباد ، وشاركه ثوروس وليون —ابنا هيثوم — في محاولة لصد الخطر[(٢)]. ولكن الأرمن لم يستطيعوا الصمود أمام فرسان المماليك ، فقتل الأمير ثوروس وأسر أخوه ليو ، وابن عمه باسيل بن سمباد . ولم يلبث أن تمزق جيش الأرمن ، فاقتفى المماليك أثرهم وهم يقتلون ويأسرون ويحرقون . واستولى المماليك على قلعة لفرسان الداوية في قيليقية إسمها قلعة العامدين ، فقتل وأسر من فيها ، وأحرقت القلعة[(٣)] . ثم دخل المماليك سيس — عاصمة أرمينية الصغرى — « فأخربوها وجعلوا عاليها سافلها ، وأقاموا أياماً يحرقون ويقتلون ويأسرون » وفي الوقت الذى بقى قائد الحملة — المنصور محمد صاحب حماه — في سيس اتجه الأمير أوغان إلى جهة الروم ، والأمير قلاون إلى المصيصة وأذنه وأياس وطرسوس « فقتلوا وأسروا وهدموا عدة قلاع وحرقوا » ثم اجتمع الأمراء في سيس « ومعهم من الغنائم ما لا يعد ولا يحصى ، حتى بيع الرأس من البقر بدرهمين ولم يوجد من يشتريه[(٤)] »

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٣٩

(٢) Setton : op. cit., vol. 2, p. 654.

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر .
(Rec. Hist. Cr. Or. ; I, p. 151).

(٤) المقريزى : السلوك ، ١ ص ٥٥٢

وأخيراً عاد الغزاة إلى الشام ومعهم الأسرى والغنائم ، فأكرمهم السلطان الظاهر بيبرس ، وخلع على الأمراء وأنعم على الجنود ، ثم اتجه السلطان إلى مصر في العام التالى – سنة ١٢٦٧ – ومعه ليو ابن الملك هيثوم أسيراً[١] . والواقع إن الملك هيثوم عاد إلى بلاده ليجدها تئن أنين الموجوع ، وعندئذ فقط أدرك هيثوم خطأ سياسته ، وإن كان ذلك جاء بعد فوات الأوان . وكان من العسير على هيثوم أن يستمر في الحكم بعد ذلك ، وسط مظاهر الدمار والخراب التى حلت ببلاده ؛ ولكنه انتظر الإفراج عن إبنه الأسير ليعتزل الحياة السياسية بعد ذلك .

و يبدو أن المفاوضات طالت بين هيثوم من ناحية والظاهر بيبرس من ناحية أخرى من أجل إطلاق سراح الأمير ليو . ففى سنة ١٢٦٧ أرسل هيثوم أخاه فاساك « يشفع في ولده للسلطان » ؛ واستمر هيثوم « يسأل في إطلاق ولده ليفون (ليو) ويعرض في فدائه الأموال والقلاع »[٢] ولكن شروط بيبرس كانت قاسية إذ طلب مقابل ذلك إطلاق سراح سنقر الأشقر الذى كان المغول قد أسروه في حلب ، كما اشترط رد القلاع التى كان الأرمن قد أخذوها من المسلمين ،وهى بهسناودربساكومرزبان ورعبان وشيح الحديد[٣]. وعندئذ طلب هيثوم إعطاءه مهلة سنة ، حتى يرجع إلى إيلخان مغول فارس ليطلب منه إطلاق الأمير سنقر. ولما أجاب المغول هيثوم إلى طلبه بإطلاق الأمير سنقر الأشقر ، أرسل رده إلى السلطان بيبرس بذلك ، ولكنه غير رأيه في تسليم القلاع السابقة ، فرد الظاهر بيبرس على الملك هيثوم يقول « إذا كنت تقسو على ولدك وولى عهدك فأنا أقسو على صديق ما بينى وبينه نسب ، ويكون الرجوع منك لا منى ؛ ونحن خلف كتابنا ، فمهما شئت افعل بسنقر الأشقر ! ! ». وهكذا اضطر هيثوم تحت ضغط عاطفة الأبوة

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ؛ ج ١ ص ١٥٢ وما بعدها (Paris, 1932).

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ورقة ٩١ (مخطوط) العينى : (Rec. Hist. Cr. Or. II ; p.p. 235 - 236).

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر .(Rec. Hist. Cr. Or. I ; p. 153)

إلى الإذعان ، فتقرر الصلح على أن يرد الأرمن بهسنا ودربساك وكل ما استولوا عليه من بلاد الإسلام ، مع إطلاق سراح الأمير سنقر الأشقر ، مقابل إطلاق الأمير ليو وابن عمه . وبعد أن كتبت الهدنة بانطاكية ، سافر الأمير بلبان الرومى الدوادار والصدر فتح الدين بن القيسراني كاتب الدرج لاستحلاف هيثوم ، ثم حلف الأمير ليو على النسخة التى حاف عليها أبوه « وهو قائم مكشوف الرأس » وعندئذ سمح له بالسفر إلى بلاده ، في حين عاد الأمير سنقر الأشقر إلى الشام (١) .

وفي خلال هذه الأحداث ، ظل الأرمن متعلقين بمغول فارس ، بوصفهم القوة القريبة التى يمكن أن تحميهم من ضغط المماليك . وثمة إشارات في المراجع تشير إلى استمرار الرابطة بين إيلخانات فارس وملوك أرمينية الصغرى ، منها أن رسل المغول إلى المماليك لمحاولة عقد صلح بين الطرفين كانت غالباً تأتي إلى الشام ومصر مصحوبة « بجماعة من أصحاب سيس (٢) » . على أن السلطان الظاهر بيبرس استمر يقف موقفاً صلباً من مغول فارس وأرمن قيليقيه جميعاً . وزاد موقف أرمينيه الصغرى سوءاً عندما استولت جيوش الظاهر بيبرس على أنطاكية — كبرى الإمارات الصليبية في شمال الشام — سنة ١٢٦٨ . ولم يكن في استطاعة فرسان الداوية عندئذ أن يحتفظوا بقلاعهم في إقليم أنطاكية ، بعد سقوط مدينة أنطاكية نفسها في قبضة المماليك ، فاستسلمت بغراس دون مقاومة ، وهرب من كان فيها من الداوية (٣) . وبذلك انقطعت صلة الصليبيين في طرابلس وعكا بالأرمن في قيليقية ، وتبخرت إلى الأبد فكرة إمكان تحقيق تحالف بين أنطاكية وأرمينية الصغرى والمغول من أجل ضرب العدو المشترك ، ممثلاً في المسلمين (٤) .

والواقع إن أرمينية الصغرى كانت في موقف لاتحسد عليه . وخير صورة لذلك الموقف ما ذكره الرحالة ماركوبولو في أواخر القرن الثالث عشر

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٥٦٩ — ٥٧٠ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٤٤

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، حوادث سنة ٦٦٦هـ .

(٤) Grousset : op. cit., III, p.p. 642 - 643.

من أنها كانت الفريسة الحائرة بين أسد المغول ونمر المماليك وذئب الأتراك وأفعى قراصنة البحر[١] . وفي الوقت الذى أحاط المسلمون بقيليقية إحاطة السوار بالمعصم ، تلفت الأرمن حولهم فلم يجدوا خيطاً يمكن أن يتشبثوا به سوى مغول فارس . وهكذا اصطحب هيثوم ابنه ليو إلى بلاط أبغا — إيلخان مغول فارس — ليقدمه له .وبعد ذلك اعتزل هيثوم الحكم فعلاً سنة ١٢٦٩ ، وقضى بقية حياته منزوياً في أحد الأديرة ، فخلفه إبنه ليو الثالث (١٢٦٩ — ١٢٨٩) الذى اتجه مرة أخرى إلى بلاط إيلخان مغول فارس يطلب منه الاعتراف به ملكاً على أرمينية الصغرى . ويبدو أن ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى كان متعلقاً بأحلام أبيه بإمكان عمل تحالف بين المغول والقوى المسيحية لطرد المسلمين من الشام ، فأرسل عدة نداءات إلى الغرب الأوربي لتحقيق هذا الأمر . ومن جهة أخرى فإن أبغا — إيلخان مغول فارس — أرسل رسلاً من قبله إلى البابوية ، فضلاً عن إدوارد الأول ملك انجلترا ، للقيام بعمل مشترك ضد المماليك . ولكن جميع هذه الآمال العريضة لم يقدر لها النجاح ، لأن الحقيقة الكبرى هى أن الظروف التى أحاطت بمختلف أطراف ذلك الحلف المزعوم في أواخر القرن الثالث عشر حالت دون تنفيذ ذلك المشروع[٢] . فالقوى المسيحية في الغرب الأوربي كانت غارقة في مشاكلها الخاصة التي ظهرت في مرحلة التحول الفكرى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى في أواخر العصور الوسطى . والمغول وقد انكسرت حدة اندفاعتهم على صخرة عين جالوت كادت تتوقف حركتهم التوسعية في الشرق الأدنى ، وصحب ذلك تفتت دولتهم الكبرى إلى دويلات صغيرة دب بينها النزاع والشقاق ، مما جعل إيلخانية مغول فارس عاجزة عن القيام بأى مجهود حربي جديد . هذا في الوقت الذى تعرضت دولة مغول فارس لتيارات جديدة — إسلامية وغير إسلامية — أخذت تثير نوعاً من الصراع الداخلى ، مما كان له أثره في السياسة الخارجية لتلك الدولة .

---

(١) Marco Polo : op. cit., I, p. 42.

(٢) Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages ; ps. 23, 45, 54.

وهكذا لم يستجب الغرب الأوربي لنداء المغول والأرمن جميعاً ، ولانجد في المراجع المعاصرة إشارة إلى وصول نجدة من الغرب ، سوى ماحدث سنة ١٢٧٠ (٦٦٨ هـ) من أنه « ورد الخبر بأن جماعة من الفرنج خرجوا من الغرب وبعثوا إلى أبغا بن هولاكو بأنهم واصلون لمواعدته من جهة سيس في سفن كثيرة . فبعث الله على تلك السفن ريحاً أتلفت عدة منهم ، ولم يسمع بعدها لمن بقى في الأخرى خبر »[١] ويضيف النويرى إلى هذه الحقيقة أن الفرنج الذين خرجوا من الغرب في تلك السنة كانوا من عندملك أرغونة[٢] . وفيما عدا ذلك لانسمع إلا عن مشروع أجوف وضعه أحد رجال ملك فرنسا فيلب الرابع (١٢٨٥ — ١٣١٤) وتبنت البابوية هذا المشروع ، إذ أرسل البابا مندوباً لاستشارة هيثوم ملك أرمينية الصغرى السابق — وكان معتزلاً الحياة في أحد أديرة فرنسا — فأوصى هيثوم بإعداد حملتين لمهاجمة المسلمين ، إحداهما بحرية تتخذ قبرس وشواطئ أرمينية الصغرى قاعدة لها ، والأخرى برية تتعاون مع المغول والأرمن في قيليقية . ولكن شيئاً من هذا المشروع لم يتحقق[٣]. على أننا نستطيع أن نخرج من هذا كله بحقيقةهامة هى أن المماليك أدركوا تماماً الدور الذى يقوم به المغول من ناحية و« صاحب سيس » من ناحية أخرى في تأليب الغرب الأوربي ، في الوقت الذى اتضح لهم أن صاحب سيس لم يستطع الحصول على ماكان ينشده من معونة . وهكذا صار المماليك أحراراً في العمل على تقويض بقايا البناء الصليبي في الشام ، فضلاً عن مهاجمة الممالك المسيحية التى تمخضت عنها الحركة الصليبية في الشرق الأدنى وهما مملكة قبرس وأرمينية الصغرى .

وربما أدى انشغال السلطان الظاهر بيبرس بالتمكين لنفسه في الداخل من ناحية ، ثم بحروبه العديدة ضد التتار والصليبيين والنوبة من ناحية أخرى . . . ربما أدى ذلك إلى إعطاء ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى فرصة قصيرة يلتقط فيها أنفاسه ويحاول إصلاح الأوضاع السيئة التى غدت فيها بلاده . ذلك أن

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٥٨٤

(٢) النويرى : نهايةالأرب ، ج ٢٨ ورقة ١٠٠ (مخطوط) .

(٣) Atiya : op. cit., p.p. 53 - 73.

الأمر لم يقتصر على ما ألحقته جيوش المماليك من دمار بأرمينية الصغرى في حملة سنة ١٢٦٦ ، بل تعرضت قيليقية سنة ١٢٦٩ لزلزال رهيب خرب « عدة قلاع وهلك كثير من الناس ، حتى سال النهر دماً ، وتلفت عدة جهات »(١) . وهكذا كان على ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى أن يعمل بسرعة لإصلاح ما أفسده المماليك من ناحية وما خربته الزلازل من ناحية أخرى . ونجح ليو الثالث فعلاً في إعادة بناء إياس حتى غدت مرة أخرى مركزاً تجارياً نشيطاً ، وخاصة بعد أن منح البنادقة امتيازات تجارية خاصة فيها سنة ١٢٧١ . وفي هذه السنة بالذات زار ماركوبولو ميناء أياس ووصف عظمتها واتساع نشاطها التجارى(٢).

على أن سكوت سلطنة المماليك عن أرمينية الصغرى هذه السنوات القليلة لم يكن معناه ارتياح المماليك في مصر إلى النشاط المعادى الذى يقوم به ملوك أرمينية الصغرى ضد المسلمين ، وبخاصة في مصر والشام . ولم يلبث أن وجه السلطان الظاهر بيبرس جيوشه ضد أرمينية الصغرى مرة أخرى سنة ١٢٧٥ . ولاندرى بالضبط السبب المباشر لتلك الحملة ، وإن كانت ثمة إشارة في بعض المراجع إلى أن معين الدين البرواناه(٣) كتب إلى السلطان الملك الظاهر يحرضه على الدخول إلى سيس ، وقال له « اقصد هذه السنة سيس ، وفي السنة الآتية أملكك البلاد(٤) » وكان هجوم المماليك تلك المرة سريعاً خاطفاً ولكنه عنيفاً مدمراً ، إذ عهد السلطان بيبرس إلى الأميرين قلاون الألفى وبيليك الخازندار بقيادة العسكر ، فأخذوا معهم المراكب مفصلة على ظهور البغال ليجمعوا أجزاءها في قيليقية ويعبروا فيها أنهارها . وما كاد المماليك يستولون على المصيصة ، حتى لحق بهم السلطان بيبرس نفسه ، « فانتهبها وهدم قصور التكفور ومناظره وبساتينه » . وفي الوقت

---

(١) المقريزى السلوك ، ج ١ ص ٥٧٨

(٢) Marco Polo : op. cit., p. 94.

(٣) البرواناه ، لقب معناه الحاجب ، والمقصود به هنا وزير سلطان سلاجقة الروم .

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ؛ ص ٢٢٥

الذى قضى السلطان العيد في سيس ، أرسل إلى أياس فريقاً من الجند « فنبهوا وحرقوا وقتلوا جماعة ، وكان قد فر من أهلها نحو الألفين ما بين فرنج وأرمن في مراكب ، فغرقوا جميعاً في البحر » . هذا في حين انبثت الغارات في الجبال « فقتلوا وأسروا وغنموا » . وأخيراً عادت جيوش المماليك إلى أنطاكية وعلى رأسها السلطان بيبرس ، بعد أن « غنموا ما لا يحصى كثرة وطرحت الغنائم بمرج أنطاكيه ، فملأته طولاً وعرضاً »[1] .

ولا أدل على ضعف إيلخانية مغول فارس في ذلك الدور من أن السلطان الظاهر بيبرس فعل كل ذلك بأرمينية الصغرى دون أن يتقدم حلفاؤها المغول إلى مساعدتها . بل إن السلطان الظاهر بيبرس أراد أن يوجه لطمة أخرى مباشرة إلى إيلخانية مغول فارس ليثبت لأمراء أرمينية الصغرى وملكها أن المغول أضعف من أن يحموا أنفسهم ، فاختار بيبرس أن يهاجم بلاد سلاجقة الروم التى كانت مشمولة بالحماية المغولية . وفعلاً نجح بيبرس فى أن يمزق الجيش المغولى عند أبلستين سنة ١٢٧٧ ، ثم احتل قيصرية حيث خطب له على منابرها « وجلس على تخت آل سلجون »[2] . ولم يستطع كيخسرو الثالث سلطان سلاجقة الروم الذى كان صغيراً — أو وزيره سليمان البرواناه — سوى أن يعلنا خضوعهما لسلطان المماليك الظاهر بيبرس[3] . وبعد عودة بيبرس ، حضر أبغا إيلخان مغول فارس ، فبكى عندما شاهد قتلى المغول مكدسين ، وحزن حزناً شديداً[4] . ولعل هذا هو ما استهدفه بيبرس ، إذ جعل أبغا يبكى على مرأى من ملك سيس ، ليعلم الأخير مدى قوة حليفه وقدرته على حماية مصالحه ، فما باله بمصالح الغير ! ![5] .

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٦١٧ — ٦١٨

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٢٥٩ وما بعدها .

(٣) D'OHsson : op. cit., III, p.p. 481 - 488.

(٤) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ـ المجلد الثانى من الجزء الثانى ص ٦٢ ـ ٦٣ ، أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٥ هـ .

(٥) عن هـذه الغزوة التى قام بها السـلطان الظاهر بيبرس فى بلاد سلاجقة الروم ، انظر الرسالة المفصلة التى كتبها محيى الدين بن عبد الظاهر ، وفيها أخبار الغزوة بالاسهاب :
(القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ١٣٩ وما بعدها) .

وإذا كان أبغا قد رغب في الإنتقام ، فإن ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى لم يكن أقل رغبة بعد أن تعرضت بلاده في مدة قصيرة لضربتين خطيرتين من جانب المماليك ، بحيث لم يكد يفرغ من تعمير مدنه وحصونه وميناء أياس بالذات ، حتى عاد المماليك ليهدموا البناء الذى أجهد نفسه في تعميره . وهكذا اتفق أبغا إيلخان مغول فارس وليو الثالث ملك أرمينية الصغرى على القيام بعمل حربي مشترك في بلاد الشام سنة ١٢٨٠ — ١٢٨١ ؛ أى في عهد السلطان المنصور قلاون (١٢٧٩ — ١٢٩٠) . وكانت هذه الغزوة الخطيرة أهم عمل حربي قام به إيلخانات فارس منذ وفاة هولاكو ضد سلطنة المماليك ؛ وفيها وقف الأرمن جنباً إلى جنب مع المغول لمحاربة المماليك[١] . وزاد من خطورة هذة الحملة أن الأمير سنقر الأشقر أظهر عداءه للسلطان قلاون ، وفر مستنجداً ببلاط المغول ، فأطلع أبغا على كثير من خبايا المماليك[٢] .

وكان أن أرسل أبغا قوة استطلاعية من المغول إلى شمال الشام سنة ١٢٨٠ ، واستطاعت هذه القوة أن تحتل عينتاب وبغراس ودربساك ، فضلاً عن حلب التى دخلها المغول « وأحرقوا الجوامع والمساجد والمدارس المعتبرة ودار السلطنة ودور الأمراء »[٣] . وبعد ذلك انسحب المغول مرة أخرى إلى الجزيرة ، مما يؤكد أن هذه الغزوة كانت استطلاعية لمجرد تمهيد الطريق للغزوة الأخرى الكبيرة في العام التالى . وفعلاً خرج أبغا بنفسه إلى الشام على رأس جيش كبير من إقليم الجزيرة في سبتمبر سنة ١٢٨١ ، ثم لحق به أخوه منكوتمر الذى أتي من كابادوكيا عن طريق عينتاب ، وانضم إليهما ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى[٤] . وقد قدر المؤرخون جيش أبغا بخمسين ألف مقاتل من المغول ، فضلاً عن ثلاثين ألفاً من « حشود وجموع من أجناس مختلفة مثل الكرج والأرمن والعجم وغيرهم » ، فيكون المجموع ثمانين

---

(١) Setton : op. cit., II, p. 655.

(٢) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٩ هـ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٩

(٤) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ؛ ج ٢ ، م ٢ ، ص ٨٣

ألفاً[١] . ثم زحف الجيش المغولى على وادى العاصى ، فوصل أمام حمص حيث كان جيش المماليك مرابطاً تحت قيادة السلطان قلاون . وفي موقعة حمص التى دارت بين الطرفين في نهاية أكتوبر سنة ١٢٨١ حلت الهزيمة بالمغول وحلفائهم « وهلك منهم خلق كثير » فولوا مدبرين عبر الفرات . أما ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى ، فقد انسحب عائداً إلى بلاده ، وإن كان قد وقع في الطريق في كمين أعده له التركمان والأكراد ، فخرج إليه الأمير شجاع الدين السناني « فقتلهم وأسرهم عن آخرهم ، بحيث لم يفلت منهم دون العشرين »[٢] .

ولا شك في أن رغبة المماليك في الإنتقام من أرمينية الصغرى لتواطئها مع المغول كانت شديدة عاجلة ، ولكن أجل من أخذ الثأر أن أرغون — إيلخان مغول فارس (١٢٨٤ — ١٢٩١) — كان شديد العطف على المسيحيين الأمر الذى جعل ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى يقصد بلاطه ليعرب عن ولائه له ويطلب مساندته . ويبدو أن السلطان المنصور قلاون خشى تدخل المغول إن هو هاجم أرمينية في ذلك الدور ، فوافق على عقد الصلح مع ليو الثالث — وهو في حقيقة الأمر هدنة لمدة عشر سنوات — وتم ذلك في يونيو سنة ١٢٨٥ . وكانت شروط هذه الهدنة قاسية بالنسبة للأرمن ، إذ كان عليهم أن يدفعوا جزية سنوية قدرها ألف ألف درهم ، فضلاً عن منح كثير من الإمتيازات لسلطنة المماليك ، ومع ذلك فلم يكن هناك حل أمام صاحب سيس غير الخضوع[٣] . ومن ناحية أخرى لجأ السلطان المنصور قلاون

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ .

(٢) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٦٩٨

(٣) تعتبر هذه الهدنة فى نظرنا على جانب خطير من الأهمية نظرا لأنها — فيما نعلم — النموذج الوحيد الكامل للاتفاقيات بين سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى . وقد ذكر نص هذه الهدنة كاملا محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ؛ ص ٩٣ ومابعدها . هذا وقد ذكر القلقشندى نص هدنة أخرى يغلب عليها طابع الاختصار والتعميم ، ولكنه رجح أن تكون نموذجا لما كان يكتب به لصاحب سيس (صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ٧ — ١٩) .

إلى مواجهة المنافسة الخطيرة التى تشكلها أرمينية الصغرى وميناؤها أياس في وجه التجارة المماليكية بأساليب مشابهة ، فأرسل السلطان إلى نوابه بالثغور يأمرهم بحسن معاملة التجار الأجانب وملاطفتهم والتودد إليهم وترغيبهم في الوفود إلى مصر ، ومراعاة العدالة فيما يجبونه منهم من أموال ، بحيث لا يأخذون منهم سوى الحقوق السلطانية(١) . كذلك أصدر السلطان قلاون منشوراً إلى التجار الذين يفدون على مصر « من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم ... » يرحب بهم ويصف لهم محاسن مصر ، ويغريهم على القدوم إليها بمتاجرهم « ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردد ... فليعزم عزم من قدر له في ذلك الخير والخيرة ، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ذخيرة ، لأنها في الدنيا جنة عدن لمن قطن ، ومسلاة لمن تغرب عن الوطن ... »(٢) .

وصادف في السنة نفسها التى خلف فيها هيثوم الثاني أباه ليو الثالث في حكم أرمينية الصغرى — وهى سنة ١٢٨٩ — أن استولى السلطان المنصور قلاون على طرابلس ، وعندئذ أحس هيثوم الثاني بضعف مركزه ، فلجأ إلى شراء مسالمة المنصور قلاون ، ومن بعده الأشرف خليل (١٢٩٠ — ١٢٩٣) بالمال . ويذكر المقريزى أن رسل هيثوم الثاني قدمت على السلطان قلاون وهو بطرابلس سنة ١٢٨٩ « يسألون مراحمه » ، فطلب منهم مرعش وبهسنا ، والقيام بالقطيعة على العادة ، « وأعادهم وقد خلع عليهم(٣) » . ولكن يبدو أنه إذا كان المنصور قلاون وإبنه الأشرف خليل قد قبلا رجاء هيثوم الثاني ، فإن ذلك ليس معناه التغاضى عن أمر أرمينية الصغرى ، وإنما لانشغالهما — على التوالى — بالإستعداد للإستيلاء على عكا ، آخر البقايا الصليبية الكبرى بالشام ، وما يستتبع ذلك من طرد الصليبيين نهائياً من أرض الشام ، وعندئذ يسهل أمر أرمينية الصغرى .

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٩٨
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٤٠ — ٣٤١
(٣) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٧٤٨

ومصداق هذا القول أن السلطان الأشرف خليل لم يكد يستولى على عكا سنة ١٢٩١ حتى كتب إلى ملك أرمينية الصغرى كتاباً أشاد فيه بعظمة الجيوش المماليكية ، ودعاه إلى حمل القطيعة المقررة إلى الأبواب السلطانية ، والحضور بنفسه لتقديم واجب الولاء لسلطان المماليك قبل فوات الأوان[١]. واتبع السلطان خليل ذلك بالزحف على قلعة الروم سنة ١٢٩٢ ، فاستولى عليها بعد حصار أكثر من شهر ، وعندئذ قتل كثيراً من أهلها وهدم دورها ونهبها ، وكان من جملة الأسرى ستفن الرابع رئيس كنيسة أرمينية الصغرى ؛ واحتفل المسلمون بسقوط قلعة الروم احتفالا كبيراً [٢] .

وإذا كان الأشرف خليل لم يوغل في قيليقية عندئذ ، فإنه ما كاد يستقر في دمشق حتى أعد قواته للزحيف على سيس . ولكن ملك أرمينية الصغرى تدارك الأمر في سرعة ، فأرسل رسله « يطلب الصلح ورضاء السلطان عليه ، ومهما طلب منه من القلاع والمال أعطاه ، » . وكان أن شفع في صاحب سيس ، فتم الاتفاق على أن يتسلم نواب السلطان من صاحب سيس ثلاث قلاع هى بهسنا ومرعش وتل حمدون « ففرح الناس بذلك لأنه كان على المسلمين من بهسنا أذى عظيم »[٣] .

ويبدو أن مقتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون سنة ١٢٩٣ ، وما أعقب ذلك من اضطرابات صحبت قيام السلطان الناصر محمد بن قلاون ثم عزله بعد سنة وقيام السلطان العادل كتبغا (١٢٩٤ — ١٢٩٦) ، وماحدث في عهده من انخفاض النيل واشتداد الغلاء وانتشار الوباء . . .[٤] كل ذلك أثار جواً مضطرباً في سلطنة المماليك ، مما أعطى أرمينية الصغرى هى الأخرى

---

(١) زيتر شتين : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٨ (لندن ، ١٩١٩) .
(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ورقة ٣٠١ (١) (مخطوط) .
مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ — ٣٩٠
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٣٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤
(٤) سعيد عبد الفتاح عاشــور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ١٠٣ — ١٠٨

فرصة تلتقط فيها أنفاسها مرة أخرى . على أن الأوضاع الداخلية في أرمينية الصغرى هى الأخرى لم تكن في ذلك الدور أقل اضطراباً من أحوال سلطنة المماليك ، إذ تنازل هيثوم الثاني عن الحكم لأخيه ثوروس الثالث سنة ١٢٩٢ ثم أجبر هيثوم على العودة إلى الحكم مرة أخرى ، ولكن أخاً ثالثاً — هو سمباد انتزع العرش لنفسه سنة ١٢٩٦ ، وظل في الحكم حتى عزله أخ رابع هو قسطنطين سنة ١٢٩٨[١] . وأخيراً عاد هيثوم إلى العرش وسط مظاهر الفوضى والارتباك التى عمت مملكة أرمينية الصغرى . وطوال هذه الفترة لم يكف ملوك أرمينية الصغرى عن التعلق بأهداب التحالف مع المغول فحاولوا إحياء فكرة القيام بحملة مشتركة ضد دولة المماليك . ومن أجل هذا الغرض قام هيثوم برحلة زار فيها بايدو إيلخان مغول فارس . ولما عزل بايدو وحل محله غازان في حكم دولة المغول ، بادر هيثوم بتقديم الولاء للإيلخان وربما أحس هيثوم بضعف مركز أرمينية الصغرى وحاجتها إلى مزيد من الحماية ، فسعى إلى التحالف مع الإمبراطورية البيزنطية عن طريق عقد أواصر المصاهرة بين البيتين الحاكمين في الدولتين ، وذهب بنفسه لزيارة القسطنطينية سنة ١٢٩٥[٢] .

على أن اضطراب دولة أرمينية الصغرى من ناحية ودولة مغول فارس من ناحية أخرى لم يخف على المماليك في مصر . ويروى المقريزى أن « أخبار الخلف بين المغُل » وصلت إلى القاهرة ، فاستقر الرأى بين المماليك على انتهاز الفرصة « وأخذ سيس مادام الخلف بين المغل »[٣] . وكان ذلك سنة ١٢٩٨ في عهد السلطان المنصور لاجين (١٢٩٦ — ١٢٩٨) عندما خرجت حملة كبرى لتحقيق هذا الغرض ، على رأسها الأمين بدر الدين بكتاش الفخرى والأمير حسام الدين لاجين الرومى الإستادار ، والأمير شمس الدين اقسنقر كرتاى ، ثم انضم إليهم الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماه . فلما سمع « متملك سيس » بأخبار هذه الحملة ، أرسل إلى

(١) Iogra : L'Armenie Cilicienne, p.p. 128 - 129.

(٢) Setton : op. cit., II. p.p. 656 - 657.

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٨٣٧

السلطان يسأله العفو فلم يجبه[١] . وعند وصول هذه الحملة إلى حاب انضم إليها الأمير علم الدين سنجر الدوادارى ؛ ثم تفرع الجيش المماليكى إلى فرعين ، فتوجه الأمير بدر الدين بكتاش من بغراس إلى اسكندرونة ، ونازل تل حمدون ؛ في حين توجه الملك المظفر صاحب حماه وبقية الأمراء إلى نهر جهان ، ودخلوا جميعاً دربند سيس[٢] . وهناك اختلف زعماء الحملة ، فأشار الأمير بكتاش بالحصار ومنازلة القلاع ، في حين رأى سنجر الدوادارى الاكتفاء بالغارة فقط ، وطلب أن يكون مقدم العسكر ، أى له القيادة العليا على الحملة . على أن بكتاش لم ينازعه ووافقه على رأيه ، فأغار صاحب حماه على مدينةسيس وسار الأمير بكتاش إلى أذنه ، حيث اجتمعت الجيوش المماليكية .وبعد ذلك شرعت الحملة في العودة ، فاتجهوا من أذنه إلى المصيصة ومنها إلى بغراس فأنطاكية ثم حلب في طريقهم إلى مصر[٣] .

وكان الأمير بكتاش قد أرسل إلى السلطان في مصر يخبره بما كان من أمر الدوادارى وكيف أنه نازعه القيادة ومنعه من حصار المدن والقلاع للاستيلاء عليها ؛ فجاء في تلك الأثناء رد السلطان منكراً على الأمير الدوادارى مسلكه ، على أن تكون القيادة العليا للأمير بكتاش ، وألا ترجع الحملة إلى الديار المصرية إلا بعد فتح حصن تل حمدون ، فإن لم يفعلوا ذلك فلا إقطاع لهم بالديار المصرية . وهكذا عادت الحملة إلى أرمينية الصغرى بقيادة الأمير بكتاش ، فاتجهوا إلى تل حمدون وعندئذ وجدوها خالية بعد أن نزح من كان فيها من الأرمن إلى قلعة نجيمة ، فاستولى المماليك على تل حمدون وأقام الأمير بكتاش حامية فيها[٣] .

وفي تلك الأثناء أرسل الأمير بلبان الطباخى نائب حلب عسكراً استولوا على قلعة مرعش . على أن الأخبار جاءت إلى الأمير بكتاش — وهو على تل

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٤٣٧
النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣١٦ (ب) (مخطوط) .
(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ص ٣٦ — ٣٧ ، المقريزى: السلوك ، ج ١ ص ٨٣٨ — ٨٣٩
(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ورقة ٣١٧ (ا) (مخطوط) .

حمدون — بأن الأرمن احتشدوا في واد تحت قلعة نجيمة وحميْص ، وأنهم يحتمون بقلعة نجيمة . فأرسل قوة من رجاله هاجموا قلعة نجيمة وقتلوا كثيراً ممن كان بالوادى من الأرمن . وعندما جاء البريد من السلطان بضرورة منازلة قلعة نجيمة حتى تفتح ، اختلف الأمراء ، فقال الأمير الدوادارى « متى نازلها الجيش بأسره لايعلم من قاتل ومن عجز وتخاذل ، والرأى أن يقاتل كل يوم أمير بألفه » . وأخذ يتباهى بشجاعته ويصغر من شأن القلعة ويقول : « أنا آخذها في حجرى » . . فوافقه الأمراء على رأيه وتقرر أن يبدأ هو بمحاولة الاستيلاء على قلعة النجيمة . ولكنه ما كاد يقترب من سور القلعة حتى أصابه حجر المجنيق فقطع مشط رجله وسقط عن فرسه إلى الأرض وكاد الأرمن يأسرونه لولا أن أنقذه المماليك . ثم أرسل إلى حلب ومنها إلى القاهرة[١] .

وقد دفع ذلك المماليك إلى الاستماته للاستيلاء على تلك القلعة ، فأقاموا الستائر لتحميهم من أحجار المنجنيق ، واقتربوا من السور ونقبوه ، فاضطرت القلعة إلى التسليم أخيراً ، بعد أن قلت المياه بداخلها . وتذكر المراجع أن المماليك لم يكتفوا بالاستيلاء على هذه القلعة ، وإنما استولوا على عدد آخر كبير من حصون الأرمن ، منها النقير وحجر شغلان وسرفندكار وزنجفرة وحُمْيص[٢] . وقام الأمير بكتاش بتسليم هذه القلاع كلها إلى سيف الدين اسندمر كرجى — أحد أمراء دمشق — وعينه نائباً بها .

أما الملك هيثوم ملك أرمينية الصغرى ، فكان لايزال يأمل في مساندة المغول لردع المماليك وكف أيديهم عن مملكته . ولم تلبث أن أتيحت الفرصة لهيثوم لإثارة احتكاك بين غازان حاكم المغول وسلطنة المماليك . ذلك أن غازان أرسل أحد رجاله — وهو سلامش بن أفال — إلى بلاد الروم لأخذها ، ولكن سلامش انشق عن سيده وأرسل إلى السلطان المنصور لاجين في مصر يطلب مساعدته على قتال غازان[٣] . ولما هزم سلامش فر إلى مصر حيث

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٨٤٠ .

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٤٣٨ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣١٧ (ب) .

(٣) بيبرس المنصورى : زبدة الفكرة ، ج ٩ ورقة ١٩٧ (ب) .

أكرمه السلطان وأمده بجيش يعود به إلى بلاده لإحضار عياله . على أن سلامش لم يلبث أن وقع في قبضة غازان ، فقتله . ومهما يكن من أمر ، فإن « سلامش هذا من أكبر الأسباب في حركة غازان إلى بلاد الشام . ذلك أنه نهب ماردين بعسكر حلب ، وفعل أفعالاً قبيحة ، فحرك فعله ما عند غازان وجعله حجة لمسيره[١] » .

وكان أن تحرك غازان للانتقام سنة ١٢٩٩ ، وشاركه هيثوم ملك أرمينية الصغرى على رأس خمسة آلاف من رجاله . ولم يكد الأمير أسندمركرجى « متولى فتوحات سيس » يعلم بحركة المغول ، حتى أسرع بترك ما تحت يده من قلاع وقصد حلب . وعندما زحف غازان ومعه الملك هيثوم على الشام حاول الناصر محمد بن قلاون — في سلطنته الثانية — أن يصد المغول ، ولكن الهزيمة حلت بالمماليك عند مجمع المروج بين حمص وحماه[٢]. وكان أن فر السلطان الناصر محمد عقب تلك الهزيمة إلى دمشق حيث عم الأهالى الذعر والقلق . ولم يلبث أن أرسل غازان أماناً لأهل دمشق ، قرأه أحد رجال التتار على الناس في المسجد الأموى ، ندد فيه غازان بالمماليك وحكمهم ، ووعد أهالى دمشق ، بأنه لن « يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها لدمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية الإسلامية ، وأن يكفوا إظهار التعدى عن أنفسهم وأموالهم وحريمهم[٣]. » على أنه إذا كان غازان لم يحفظ عهده ، فإن كتاب المسلمين يرجعون ذلك إلى تأثير شريكه هيثوم ملك أرمينية الصغرى . وتشير المراجع إلى التحالف القوى في ذلك الدور بين غازان إيلخان مغول فارس وهيثوم الثاني ملك أرمينية الصغرى ، وانضم إليهما بعد ذلك ملك جورجيا في محاولة كبرى للقضاء على دولة المماليك[٤]. وهكذا واصل المغول يصحبهم الأرمن تقدمهم في بلاد الشام ، حتى وصلوا

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٨٧٨

(٢) Howorth : Hist. of the Mongols, vol. III, p. 431.

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ورقة ٣٢٥

(٤) Tamarati : L'Eglise Georgienne dés Origines jusqu'a nos jours ; p. 436.

الصالحية(١) ، فنهبوها وخربوها « وأخذوا ما بالجامع والمدارس من البسط والقناديل ، ونبشوا على الخبايا فظهر لهم منها شئ كثير . . . وكان سبب نهب الصالحية أن متملك سيس بذل فيها مالاً عظيماً ، وكان قد قصد خراب دمشق عوضاً عن بلاده ، فتعصب الأمير قبجق ولم يمكنه من المدينة ، ورسم له بالصالحية . فتسلمها متملك سيس وأحرق المساجد والمدارس ، وسبي وقتل وأخرب الصالحية ، فبلغ عدة من قتل وأسر منها تسعة آلاف وتسعمائة نفس(٢) » ولكن إذا كان هيثوم ملك أرمينية الصغرى قد استطاع أن ينتقم من سلطنة المماليك بما فعله بالصالحية ، فإن المسلمين لم يغفروا للأرمن فعلهم ، وظلوا يذكرون لهم أن « أثرهم بالصالحية باق ، ولو مكنوا من دمشق لمحوا آثارها ونسوا أخبارها(٣) . »

ومهما يكن من أمر ، فإن النصر الذى أحرزه غازان وحليفه هيثوم لم تكن له ثمرة ، إذ اضطروا إلى الانسحاب بعد قليل ، مما مكن سلطنة المماليك من استعادة سيطرتها على شمال الشام . وقد حاول غازان غزو بلاد الشام سنة ١٣٠١ ، ١٣٠٣ ؛ ولكن المماليك بقيادة السلطان الناصر محمد أنزلوا بالمغول هزيمة قاسية في موقعة مرج الصفر قرب دمشق ١٣٠٢ - ١٣٠٣ ، فولوا الأدبار عبر الفرات . ويقال إن غازان لم يحتمل مرارة الهزيمة ، فمات بعد سنوات قليلة(٤) .

وهكذا أصبح الطريق إلى قيليقية مفتوحاً مرة أخرى أمام جيوش المماليك وخاصة بعد أن جاءت الأخبار إلى القاهرة بأن « تكفور متملك سيس منع الحمل(٥) وخرج عن الطاعة وانتمى لغازان(٦) » . وكان الأمير بدر الدين بكتاش

---

(١) قرية كبيرة فى لحف جبل قاسيون ، وهى مطلة على دمشق (ياقوت : معجم البلدان) .

(٢) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ، ص ٨٩١

(٣) العمرى : التعريف ، ص ٥٦

(٤) زيترشتين : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١١٨ — ١٢١ ، محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ، ص ١٨٩ — ١٩٧

(٥) المقصود بالحمل الضريبة السنوية — المالية والعينية — التى تعهد ملك أرمينية الصغرى بدفعها سنويا لسلطنة المماليك .

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٥٤

وخاصة بعد أن جاءت الأخبار إلى القاهرة بأن « تكفور متملك سيس منع الحمل - وخرج عن الطاعة وانتمى لغازان » . - وكان الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح قد خرج سنة ١٣٠٢ ومعه الأمير عز الدين أيبك الخازندار على رأس جيش لمهاجمة أرمينية الصغرى ، فصاروا إلى حماه حيث توجه معهم نائبها الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى ، واتجه الجميع إلى بلاد سيس ، وأحرقوا الزروع وانتهبوا ما قدروا عليه ، وحاصروا مدينة سيس ، وغنموا من سفح قلعتها شيئاً كثيراً[١]» . وفي سنة ١٣٠٣ جهز صاحب سيس مراكب تجارية إلى قبرس تحمل بضائع قيمتها قريب مائة ألف دينار ، فألقاها الريح على منية دمياط ، فاستولت عليها حكومة المماليك[٢] .

على أن السلطان الناصر محمد لم يكتف بذلك ، وإنما ما كاد يفرغ من إنزال الهزيمة بالمغول في موقعة مرج الصفر ، حتى قرر تأديب صاحب سيس . وكان أن خرجت حملة كبرى من القاهرة سنة ١٣٠٤ بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح ومعه الأمير علم الدين سنجر الصوابي والأمير شمس الدين سنقر شاه المنصورى ، وغيرهم . ومن دمشق اتجهت هذه الحملة شمالاً قاصدة بلاد الأرمن في قيليقية . ولم يلبث أن انتقم المماليك لما حل بالصالحية « فحرقوا مزارع سيس ، وخربوا الضياع ، وأسروا أهلها ، ونازلوا تل حمدون ، وقد امتنع بقلعتها جماعة كثيرة من الأرمن فقاتلوهم ، حتى فتحت بالأمان »[٣] .

وهكذا ساءت أحوال أرمينية الصغرى بصورة واضحة منذ بداية القرن الرابع عشر[٤] . ولم يستطع هيثوم الثاني أن يحتمل مزيداً من الضربات فتنازل سنة ١٣٠٥ لابن أخيه ليو الرابع ، ولكن الأمر انتهى سنة ١٣٠٧ بأن أحد أمراء المغول — وهو برلغوا — قتل هيثوم الثاني والملك ليو الرابع

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أحوال البشر ، ج ٤ ص ٤٢ — ٤٧

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٩٤٢

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ورقة ٢٩ (مخطوط) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٤٩

(٤) Howorth : op. cit., III, p. 579.

وأربعين من كبار أمراء الأرمن . ويشرح المقريزى سبب تلك الكارثة بأن هيثوم كان يقدم الأموال للمغول مثلما يقدمها لمصر ، وفي كل سنة يحضر إليه أمير من قبل إيلخان مغول فارس لحمل « القطيعة » . وفي السنة المذكورة حضر إليه من أمراء المغول برلغوا — وكان قد أسلم وحسن إسلامه — فعزم على بناء جامع في سيس . ولم يحتمل هيثوم الأمر ، فكتب إلى خربندا إيلخان مغول فارس يخبره بأن برلغوا يخونه وأنه يريد أن ينضم إلى جانب سلطنة المماليك بمصر ، الأمر الذى جعل خربندا يتهدد برلغوا ويستدعيه فوراً ولما علم برلغوا بوشاية هيثوم ، قتله على الوجه السابق [١] .

وهنا نلاحظ أنه زاد من ضعف أرمينية الصغرى في ذلك الدور بالذات أنها فقدت الدعامة الكبرى التى كانت تستند إليها ، ممثلة في دولة مغول فارس. ذلك أن دولة المغول في فارس أخذت تتحول في سرعة إلى الإسلام منذ نهاية القرن الثالث عشر ، فتعاقب على حكمها بضع حكام مسلمين ، مثل غازان وأولجاتيو وبوسعيد[٢]. وقد عقد الأخير صلحاً مع دولة المماليك سنة ١٣٢٠ ، ويعتبر هذا الصلح نقطة تحول خطيرة في العلاقات بين سلطنة المماليك من ناحية وإيلخانية مغول فارس من ناحية أخرى ، إذ هدأت العلاقات بين الطرفين . وإذا كان ملوك أرمينية الصغرى الأوائل قد اعتمدوا على النعرة الدينية في استثارة المغول وكسب تأييدهم ضد سلطنة المماليك ، فإن تحول مغول فارس إلى الإسلام قد أفقد ملوك أرمينية سندهم ، وجعل مملكتهم تقف معلقة في الهواء وسط محيط إسلامى واسع .

ولعل هذا الإحساس هو الذى جعل أوشين ملك أرمينية الصغرى (١٣٠٨ — ١٣٢٠) يحرص على استرضاء سلطنة المماليك والوفاء بالالتزامات المفروضة عليه تجاهها . وقد أرسل أوشين إلى نائب حلب يعتذر عما حدث ويقول إن المغول وحدهم يتحملون مسئولية الاعتداء على دولة المماليك وشفع رسالته بهدايا ثمينة ، مع التعهد بإرسال الإتاوة المفروضة عليه بانتظام[٣].

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٨

(٢) Howorth : Hist. of the Mongols, vol. 3, p. 396.

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ورقة ٢٤ (مخطوط) .

وفعلاً حافظ أوشين على عهوده ، فيذكر المقريزى في حوادث سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) أن رسل سيس وصلوا بالحمل على العادة « ومن جملته طشت ذهب مرصع بالجواهر» . وفي حوادث سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) يقول إن رسل سيس وصلوا بهدية « منها طشت ذهب وإبريق بلور مرصع بالجوهر ، وكتاب يتضمن الهناء بالعود إلى الملك ، فأجيب بالشكر » ويقصد بالعبارة الأخيرة التهنئة بعودة السلطان الناصر محمد إلى منصب السلطنة للمرة الثالثة (١٣٠٩ — ١٣٤٠) . وفي حوادث سنة ٧١٨ هـ (١٣١٨ م) يقول إن حمل سيس « قدم على العادة » إشارة منه إلى أن صاحب سيس استمر منتظماً في الوفاء بما عليه[١] .

على أنه يبدو أن سكوت المماليك عن أرمينية الصغرى تلك السنوات قد أطمع ملكها أوشين في محاولة عدم الوفاء بالتزاماته تجاه سلطنة المماليك ؛ لا سيما وأن الحالة الإقتصادية ساءت في أرمينية الصغرى بشكل واضح منذ بداية القرن الرابع عشر ، بسبب ما عانته البلاد من هجمات المماليك من ناحية وكثرة مشاكلها الداخلية من ناحية أخرى . وفعلا لجأ أوشين إلى « منع الحمل » سنة ١٣٢٠ (٧٢٠ هـ) ، الأمر الذى حرك ضده السلطان الناصر محمد بن قلاون من جديد[٢] . وربما شجع المماليك على مواصلة إغاراتهم على أرمينية الصغرى تلك الأخبار التى أخذت تتسرب إلى القاهرة عن اشتداد الصراع الداخلى في ارمينية الصغرى بين الملوك والأمراء ذوى النفوذ وكبار رجال الدين — وجميعهم يؤيدون الإرتباط بروما والتحالف مع الغرب — ، وبين معارضيهم في سياستهم الغربية من ناحية أخرى . وهذا الصراع هو الذى أدى إلى مقتل الملك ليو الرابع وعمه هيثوم الثاني بأيدى معارضيهم سنة ١٣٠٨ ، ثم إلى مقتل أوشين الأول سنة ١٣٢٠ ، فخلفه في الملك إبنه ليو الخامس (١٣٢٠ — ١٣٤١)[٣] . وهكذا أصبح بلاط سيس مسرحاً لجرائم دموية ،

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٣ ، ٨٦ ، ١٨٥

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٠٣

(٣) أبو الفدا : المختصر ، ج ٤ ص ٧٨ ، ٨٨

Howorth : Hist. of the Mongols, vol. 3, p. 602.

وخاصة في عهد ليو الخامس الذى كان قاصراً ، فظل تحت الوصاية حتى سنة ١٣٢٩ يشاهد ما يحيط به من جرائم ويتشبع بروحها ، حتى أنه لم يكد يباشر سلطته الفعلية في السنة السابقة ، حتى بادر بدوره بقتل زوجته وأبيها(١) . وجميع هذه الأخبار كانت تتسرب بطريقة أو أخرى إلى القاهرة ، وأشار المؤرخون المسلمون إلى بعضها ، فيقول المقريزى في حوادث سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢٢ م) « ... وفيها قدم البريد بأن أوشين متملك سيس هلك ، وقام من بعده إبنه ليفون (ليو) وله من العمر اثنتى عشرة سنة ... » (٢) .

ثم إن هذه الأخبار عن سوء أوضاع مملكة أرمينية الصغرى وصلت سلطنة المماليك مصحوبة بما كان هناك من اتصالات خفية في ذلك الدور بين ملوك أرمينية الصغرى من ناحية والغرب الأوربي من ناحية أخرى آملاً في الحصول على مساعدات لإنقاذ ذلك الوليد الصغير الذى تمخضت عنه الحركة الصليبية في الشرق الأدنى . ذلك أن ليو الخامس ملك أرمينية الصغرى أرسل إلى البابا حنا الثاني والعشرين يطلب منه معونة عاجلة ، فرد عليه البابا يعرفه بانشغال ملوك أوربا بما كان بينهم من حروب ومنازعات داخلية . ومع ذلك فإن البابوية حرصت على إصدار النداء تلو النداء لاستثارة المسيحيين في الغرب لمساعدة الأرمن في قيليقية ، واستطاعت البابوية فعلاً أن تجمع بعض الأموال أرسلتها معونة إلى الملك ليو الخامس . وفي نفس الوقت أرسل البابا حنا الثاني والعشرون رسالة إلى بوسعيد إيلخان المغول — في يوليو ١٣٢٢ — يذكره بموقف أسلافه المشرف من أرمينية الصغرى وملوكها ومساعدتهم للمسيحيين بالشرق ، ويناشده إرسال نجدة سريعة لملك أرمينية الصغرى(٣) . ولا شك في أن جميع هذه الأخبار استثارت سلطنة المماليك ، فبادروا بإرسال حملة كبيرة نازلت سيس « واستولوا عليها عنوة بعد حصار ، وقتلوا أهلها وخربوها ، وعادوا على الأرمن فغنموا وأسروا منهم كثيراً وتوجهوا عائدين ... »(٤) .

---

(١) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 635.

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ص ٢٣٧

(٣) Howorth : Hist. of the Mongols, III, p.p. 603 - 604.

(٤) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ١٢ — ١٤ (مخطوط) .

ولم يشأ ليو الخامس — وهو غارق في مشاكله الداخلية — أن يستثير سلطنة المماليك ، فبادر بإرسال رسله يحملون الهدايا إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣٢٣ (٧٢٣ هـ) . ويقال إن هذه البعثة كان على رأسها قسطنطين بطريرك الأرمن ، الذى اعتذر للسلطان الناصر محمد عما حدث ، مما جعل الأخير يوافق على عقد هدنة مع أرمينية الصغرى لمدة خمس عشرة سنة اعتباراً من سنة ١٣٢٣ . وقد تعهد ليو الخامس بمقتضى هذه الإتفاقية بدفع جزية سنوية ضخمة قدرها خمسون ألف فلورين (مائة ألف درهم) ، بالإضافة إلى نصف دخل المكوس التى تجمع في ميناء أياس[١] . وكان المماليك قد دمروا أياس في حملتهم الأخيرة على أرمينية الصغرى ، فتعهد السلطان الناصر محمد بإعادة بنائها[٢] وبعد إبرام الإتفاقية المذكورة حرص ليو الخامس على تقديم الحمل أو الضريبة السنوية المفروضة على ملوك أرمينية الصغرى . ويبدو أن سلطنة المماليك كانت ترسل سنوياً أحد كبار الأمراء إلى أرمينية الصغرى لاستلام الحمل من متملك سيس ، بدليل ما يرويه المقريزى في حوادث سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) من أنه تم القبض على الأمير بكتوت القرماني « لامتناعه من التوجه لإحضار حمل سيس »[٣] . وبلغ من حرص ليو الخامس على استرضاء سلطنة المماليك في ذلك الدور أنه عندما أحس بازدياد نفوذ وصيه أوشين ، دبر مؤامرة لقتله ، متهماً إياه بإثارة الفتنة مع دولة المماليك ، فقطع رأسه وأرسلها إلى السلطان الناصر محمد إظهاراً لولائه ، فسر الناصر محمد بذلك ، وأرسل إلى ملك أرمينية الصغرى خلعة وسيفاً وفرساً[٤] .

وعندما شرع فيلب الخامس ملك فرنسا — تحت إلحاح البابوية — في مساعدة أرمينية الصغرى سنة ١٣٣٥ ، عاود المماليك مهاجمة أرمينية

(١) ذكر القلقشندى أن القطيعة المقررة على مملكة أرمينية الصغرى بلغت « ألف ألف ومائتى ألف درهم ، مع أصناف » (صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٠) .

(٢) D'OHsson : op. cit., vol. 4, p.p. 664 - 665.

(٣) المقريزى : السلوك ؛ ج ٢ ص ٢٥١ — ٢٧٢

(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ص ٩٩

Howorth : op. cit., vol. 3, p. 604.

الصغرى . وقد ذكر المقريزى بعض تفاصيل تلك الحملة التى خرجت لغزو مملكة سيس سنة ١٣٣٧ (٧٣٧ هـ) ، ولكنه ربط بينها وبين تدخل سلطنة المماليك في شئون العراق لمناصرة فريق من الفريقين المتنازعين حولى الحكم ضد الفريق الآخر ؛ فقال إن سلطنة المماليك حرصت أن ترسل عسكرها « قريباً من الفرات » لمناصرة حلفائها في العراق من ناحية ، وغزو سيس من ناحية أخرى ، لأن ملكها « نقض الهدنة بقبضه على عدة مماليك ، فلم يعلم خبرهم وقطع الحمل المقرر عليه » . وكان أن عين الأمير أرقطاى مقدماً على العسكر المصرى ، يساعده بضع من كبار الأمراء ، مثل الأمير طوغاى الطباخى .. على أن ينضم إليهم عسكر الشام بقيادة الأمير قطاوبغا الفخرى . فإذا التقى العسكر المصرى بالعسكر الشامى في حلب ، تولى الأمير علاء الدين ألطنبغا نائب حلب القيادة العليا للحملة . وعندما وصلت الحملة الاسكندرونة ، وجدوا أن الأمير ملطغاى الغزى سبقهم إليها منذ شهرين ، حيث جهز المجانيق والزحافات والجسور والمراكب اللازمة لعبور نهر جهان[1] .

ويبدو أن أخبار حملة المماليك على أرمينية الصغرى جعلت ملكها ليو الخامس يهتز ، فبادر بإرسال رسله في البحر إلى دمياط ، ولكن السلطان الناصر محمد لم يأذن لهم بالقدوم عليه لأنهم لم يتصلوا بجهة الاختصاص ، وأخبرهم أن الأصول تتطلب منهم أن يعلموا نائب الشام بحضورهم ، فعاد الرسل إلى سيس . وكان أن أرسل ليو الخامس هدية إلى تنكز نائب الشام ، وسأله منع العسكر من بلاده ، وأنه مستعد لتسليم جميع القلاع التى تقع وراء نهر جهان للسلطان ، فأخبر تنكز السلطان الناصر محمد بذلك ، كما بعث إلى الأمير علاء الدين ألطنبغا — المقدم على العسكر — يأمره بمنع الغارة ورد الآلات والمعدات الحربية إلى بغراس . ولكن العسكر أصروا على مهاجمة إياس ، مخالفين أوامر ألطنبغا — فحاصروها بضعة أيام إلى أن استولوا عليها في اليوم الثامن للحصار[2] . وفي ذلك اليوم بالذات أرسل ليو الخامس ملك أرمينية الصغرى (١٣٢٠ — ١٣٤١) مفاتيح القلاع ،

---

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ص ٣١٤
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٢٩

على أن يرد مانهب وسبى من بلاده ، فنودى برد السبي وأخرب الجسر الذى نصب على نهر جهان [١] . وتوجه الأمير مغلطاى الغزى فتسلم قلعة كوارة كذلك تسلم المماليك ثغر إياس ، وكان به برج كبير مبنى على البحر باسم البرج الأطلس ، فهدموه وأحرقوه عن آخره . وأخيراً عاد العسكر إلى الشام ، بعد أن استولوا على قلاع أرمينية الصغرى ، مثل قلعة نجيمة وقلعة سرفندكار وغيرهما[٢] .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الحملة تبدو في نظرنا على جانب خطير من الأهمية ، لما تشير إليه المراجع من أن أرمينية الصغرى غدت في حالة تبعية فعلية لسلطنة المماليك منذ ذلك الوقت . ويروى المقريزى أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون آقطع « أراضى سيس لنائب حلب ونائب الشام وغيرهما من أمراء الشام ، وأمر فيها جماعة من التركمان والأجناد ، فاستعملوا الأرمن في الفلاحة ، وحطوا عنهم الخراج ، فعمرت ضياعها . وعمل في كل قلعة من قلاع الأرمن نائب ورتب فيها عسكراً [٣] » . ويبدو أن السلطان الناصر محمد أشفق لما حل بأرمينية الصغرى على أيدى جيوشه من دمار وخراب ، فأمر بإعفائها من الخراج المقرر عليها لمدة ثلاث سنوات كما عقد معها هدنة لمدة عشر سنوات . وفي الوقت نفسه تعهد ليو الخامس بعدم الاتصال بالغرب الأوربي وعدم قبول أية مساعد تأتيه من الخارج[٤] . ومن ناحية أخرى فإن أمراء المماليك الذين أقطعوا أراضى أرمينيه الصغرى عملوا على إنعاشها ورعاية أرضها ، فتوجه الأمير تنكز نائب الشام إلى بلاد سيس سنة ١٣٣٩ (٧٣٩ هـ) « لكشف البلاد التى أنعم بها عليه » . ورسم السلطان الناصر محمد بأن يحمل إلى بلاد سيس « عشرون ألف غرارة غلة برسم تقاويها وتخضيرها . . »[٥] .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ١١٩

(٢) ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٣١٤

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٣٠

(٤) Cam. Med. Hist. ; vol. 4, p. 636.

(٥) المقريزى : السلوك ؛ ج ٢ ، ص ٤٣٩ ، ٤٦٧

على أن الحقيقة الكبرى التى تبدو لنا من دراسة تاريخ أرمينية الصغرى في ذلك الدور – قرابة منتصف القرن الرابع عشر – هى تدهور أحوالها تدهوراً خطيراً مستمراً ، الأمر الذى أقعدها عن دفع الخراج المقرر عليها لدولة المماليك . ولم تقدر سلطنة المماليك بمصر موقف تلك المملكة الصغيرة ، فخرجت الجيوش سنة ١٣٤٣ (٧٤٤ هـ) « وأثروا في أهل سيس آثاراً قبيحة حتى أذعنوا لحمل الخراج »[١] . وفي عصر السلطان الصالح إسماعيل (١٣٤٢ – ١٣٤٥) ابن السلطان الناصر محمد ، أرسل جاى لوزجنان ملك أرمينية الصغرى[٢] يستعطف سلطان المماليك ، ويقول « إن بلاده خربت » ؛ فسامحه السلطان بنصف الخراج ، بمعنى أنه وافق على إنقاص الخراج المفروض على بلاده إلى النصف . ويشير المؤرخون المسلمون بعد ذلك إلى هذه الحقيقة بعبارة « وفيها قدم حمل سيس بحق النصف »[٣] .

وزاد من سوء الأحوال في أرمينية الصغرى في ذلك الدور انتشار الوباء الأسود بين ربوعها ، وهو الوباء الذى انتشر قرابة منتصف القرن الرابع عشر في كثير من أجزاء العالم المعروف – بآسيا وأوربا وإفريقية – وترك آثاراً خطيرة في الأوضاع الحضارية والإقتصادية [٤] . ويبدو أن هذا الوباء انتشر في مصر قبل أن يمتد إلى قيليقية ، الأمر الذى جعل الأرمن يشمتون في المماليك ، وهو ماعبر عنه بعض الشعراء المعصرين بقولهم[٥] :

سكان سيس يسرهم ماساءنا   وكذا العوائد من عدو الدين
الله ينفذه إليهم عاجلاً   ليمزق الطاغوت بالطاعون

---

(١) المرجع السابق ؛ ص ٦٥٠

(٢) كان ليو الخامس آخر ملك أرمنى يحكم أرمينية الصغرى ؛ وبعد مقتله سنة ١٣٤١ تعاقب على عرش تلك الدولة خمسة ملوك كانوا جميعا ينتمون الى بيت لوزجنان ، وهو البيت الحاكم بجزيرة قبرس . وقد نظر الأرمن الى اولئك الملوك الغربيين الأصل نظرة كراهية ، واعتبروهم أغرابا دخلاء . وكان أول هؤلاء الملوك الخمسة الملك قسطنطين الذى لم يحكم سوى عاما واحدا ثم خلفه أخوه جاى لوزجنان (١٣٤٢ – ١٣٤٥) . انظر :
Stubbs : op. cit., ps. 218, 226.

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ص ٧٢٢ ، ٧٧١

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور :
١ – أوربا العصور الوسطى – الطبعة الثالثة ، ج ١ ص ٦٠٩
٢ – العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ١٢٦

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ ج ١٠ ، ص ٢١٢

وسرعان ما امتد ذلك الوباء إلى أرمينية الصغرى ليطحنها مثلما طحن بقية البلاد القريبة والبعيدة سواء ، فازدادت أحوالها سوءاً ، وكتب المقريزى في حوادث سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩) يقول : « وعظم الموتان ببلاد سيس ، ومات من أهل تكفور في يوم واحد بموضع واحد مائة وثمانون نفساً ، وخلت سيس وبلادها . . . »[١]

وزاد من سوء الأحوال الاقتصادية في أرمينية الصغرى اضمحلال نشاطها التجارى ، وانصراف التجار عن مينائها إياس . ذلك أن انهيار الدولة الإيلخانية في فارس والعراق بعد وفاة بوسعيد سنة ١٣٣٥ ، جاء مصحوباً بانتشار الفوضى والاضطراب ، الأمر الذى هدد الطريق البرى المار بتبريز . والتجارة لايمكن أن تزدهر في أى زمان ومكان إلا في ظل عاملين ، هما الحرية والأمن ، فإذا انعدم أحدهما أو كلاهما فلا ازدهار تجارى ولا انتعاش اقتصادى . ولم يقتصر الأمر بالنسبة لأرمينية الصغرى على انعدام الأمن والاستقرار في طريق تبريز الذى يصب في ميناء أياس ، بل حدث أيضاً أن فقد التجار المترددون على أرمينية الصغرى حريتهم في مواصلة نشاطهم ، بعد أن فرض ملوك أرمينية الصغرى من آل لوزجنان على التجارة والتجار ضرائب باهظة مرهقة ، مما صرف التجار عن أرمينية الصغرى وميناء إياس جميعاً [٢]

ومع هذا ، فإن إغارات المسلمين المحيطين بأرمينية الصغرى لم تنقطع ولم تقتصر هذه الإغارات على ما قام به المماليك ، وإنما وجه سلاجقة الروم — أو قونية — ضربات متواصلة لمملكة أرمينية الصغرى طوال القرن الثالث عشر . وعندما سقطت دولة سلاجقة الروم عقب وفاة علاء الدين الثالث (١٢٩٧—١٣٠٧) ، قامت على انقاضها إمارات تركية في آسيا الصغرى ، وأخذت بعض هذه الإمارات تواصل هجماتها على أرمينية الصغرى . ويبدو أنه كان هناك نوع من التقارب بين سلطنة المماليك في مصر وإمارة بنى قرمان بالذات

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٧٤

(٢) **Dulaurier : Recherches sur la chronologie Armenienne ; Tome 1, p.p. 70**

وزاد من هذا التقارب الرغبة في النيل من مملكة أرمينية الصغرى في القرن الرابع عشر . يؤيد هذا ماذكره القلقشندى عن بنى قرمان من عظم مكانتهم عند سلاطين المماليك وتبادل المكاتبات بين الطرفين « لنكاياتهم في متملك سيس وأهل بلاد الأرمن ، واجتياحهم لهم من ذلك الجانب ، مثل اجتياح عساكرنا لهم من هذا الجانب »(١) . الأمر الذى أدى إلى خراب بلاد أرمينية الصغرى .

ولم يستطع سلاطين المماليك في مصر أن يقدروا تلك الظروف الخطيرة التى عاشت فيها أرمينية الصغرى في النصف الأخير من القرن الرابع عشر ، فاستمروا يرهقونها بالمطالب ويفرضون عليها الالتزامات . ويبدو أن الأموال السنوية المحمولة من مملكة أرمينية الصغرى إلى سلطنة المماليك صارت تشكل مورداً هاماً لخزانة دولة المماليك ، الأمر الذى عبر عنه محيى الدين بن عبد الظاهر بقوله « وانتفعت خزائن الأموال بهذه الجملة العظيمة التى تحمل في كل سنة (من أرمينية الصغرى) »(٢) .ولكن مملكة أرمينية الصغرى ألفت نفسها في النصف الثاني من القرن الرابع عشر عاجزة تماماً عن دفع الأموال المفروضة عليها ؛ حتى بعد أن انقصت إلى النصف . وكان أن اعتبر المماليك العجز تمرداً ، وقرر السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين (٧٦٤ — ٧٧٨ هـ ، ١٣٦٣ — ١٣٧٦ م) غزو أرمينية الصغرى وإخضاعها نهائياً(٣). وحدث ذلك سنة ١٣٧٥ (٧٧٦ هـ) عندما عهد السلطان الأشرف شعبان إلى نائبه في حلب — اشقتمر الماردينى — بغزو أرمينية الصغرى . ومن الواضح أن ليو السادس ملك أرمينية الصغرى (١٣٧٤ — ١٣٧٥) رأى بلاده على حالة من الضعف لاتمكنها من المقاومة ، ومع ذلك فقد استمرت عاصمته سيس تقاوم الحصار ثلاثة أشهر كاملة ، تمكن المماليك بعدها من الاستيلاء عليها(٤) ،

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ١٢ — ١٣

(٢) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٩٣

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٥ ص ٤٣٠ (طبعة بولاق) .

(٤) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج ٢ ، ص ١٦٨

في حين لجأ الملك ليو السادس إلى قلعة جابان ، وهي قلعة حصينة تقع على نهر نهر جهان إلى الشمال الغربي من مرعش . ولكن جيوش المماليك اقتفت أثره ، وحاصرته في تلك القلعة تسعة أشهر كاملة ، مما يدل على مدى حصانة تلك القلعة(١). وأخيراً فتحت قلعة جابان أبوابها مستسلمة للغزاة ، فألقى المماليك القبض على ليو السادس آخر ملوك أرمينية الصغرى ، وسيق هو وأسرته إلى القاهرة . وقد عجز ليو السادس عن دفع الفدية المطلوبة منه لإطلاق سراحه ، فظل أسيراً في القاهرة ثمان سنوات ، ساءت فيها حالته وتدهورت صحته ، وماتت زوجته وطفلها ؛ وعندئذ سمح السلطان شعبان بإرسال أحد الأمراء الأرمن المرافقين للملك أرمينية إلى البابوية ليطلب المعونة والمساعدة . ويقال إن البابا رق لحال ملك أرمينية الصغرى ورفاقه في الأسر فأرسل إلى ملوك أوربا يستحثهم لجمع المال اللازم لفداء ليو السادس .وبعد الاتفاق ، والتعهد بعدم العودة إلى قيليقية مرة أخرى ، أطلق سراح ليو السادس سنة ١٣٨٢ ، فاتجه إلى بيت المقدس للحج ، ثم إلى قبرس ورودس فأيطاليا التي وصلها سنة ١٣٨٣ . وأخيراً استقر ليو السادس في باريس ، حيث مات في نوفمبر سنة ١٣٩٣ (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإنه بأسر ليو السادس سنة ١٣٧٥ سقطت مملكة أرمينية الصغرى « وانقرضت منها دولة الأرمن » على قول المؤرخ أبي المحاسن(٣). وكان لهذا الحدث رنة فرح عظيمة في العالم الإسلامي الذي لم ينس لأرمينية الصغرى وملوكها مواقفها المعادية في تأليب المغول ومحالفتهم ضد المسلمين ، فضلاً عن محالفة بعض القوى الأوربية المعادية لسلطنة المماليك . لذلك لاعجب إذا دقت البشائر ، وأعلن الناس حمدهم لله ، الذى مكنهم

---

(١) **Dulaurier : Etude sur l'Organisation Politique de la Petite Armenie, ps. 312, 720.**

(٢) **Atiya : op. cit., p. 15 (Introd).**

هذا ويقال ان ملك قشتالة هو الذى توسط عند السلطان شعبان للافراج عن ليو السادس — انظر :

Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 637.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ ج ١١ ، ص ٦٦

من القضاء على ذلك العدو الخطير ، وأنشد الشعراء الأشعار في مدح السلطان الأشرف شعبان . ومن ذلك ما قاله الشيخ بدر الدين حسن بن حبيب [١] :

الملك الأشرف إقباله يهدى له كل عزيز نفيس

ساق إلى سوق العدى أدهما وساعد الجيش على أخذ سيس

ومنذ سنة ١٣٧٥ ، غدت قيليقية تابعة لسلطنة المماليك ، فأشرف على شئونها أولا نائب إقليم حلب بالشام[٢] وبعد ذلك صار لها نائب مستقل يلقب في المراجع باسم « نائب سيس »[٣]. وقد تردد لقب « نائب سيس » أكثر من مرة في المراجع المعاصرة . ومن الأمراء الذين تولوا نيابة سيس الأمير شرف الدين موسى بن محمد بن شهرى الكردى ، المتوفي سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) والأمير تغاى تمر المتوفي سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠ م) [٤] . وكان نائب سيس في رتبته مساوياً لنائب طرابلس[٥] .

---

(١) المرجع السابق ؛ ص ٣٨٨

(٢) Le Strange : Palestine Under Moslems, p. 27.

(٣) يذكر أبو المحاسن أن السلطان أرسل سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) مثالا « لنائب أذنه ولنائب حلب ولنائب سيس » . مما يدل على أنه كان عندئذ لكل منطقة من هذه المناطق الثلاث نائب مستقل .
(النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١٧٧) .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ١٩٥ ، ج ١٢ ص ٣٨

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٣٣